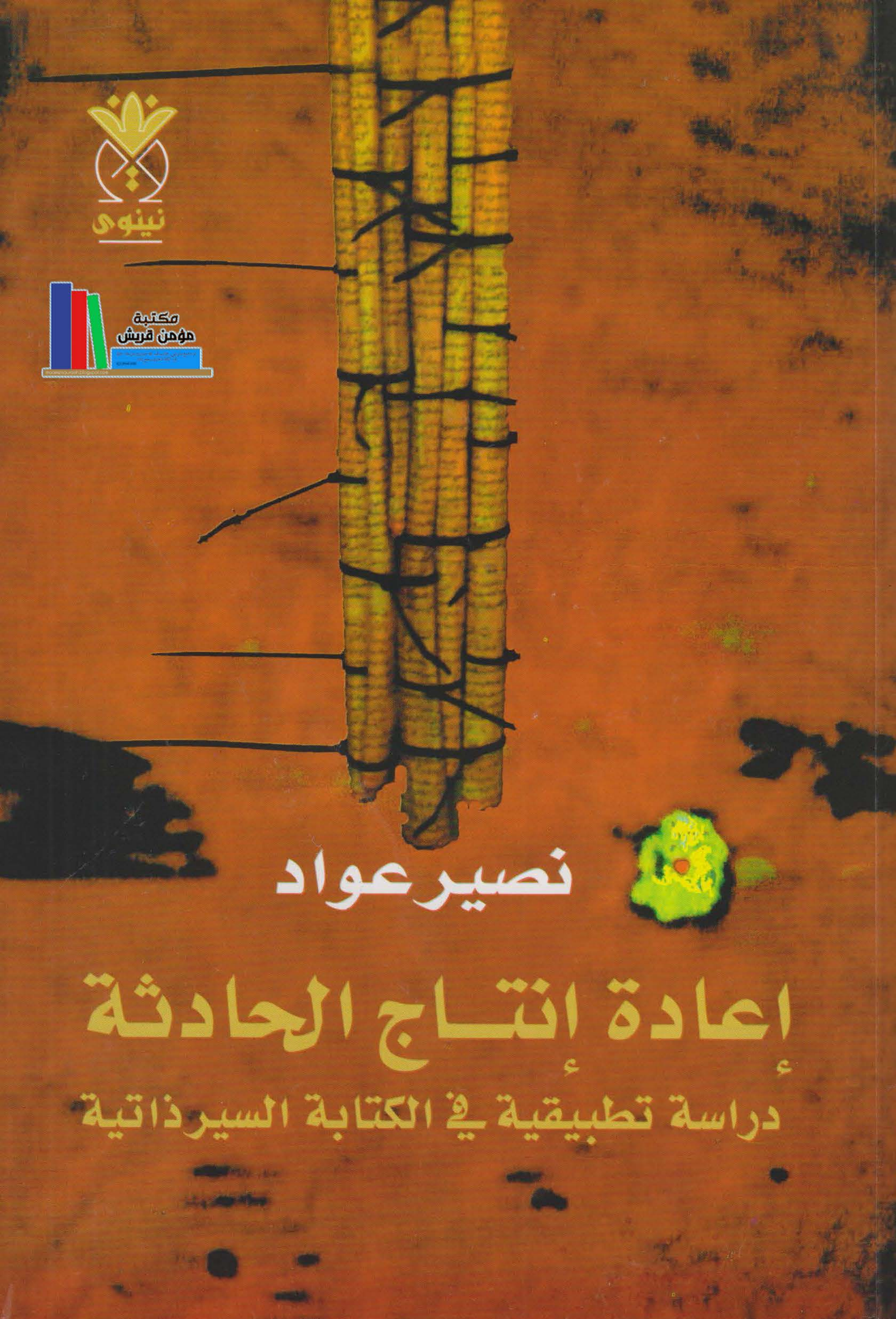

نينوى
مكتبة
مؤمن قريش
نصير عواد
إعادة إنتاج الحادثة
دراسة تطبيقية في الكتابة السيرذاتية





إعادة إنتاج

الحادثة

دراسة تطبيقية في الكتابة السيرذاتية

اسم الكتاب: إعادة إنتاج الحادثة

دراسة تطبيقية في الكتابة السيرذاتية

اسم المؤلف: نصير عواد

١٠٠٠/٢٠٠٩م.١٤٢٩هـ



سورية . دمشق . ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٠١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ +

+٩٦٣ ١١ ٥١٤١٦٠٥

موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة

وتصميم الغلاف في مطبعة دار نينوى

القسم الفني دمشق. سوريا

القياس ١٤,٥ × ٢١,٥

عدد الصفحات: ٢٧٤

لوحة الغلاف: تصميم الفنان ناصر مؤنس

نصير عواد

إعـادة إنتـاج

الحــــــادثـــــة

دراسـة تطبيقيـة في الكتـابة السـيرذاتيـة

Author: Nassar Awad
Original Title: RE-ENACTING THE EVENT

Second Edition
٢٠٠٩ ـ١٤٢٩

Dar ninawa
Damascus - Syria

التـوطئة

ارتـبط التـاريخ العربـي والإسـلامي منـذ البـدايات بالأخبـار والـسير والتراجم،تزعم ذلك أئمة كبار على علم بالأنساب والوقائع حيث يمتد السرد التأريخي أو فعل التأرخة إلى بدايات الخلق والتكوين. وكان القدماء مهتمين بأخبار ومرويات عن أمور وقعت،لكن الأخبار الشفاهية عنها بقيت خاما ولم تتخذ جنسا معينا في البداية،وسادها الاضطراب في العصر الإسلامي الأول بسبب قصر المادة المروية أو تصادمها مع المرويات الأخريات،وتكذيب علماء الحديث لقسم منها وكذلك مواقف الرواة المنحازة تلك الأيام ما أدى إلى ضياع أغلب تلك الأخبار والمرويات قبل زمن التدوين،أو تحولها بعد ذلك إلى مادة خام للمؤرخين الكبار لتدخل دائرة التكرار والاستنساخ. وبسبب التجديد الذي يسم كل مناحي الحياة كان لابد من تجديد الرؤية للأخبار والحوادث وأساليب روايتها ، وهذا ما لم يتحقق كاملا وناضجا قبل ظهور ابن خلدون بسبب غياب الاستقرار الاجتماعي والسياسي من جهة،و غياب المناهج الحديثة الذي وضع الأسلاف بين وسطية القبول والرفض من جهة أخرى ،عبرت عن نفسها بانتقائية تتفق وخصوصيات الثقافة المستمدة من تاريخنا العربي الإسلامي .

لقد وجدنا من المفيد أن نوطئ لكتابنا بفصل عن مادة الكتابة السيرذاتية ونعنى بالحادثة وتحديدا بنيتها،عناصرها،أشكال ظهورها،أساليب استخدامها.الحادثة مادة التاريخ،وإن التأثير الذي يمارسه التاريخ على وجودنا المتنوع يتجلى في تنوع التعامل مع الحوادث التي أصبحت ليس حكرا على المؤرخ فقط. فتطور الحياة الاجتماعية وتنوع صراعاتها جعل من الحادثة أرضا تتقاطع على تربتها نوايا واتجاهات مختلفة. وحتى تلك الحوادث التي لا تملك اتجاها

فهي لم تنج من التأويل والتهويل.وكلاهما صيرتها الأغراض نهبا للجميع، السياسي والتاجر والمثقف ورجل الدين والعالم والمؤرخ وغيرهم، وموزعة على أكثر من اتجاه سياسي وأدبي وفلسفي.إن الحادثة تقع على الأرض ثم تنتهي، ولا يمكن التلاعب بتفاصيلها دون أن يترك ذلك أثرا في بنيتها.وإن أي تلاعب أو استبدال لعناصر الحادثة في الزمان والمكان والأفراد سينتج حادثة مجاورة؛ أي أن عناصر الحادثة هي حدودها على الأرض. ولكن بعد وقوع الحادثة ووضوح عناصرها تبدأ أغراض الرواة بالعمل على إبراز هذا العنصر أو ذاك لتحديد طبيعة الحادثة التي ينبغي روايتها.لكن الحادثة تقع على الأرض وتنتهي ومن ثم تستمر على ألسنة الرواة. غير أن الحادثة التي هي على الأرض ليست كما هي في الرأس.وهي في الرأس ليست كما هي على الورق، وهي على الورق ليست كما هي عند القارئ، في دورة لا تنتهي من إعادة الإنتاج.

إن تراكم الحوادث وترابطها لا يمنع من دراسة الحادثة لذاتها، منفردة. فالحادثة قد تكون قوية أو ضعيفة، معزولة أو منعزلة، مؤثرة أو متأثرة، وهو ما ينعكس على علاقتها بغيرها من الحوادث وعلى أسلوب روايتها من دون القدرة على انتزاعها من سياقها التاريخي. إن دراسة الحادثة لذاتها منفصلة عن الأسباب والنتائج، عن الماضي والمستقبل، عن ثنائية الشكل والمضمون، مهم للحادثة قبل أي شيء ولا يلغي قدرتها على الترابط والتأثر والتأثير.وحتى أفكار من قبيل الترابط والتجاور والتشابه التي تحيط بالحوادث، هي لا تعني أن هنالك ترابطا وتجاورا وتشابها في العناصر الداخلية للحوادث في الزمان والمكان والأفراد والظروف المحيطة.وهذه الأفكار غالبا ما تؤدي إلى التعميم وإضعاف الخصوصيات التي تتمتع بهم الحادثة المنفردة، مفسحة في المجال لإعادة إنتاجها من لدن الجهة الأخرى في الصراع. في بحثنا لم نجد ما يؤكد فقدان واختفاء الحوادث الضعيفة الترابط وغير المفيدة، وحتى الحوادث المعزولة والمنعزلة التي تقع عند الطوائف المعزولة أو القرى النائية أو تلك الحوادث التي يتفق أطراف

الصراع على نسيانها، لم تفن أو تفقد كليا، وغالبا ما تتحول عند أبطالها وضحاياها إلى جزء من المكون الثقافي، وهو ما مهد لنا الوقوف عند الحادثة بين الجلاد وبين الضحية وأيهما أحق بروايتها وأيهما أجدر بتوثيقها ؟.

بعد تناولنا الحادثة من وجهة نظر السياسي والديني والأدبي وما تحمله من أغراض وتداعيات وأساليب للروي، عمدنا في الفصل الثاني إلى دراسة أساليب استخدامها (الحادثة) في الكتابة السيرذاتية باعتبارها الأكثر كثافة وتنوعا بذلك.أي أننا لم نلجأ "كليا" إلى الدراسة الأدبية التي تحفر في طبقات السرد والمقدمات النصية لتحديد شكل الكتابة السيرذاتية، وتوقفنا أكثر من أي شيء آخر عند الحادثة في تحديد ذلك.عناصرها في المكان والزمان والأفراد والظروف المحيطة. قدرتها على التأثر والتأثير، البقاء أو الذوبان والنسيان في الحراك الاجتماعي.فالحادثة ليست سردا أو واقعا متشابها في جميع أشكال الكتابة.إن الكتابة السيرذاتية وافدة وجديدة بما تمتلكه من أساليب وعوالم ومساحات للحرية والروي، خصوصا وأن عالمنا العربي يملك حاضنات وأنماط حياة مختلفة في التفاصيل عن غيرها، أنتج ذلك كتابة مختلفة في الأسلوب والمناخ ومساحة الحرية المتاحة.وهو ما نلمسه في أسباب الكتابة والأهداف التي تقف خلفها والظروف التي صاحبت ظهورها في منطقة تعتبر من أكثر المناطق صراعا ودموية.وهو ما ألقى بظله على بنية الحادثة السيرذاتية "المحتدمة أو الهادئة" وأسلوب روايتها والأغراض والانتماء والمهنة التي تقف خلف إبراز عنصر دون غيره، مؤديا كل ذلك إلى إعادة إنتاج الحادثة. فالبحث عن الحقيقة لا ينتهي، والاستماع إلى الرواية المقنعة لا يتوقف، وإعادة إنتاج الحادثة مستمر بين الصانع والسامع والراوي، بين السياسي والشاعر والتاجر وإمام المسجد وغيرهم.أدى ذلك إلى زيادة في كتابات الأدب الشخصي بشكل لافت تعبيرا عن حركة المجتمع وتطوره، خصوصا بين الشرائح المتعلمة والمثقفة أو تلك التي هاجرت قسرا. أي أن تراكم التجارب أنتج تنوعا في الأساليب والأغراض في

كتابة هي في الأساس تشرب من مياه متشعبة في السياسة والفن والتاريخ والأدب والجغرافيا وتفاصيل الحياة اليومية.في الفصل الثاني أفردنا بحثا عن فترة الطفولة عند مؤلفي السير والمذكرات،ودور الذاكرة واللغة والمخيلة في الوصول إلى الزوايا المعتمة في البدايات البعيدة،وتأثير ذلك على بنية الحادثة الواقعية وعناصرها في الزمان والمكان والأفراد.ولماذا اختصر كثيرون فترة الطفولة ثم عبروا مسرعين إلى المفيد في التجربة ؟، في الوقت الذي توقف فيه آخرون عند فترة الطفولة فقط باعتبارها الأساس لكل شيء. ولماذا لم يستطع بعض المؤلفين فصل الماضي عن الزمن لغرض رؤيته أفضل والتوقف عنده أكثر؟ثم أنهينا الفصل الثاني ببحث نحسبه جديدا في بابه، عن إمكانية المجموعة في رواية مذكراتها.فكلنا يعرف أن الأدب الشخصي من السرديات التي تمتلك بطلا واحدا يروي عن نفسه وعن الآخرين،ولكننا عند الطوائف المعزولة أو المجموعات السياسية المتحصنة في الجبال،والتي تعيش في ظروف متشابهة وحوادث قليلة يساهم الجميع في صناعتها وروايتها،قد تنتج حكاية واحدة متعددة الأصوات عن تجربة معينة أو فترة زمانية محددة ومكان بعيد ومعلوم.توسلنا في ذلك الحادثة المعزولة وقدرتها على البقاء في الذاكرة،وعلى تحولها إلى واقعة قد تشكل جزء من تاريخ المجموعات التي يتكون منها البلد.

في الفصل الثالث تناولنا بالدراسة التطبيقية مجموعة من المؤلفين الذين لا ينتمون إلى جنس أو فكر أو عمل واحد بينهم السياسي والشاعر والمفكر وربة البيت وإمام المسجد. إن اختيارنا لبعض المؤلفين دون غيرهم في الدراسة التطبيقية لم يكن ثمرة علاقات اجتماعية أو أغراض شخصية فأغلبهم رحلوا ومن بقي على قيد الحياة لم نعرفه أو نلتقي به،ولا يوجد بيننا سوى النص والاقتناع بعد الاطلاع.ولذلك في دراستنا التطبيقية عن الحادثة التي تناولنا فيها نماذج من المذكرات والسير، لم نجعل همنا الدخول في عوالم المؤلفين وحياتهم الشخصية أو مواقفهم السياسية خارج حدود النص إلا بقدر ما يخدم الموضوع

ومنهجه في دراسة خصائص الحادثة وعناصرها الداخلية في الزمان والمكان والأشخاص. إن وقوفنا عند النص جعل منهجنا ليس جامدا بل يميل إلى المرونة التي تمليها طبيعة الكتاب الذي نتناوله والتجربة الحياتية التي عاشها المؤلف، وتأثير ذلك على العلاقات الداخلية لعناصر الحادثة الداعمة لإبراز طبيعتها الفاعلة أو الخاملة.فلقد وجدنا أولويات السياسي في روايته للحادثة هي غيرها عند الشاعر وربة البيت والمفكر وإمام المسجد، انعكس ذلك على بنية الحادثة وأسلوب توصيلها.إن الحادثة تقع وتنتهي على الأرض ومن ثم تتحول عند السياسي إلى موقف وأداة للتحليل والصراع وعند إمام المسجد إلى عبرة دينية واستلهام للماضي وعند المفكر إلى موضوعة فلسفية - اجتماعية وعند الشاعر إلى صورة وصفية يفوق صدق جمالها حقيقة وقوعها.إنهم يروون حوادثهم - فردية أو اجتماعية - ولكن كل من زاويته التي تخبئ مفرداته وأسراره وتجاربه، حتى لو عاشوا تجربة واحدة أو مرحلة واحدة .

بقي أن نشير إلى التناقضات التي تسم موضوع الحادثة أحيانا، حيث أن مرده ليس خللا في بنية الحادثة أو في موقعها بين جاراتها بقدر ما هو نقص في أدواتنا المعرفية أو تصادم في الأغراض السياسية والاجتماعية التي تقف خلف استخدام الحادثة عند من ساهموا في صناعتها وروايتها، أو في تراكم الحوادث وتنوعها الذي يوحي بالتشابه حينا وبالاختلاف أحيانا.

الفصل الأول

إعـادة إنتـاج الحادثـة

الحـادثـة

نحن نعتقد اننا أسياد انفسنا او على الوقائع وهذا وهم كبير

علي حرب

التعامل مع الحادثة لذاتها ، منفصلة عن التاريخ والأغراض والذاكرات، ما زال يواجه صعوبات معرفية في ثقافة لم تغربل تراثها بعد ولم تحسم أمرها مع الماضي.وضمن شيوع التناول الأدبي المتنوع لها وسط حالة التداخل بين الأجناس الأدبية المرتبط بأساليب السرد وجماليات التوصيل وشطحات الخيال، سيجعل من الحادثة غير ما هي عليه.فالعلاقة النفعية بين الحادثة الواقعية وبين روايتها توضح أن للسرد موضوعات وأولويات غير تلك المنشغلة بحقيقة وقوع الأمر.

الحادثة هي نحن.لها قدرتها النسبية على التواصل والانقطاع، ولها أسلوبها في التشابه والاختلاف ولها حدودها على الجغرافية والتاريخ.وأي تخيل لحياة الأفراد والمجموعات دونما حوادث فإنه سيحلق طويلا ومن ثم يستريح عند عتبة حادثة الخلق الأولى.الحادثة حين تصنع ،بمعزل عن إرادتنا ، ستأخذ شكلها ومكانها حال وقوعها وحسب الأدوار التي يلعبها الأفراد والمجموعات لتفتح بعد ذلك طريقا إلى ثقافة العامة ووعيهم، وتغتني بالإضافة والحذف وتعدد زوايا الرؤية إليها .ومع إن أغلبهم يتوقفون عند صحة وحقيقة المعلومة التي تقدمها الحادثة إلا أنهم بعد وقوعها واكتمالها تأخذها أغراضهم في اتجاهات الأزمنة.الحادثة عند الإسلامي الذي يفزع إلى ذكر الأوائل تكون محددة بالماضي ومرجعياته المقدسة ،وعند السياسي المستأنس بالتغيير ستكون مرتبطة بالمستقبل الذي يشبه حاضرا يستمد شرعيته من الأيديولوجية ،وعند المثقف

/الروائي والقاص مثلا/ قد لا تكون هذه ولا تلك لكنها تنشد رؤية معينة لحركة المجتمع والتاريخ؛ أي أنها بسبب الأغراض تتحول إلى مفترق للأزمنة تتلاقى فيه أو تتقاطع.وأيا تكن هذه الأغراض والأسباب فإن الحادثة بعد وقوعها لا تتغير على الأرض، وستبقى في تنوع الأزمنة والمصالح والروايات كما هي، محددة بظروفها الخارجية وعناصرها الداخلية في الزمان والمكان والأفراد.بكلام آخر أنها تختلف وتتنوع على ألسنة الرواة وليست على أرض الواقع.

الحادثة (عند ابن منظور حدث أمر أي وقع) المبتلاة بالتأويل والزيادة والنقصان تمتلك طبيعتها القدرة على السير في اتجاهات متعددة، وتحتمل روايات متعددة أكثر من حقيقة وقوعها على الأرض،وان تكون نبعا يستقي الجميع منه ما يخدم حاجاتهم.ومن تبعات هذا التعدد المرتبط بالأغراض.إنتاج التنوع والاختلاف والتأويل ولي أعناق الحوادث وتأكيد ،أو نفي، وقوع الأمر من خلال تقوية أو إضعاف عنصر من عناصره. سينعكس ذلك بطبيعة الحال على الحادثة لتكون فيه وسيلة أو أداة وليست هدفا.إن طبيعة الحادثة وقدراتها على تمثل ما يجري قد سمح بتبنيها من الأطراف المتصارعة،وأفسح المجال في إمكانية التدخل بتفاصيلها عند تغير تلك الحاجات. وبالتالي فإن استخدام الفرقاء لها وإلباسها أثوابا مختلفة سيضعف من حيادها وتلقائيتها، ويساهم في توضيح أو تشويه ما يرافقها من خصوصيات قد يؤدي إلى تغيرات في أسلوب تصويرها وتوثيقها.ومن هنا فإن دراسة الحادثة لذاتها منفصلة وبعيدة عن التاريخ والذاكرة والغرض ومحددة بالزمان والمكان مهم جدا، دون التقليل من أهمية الأسباب التي أنتجتها وحقيقة حركتها المترابطة والمؤثرة بعضها ببعض والمولدة بعضها لبعض في علاقات لا تنتهي.الاستقلال الذي نطلبه للحادثة مهم لها من جهة، وأخرى سيخفف من التحام الأجناس الأدبية (السيرة الذاتية موضوع بحثنا) ويساعد كثيرا في تحديد المصطلح والتخفيف من زئبقيته.ولو سلمنا بحقيقة

اختلاف السرد في أنواع الكتابة السيرذاتية فإن رواية الحادثة التي يتطلب فيها الصدق والواقعية وتحديد زمان ومكان وقوع الأمر وأسماء أبطالها الحقيقيون في المذكرات، لا يشترط ذلك في السيرة الروائية المنشغلة بتغريب الحوادث والتلاعب بالأسماء والأمكنة والأزمنة، وما يجري في الأخيرة هو غيره في اليوميات التي تتطلب الحوادث الطازجة والحاضرة التي تشعر القارئ وكأنها وقعت للتو.وهكذا تختلف بنية الحوادث في الذكريات والاعترافات والسير الشعرية وغيرها، حيث لكل شكل خصوصيته.وهذا الذي سبق لا يلغي حقيقة أن روي الحوادث في الحدود الميثاقية لجنس الكتابة يسمح بالخروج على القواعد المتعارف عليها في التعامل مع الحادثة في فن الكتابة بسبب تنوع الأساليب والثقافات والتجارب.وهو ما أدى، إضافة إلى أسباب أخرى، إلى شيوع التناول الأدبي للحادثة أكثر من أي شيء آخر.

إن وضع الحادثة في خانة واحدة مع الحوادث الأخر لا يلغي خصوصيتها أو يقطع خيوط ارتباطها بغيرها، لأنها بطبيعتها لم تكن عامل قطع على أرض الواقع.فهي بجانب جاراتها تشكل جزء من حقل معرفي يضيء بنية المجتمع وما ينتجه من تطورات في مرحلة معينة من تاريخه.هذا يعني أن قيمة الحادثة، إضافة إلى خصوصيتها واستقلاليتها، مرتبطة كذلك بدورها في التأثير على طبيعة الحوادث الأخر والترابط معها ما دامت نشطة ومستمرة. وهذا الترابط الذي يعول عليه كثر لتحديد طبيعة الحادثة لا يمكن الحديث عنه قبل وقوع الأمر.أي أنه من منتجاتها سلبا أو إيجابا.ولذلك فإن ربط الحادثة الضعيفة بأخرى \ أقدم، أقوى، أهم، أوضح \ لكي تكتمل وتؤثر في غيرها لا يجدي نفعا كثيرا، لأن الحوار الذي تمارسه الحوادث فيما بينها هو غير الاكتمال الذي تحققه الحادثة لذاتها عند وقوعها، متمثلا بعناصرها الداخلية وشكلها الخارجي.وحتى فعلي التأثر والتأثير اللذين تتمتع فيهما الحادثة واللذين يأتيان كذلك بعد وقوعها، لن يستمرا إلى ما لا نهاية، هو دليل آخر على الاكتمال

والاستقلال لا العكس.

من البديهي القول أن تراكم الحوادث عبر سنين طويلة يحدد البنيات الفكرية والاجتماعية للمجتمع، ولكن الحوادث ليس قطيعا سياميا متشابها، ولا هي تسير بخط مستقيم أو سلسلة متصلة من الحلقات الاجتماعية والسياسية؛ أي أن هذا التراكم يتضمن التشابه مثلما يتضمن الاختلاف أو إمكانية الحادث المنفرد الذي ينتمي أبطاله إلى فئات مختلفة أو جغرافية معزولة ومصالح لا تعكس بالضرورة الوعي المتكامل لتلك المجموعات.وهذا التفرد /المنعزل، المعزول، الخامل/ لا يعني بالضرورة القطيعة التامة مع الظروف المحيطة، أو بداية مرحلة وانتهاء أخرى .

كثير من الحادثات المنفردات لم تستطع حماية نفسها من الإضافة أو الحذف، التأثر والتأثير، وبالتالي التحول صوب الإبداع الجماعي.وهذا قد يغني الحادثة المنفردة ظاهريا ويوسع من قدرتها على التأثر والتأثير في الحوادث الأخر ومن إمكانية استثمارها والاستعانة بها من غيرها، ولكنه قد يضعف من خصوصيتها ويحول المعلومة التي تتفرد بها إلى ركام من الأخبار العامة المألوفة أو المبهمة السبب والنتيجة.ومع ذلك فإن الحادثة المنفردة لا يمكن وصفها بالارتباك والضعف بسبب المعلومة التي تنقلها أو بعدم القدرة على البقاء بسبب انقطاعها عن السلسلة أو أنها لم تكن امتداد لأخرى سبقتها وأخرى تليها، وكأن الامتداد والتواصل فقط اللذان يحددان طبيعة الحادثة وقدرتها على البقاء.فليست كل الحوادث تمتلك قوة التأثير على والترابط مع غيرها أو إنتاج الدلالة المفيدة في خلق العبر والدروس.الحادثة قد تمر دون ضجيج يحدثه وقوعها بعيدا عن الحواضر المدنية أو ضعف في الصراع الدائر، أو يتم استبعادها بسبب غرابة المعلومة التي تقدمها، وأحيانا تطوى على عجل لغرض الوصول إلى الحادثة الأساسية والنتائج التحليلية المعدة سلفا، ناهيك عن أن الحوادث المهمة تكون هي الأقل ظهورا في بعض الظروف المعقدة والسرية.الحادثة قد يتم تجاوزها

وإهمالها بسبب جهل في أسباب وقوعها واتجاه سيرها، أو يتم عزلها بقصد لغياب المنفعة في تنشيطها مثلما حدث للتمرد العسكري ببغداد في الستينيات والمعروف باسم (انتفاضة معسكر الرشيد المسلحة) من القرن الماضي بعد أن نفذه جنود وعمال فقراء كرد فعل سريع وعنيف على المجازر التي وقعت حينذاك.وهذا التمرد المنسي والمهمل أربك الدولة يومذاك وكاد أن يسقط سلطتها لولا الأخطاء التكتيكية وقلة الخبرة وضعف الدعم الداخلي والخارجي، ما أدى إلى فشله وتصفية المشاركين فيه بدموية مفرطة ما زالت أسرارها طي الكتمان.هذا التمرد الذي جرت أحداثه في معسكرات الجيش ببغداد جرى إهماله وعزله بقصدية من السلطة ومن المعارضة على حد سواء ليمنحه ذلك واقعا أسطوريا وتراثيا.الأولى ، السلطة، لا تريد تذكر جريمتها البشعة ودماء الأبرياء التي سالت من دون محاكمات سرية أو علنية.والثانية، المعارضة، أهملته لأنه خرج عن طوعها ولم يستشرها أحد في تنفيذه، مع علمها بالتفاصيل.فبدت النهاية المأساوية لحادثة التمرد أول وهلة مكانها صندوق النسيان، لأنها لم تفاجئ المتناحرين أبناء التجربة وأصحاب الخبرة والمصلحة من جهة، وأخرى طبيعة الحادثة العنفية وعدم قدرتها على توفير مبررات دعم الآخرين لها، صورها وكأنها معزولة غير مقنعة وغير مستوفاة لشروط اللعبة السياسية.

إن الذي ساعد في عزل حادثة التمرد هو عنصر الفرد، الإنسان، الصانع.لقد صنعها أفراد من قاع المجتمع، غابت عنهم الأسماء البراقة للسياسيين والعسكريين.فلم يدعمه أحد حال وقوعه ولم يتبناه حد بعد فشله، وهذا يعني أن الحادثة ليس لها من عيب سوى أنها وقعت خارج شروط اللعبة السياسية.هذا الإهمال المزدوج والمقصود ساهم في إعادة إنتاجها وتضخيمها من قبل العامة على مدى نصف قرن من وقوعها وتناقص معاصريها وأبطالها، إلى أن تصدى لها الدكتور المرحوم علي كريم سعيد في كتابه القيم (العراق البيرية المسلحة) في

كل متشابك من الأحداث والذكريات واللقاءات والمواقف السياسية والتحليلات العسكرية "ليجعل من المقتولين ظلما، يحضرون في كل الفرص والمناسبات العامة، ليتذكر القاتل فداحة جرمه"[1]. لقد كانت أحزابنا السياسية وما تزال مقبرة للأسرار المهمة والعادية التي قد لا يفرج عنها دونما هدف.وهذا الظهور المتأخر لحادثة التمرد العسكري هو التحقق الممكن في ظل الحصار والتغييب اللذين أفرزتهما المصالح الضيقة للقوى السياسية،ليؤكد على أن بقاء الحادثة وترابطها مع غيرها سببه ليس فقط قدرتنا على اكتشاف ذلك،بل وكذلك قدرة الحادثة عليه.فبقاء الحادثة طويلا في الذاكرة الاجتماعية وفي ظروف لم تعد قائمة يدلنا على أن قوة الحادثة لا تأت فقط من قدرتها على الترابط والتأثير بل وكذلك من حقيقة ومأساوية وقوعها المتمثل بعناصرها الداخلية في الزمان والمكان والأفراد.وإن تجريدها من هذه العناصر أو اختزالها في موقف سياسي أو جملة في الحراك اليومي هو الذي سيؤدي إلى إضعاف وظيفة الترابط مع.

أسباب الترابط إن كانت داخلية أو خارجية ليست ثابتة وواضحة على الدوام.فقد يأتي الترابط قويا ومؤثرا بفعل الصراعات التي أنتجته والمصالح والأسماء التي تقف خلفه،أو يأتي ضعيفا بفعل الجيرة والقرب والبعد وبطء التنقلات بين الحواضر، إلا أنه ليس آخر وظائف الحادثة وإن كان من أهمها.وهذه الأهمية نسبية ومرتبطة بالمنهج.فأصحاب الفهم المادي للتاريخ على سبيل المثال لا تشغلهم الحادثة وأشكال ترابطها بقدر انشغالهم بالأسباب التي تتحكم بحركة الواقع وتنتج حوادثه.أي إن موضوعهم هو الواقع الاجتماعي وقوانين تطوره وليس حركة الحوادث في ترابطها أو انفصالها.إنهم يرون في الحوادث الشكل الظاهري لما يجري داخل المجتمع، وأي ترابط أو تسلسل لا يأخذ في الحسبان الأسباب والصراعات سيدفعها إلى السطحية والميكانيكية، مزينة بالحكايات والأمثال الممتعة.فالأسباب هنا هي التي

تصنع الحادثة وتحدد شكل ارتباطها واحتمال تكرارها، وليس لأن هذه أكثر أهمية ووقعت أولا أو تلك أقل أهمية ووقعت تاليا.وهذا الفهم يتعامل مع السبب على أنه علاقة وليست حادثة "فمن المستحيل أن يكون السبب حدثا، أنه علاقة اجتماعية محددة بها تتوالد الأحداث، فتخرج إلى ظاهر الواقع مرئية غير مترابطة"٢.ومن هنا فإن التاريخ كله من وجهة نظر المادية التاريخية، هو كل العلاقات وليست كل الحوادث.فكثير منها لا تمتلك الأهمية في تطور المجتمع ولا القدرة على التوثيق وخدمة الأغراض المباشرة.ونظرة سريعة على حياة الناس اليومية ستكشف عن مساحات واسعة للحوادث المنسية بسبب النشاط اليومي المرتبط بالتكرار والرتابة والتقليد مثل الأكل والشرب ولقاء الأهل ومشاكل العمل والنقل وغيرها، لتتحول إلى مسلمات يومية عامة لا تنتهي، تكف فيها عن أن تكون حوادث تستحق التوقف والتحليل والتوثيق إلا بشكل عابر للوصول إلى المهم أو لأغراض السرد.ولكننا لو تمهلنا بالنظر والتدقيق لوجدنا كذلك أن هنالك اعتبارات للحراك الاجتماعي لا علاقة لها بنوعية الحوادث التي تشعل الحريق أو تلك التي تفعل فعل القشة في كسر ظهر البعير.

إن الحادثة الضعيفة الترابط والمعزولة أو الغريبة بالنسبة للآخرين ولمحيطها الخارجي، نجدها ماثلة لأصحاب الشأن - أبطالها وضحاياها - وتتجلى في قيمهم ومعاناتهم وثقافتهم. فصغر حجم الحادثة أو كبرها يحدده دورها في حياة الآخرين وإن عاشوا أقلية معزولة في مدن حدودية بعيدة أو في قرى لطوائف دينية محاطة بتقاليد محافظة وقيم متماسكة.والسؤال هنا هو إذا كانت الحوادث كلا متسلسلا ومترابطا في الحراك الاجتماعي، فهل يمكن التعامل مع الحادثة الواحدة باعتبارها كلا منفصلا في الترابط كحلقة في سلسلة من دون ارغامات أو تصنيع للخيوط التي يجب أن توصل بين الحوادث ؟ وهل يضعف ذلك من قيمة ما تقدمه الحادثة ؟.إن الحادثة المنعزلة بسبب بنيتها وظروفها كأن تقع بعيدا عن الحواضر لأقوام وطوائف لها خصوصيتها، نادرا ما تدخل

ثقافة المجموع وذاكرتهم.وتزداد عزلتها طرديا مع تزايد المبالغة في تمتين وتصنيع التماسك بين الطائفة المعزولة وبين الحادثة في رحلة وحيدة الاتجاه صوب الداخل المزدحم بالقيم الموروثة، من دون أن يعدم ذلك استمرار الحياة الثقافية والاجتماعية لتلك الطائفة، متضمنة حوادثها وذاكرتها.

إن الحادثة المنعزلة بطبيعتها هي غير تلك المعزولة قصدا والمدفوعة بنوايا مسبقة صوب النسيان.فالأخيرة تمتلك أرضية طبيعية للتحليلات العقلية ووجودا مسكوتا عنه إلى حين.مثل ذلك نجده في حياة الفلاحين في أرياف الشام البعيدة عن الحواضر والمشحونة بالفقر والمعاناة والصراعات كانت معزولة قصدا ومدفوعة للنسيان عشرات السنين ولم يتطرق إليها التاريخ الرسمي للدولة لحين ورودها بالتفصيل في سيرة حنة مينة الروائية (بقايا صور، المستنقع، القطاف) لتكشف أساليب الاستغلال وطرق العيش ودور الأفراد وطبيعة الأمكنة، وكل ذلك جرى عبر حياة عائلة المؤلف.الحادثة المعزولة قصدا إذا لم يتم تناولها غالبا ما تتحول في الحياة العامة إلى ميدان صراع لإثبات البراءة أو تأكيد المواقف بلغة وأداة بعيدتان كل البعد عن حقيقة وقوع الأمر كما جرى مع حادثة التمرد العسكري ببغداد بعد أن تنكر لها الجميع وتحولت إلى أحدوثة على ألسنة الرواة من دون أن تكون واقعة يتوقف عندها المعنيون؛أي أن الحادثة المعزولة ستتسرب إلى ثقافة المجتمع وذاكرته ورواته ولكن بعد أن تكون النخب المتصارعة قد جارت عليها مرتين، الأولى في نسيانها قصدا والثانية في امتلاكها وتحويلها إلى وحدة مكونة للموقف العام والأغراض البعيدة التي غالبا ما تتمدد على فترات زمنية طويلة، ستؤدي لا محالة إلى إعادة إنتاجها. وبسبب هذه العوامل، إضافة إلى حاجات ثقافية أخر، فإن إخراج الحوادث المعزولة إلى النور وتزويدها بسبل البقاء يأتي من جهة الأدب أكثر من أي نشاط اجتماعي آخر.

على أية حال فليس من المؤكد أن الحوادث التي وقعت في الماضي والتي لا تلبي حاجات الآخرين مصيرها الفناء والنسيان.فهي حتى لو لم تقل شيئا في

الصراع الدائر فإن تجلياتها ستؤثر في سياق الأحداث الأخر المكونة للإبداع الجماعي، باعتبارها فعلا اجتماعيا.وكما سبق القول فإنها عندما تقع وترتبط وتؤثر وتتأثر فإن هذا النشاط سوف لن يصاحبها إلى ما لا نهاية.فهي تقع وتكتمل ثم تكف عن ذلك وتدخل صندوق الماضي وتبقى محفوظة في ذاكرتنا الاجتماعية ولن تأتي إلا إذا استدعيناها نحن بسبب اصطدامنا مع ذلك الماضي أو لحاجات أدبية متمثلة بالكتابة السيرذاتية في نهاية الرحلة أو لمنفعة أو لأسباب تبررها طريقة الاستدعاء.

أحيانا نطل على الإبداع الثقافي وهو يعكس نشاط الذاكرة الجمعية المحتفظة بالوقائع الكبيرة من مثل الكوارث الطبيعية والأوبئة والحروب والهجرات الكبيرة التي تتصف بامتداد مساحة الزمن واتساع الرقعة الجغرافية أو الاجتماعية ، وأحيانا نطل على الذاكرة الشفاهية وهي تقف عند اليومي والمسكوت عنه والمنسي من الحوادث المتمددة على مسافة زمنية ورقعة جغرافية محدودة نسبيا ، وكل ذلك سينعكس بطبيعة الحال على إعادة إنتاج الحادثة وأسلوب روايتها.فالذاكرة وهي تروي أو تدون أو توثق، وهي تتخيل أو تضيف أو تنسى أو ترمم، نجدها لا تكف عن الإبداع.وفي تعاملنا مع الحوادث المستعادة سيرذاتيا غالبا ما نميل إلى الذاكرة التي تحاول استرجاع أكبر قدر ممكن من حقيقة وقوع الأمر أكثر من ميلنا إلى المخيلة التي تصنع غير حادثة.

الحادثة من صنع الإنسان والطبيعة.وهي الفعل الأول الذي تتبعه ردود أفعال متنوعة الأهداف والسرد ، والتي قد تعطي أو تأخذ منها.ومن الطبيعي أن يؤدي النشاط الإنساني المستمر إلى كثرة وتراكم وتكرار الحوادث متمثلة بعنصري المكان والأبطال والأفعال المختلفة دون أن يؤدي ذلك إلى نتائج متطابقة.هذا يعني إن الظروف الاجتماعية المتشابهة لا تؤدي بالضرورة إلى حوادث ونتائج متشابهة.فلحظة وقوع الأمر وتلقائيته يميزان الحادث عن غيره ويلقيان بخصوصيته على حركة تطور المجتمع.وإن استعصى فهم الحادثة لحظة وقوعها

فلا يعني ذلك فقط عيبا في بنيتها يستدعي ربطها مع أو تشبيهها بغيرها من صاحباتها.فقد يكون للفترة الزمنية القصيرة التي أعقبت الحادثة لم تكشف بعد عن التفاصيل التي تساعد في توضيح حدودها وقدرتها على الترابط والتأثير والتنبؤ، وقد تكون سرعة تدفق الحوادث لا تجاريها أحيانا سرعة تدفق الأفكار التي تبينها وتتصفها.إضافة إلى ذلك فإن ضعف الحوادث وعدم قدرة الظروف المحيطة فيها على أزالت الغموض وإبراز إيجابيات الحادثة المنعزلة أو المعزولة أو المكررة، ستعمل على إفراغ مخزنها من الأسئلة التي تضمن بقاءها.

الحوادث حتى وإن ترابطت أو تجاورت فهذا لا يعني حتمية الترابط في أسبابها أو التجاور في بناها والتشابه في خصائصها.فنحن بسبب سهولة نقل المعلومات وتبادل وجهات النظر نستطيع القول عن أية حادثة بأنها تمتلك مشتركات مع حادثات أخريات /الأبطال، الظروف، الأمكنة، إيقاع التطورات/ لكنها لا تصل إلى حد التطابق في الأسباب والنتائج. وحتى القول بأن الحوادث التي تقع هي في الأساس موجودة في التاريخ والذاكرة وأن الحوادث الجديدة ليست سوى استعادة لها أو تنويع عليها أو قريبة من القيم والمفاهيم والإنسانية التي أنتجتها.قول فيه الكثير من الصحة ولكن التاريخ يتوقف كذلك عند الأسباب التي أنتجتها والظروف التي صاحبتها والعلاقات الاجتماعية التي ميزتها عن غيرها.ولذلك فإن عدم القدرة على التعامل مع الحادثة لذاتها يدفعهم إلى الاعتقاد بأن ربط الحادثة أو تشبيهها بغيرها هو فك لعقدتها وتخفيف لعزلتها.وهو في حقيقة الأمر تسطيح لها ووقوف عند إطارها الخارجي بحثا عن تشابه أو تطابق أو ترابط، متناسين عن قصد أو غيره أن الخصوصية الداخلية المتمثلة بعناصرها هي التي تميزها عن غيرها وتحدد عمرها.فالتشابه لا يعني التطابق.وتكرار الحوادث هو الآخر لا يعني تطابقها، لكنه التشابه الذي يبطن الاختلاف.وبالتالي فإن الميل إلى فكرة التطابق والتشابه بين حادثتين، والتي نجدها بكثرة عند السياسيين، هو الخطوة الأولى إلى التعميم وإضعاف

الخصوصيات التي تتميز بها الحادثة عن جارتها، وصولا إلى إلغاء أحدهما لصالح الأخرى أو إلغائهما معا لصالح الحادثة الثالثة المتمثلة "بالأغراض والنوايا " التي تقف خلف فكرتي التشابه والتطابق.

إن طبيعة الحادثة هي التي تميزها عن غيرها من الحوادث على الرغم من التشابه في التفاصيل.فقد نجدها، عموما، عادية عابرة في السرد وتجلب أسباب نسيانها معها، أو تذوب في جمع ينتج باستمرار أسباب وجوده وتجدده.وقد تأتي محتدمة الصراع ومشابهة لغيرها في بعض التفاصيل ويزيد من عمقها البحث وتضيئها الأسماء والأمكنة.وقد تأتي معزولة ومبهمة الأسباب والنتائج، يساعد في غناها التأويل والحس الشعبيين.وبسبب هذا التنوع والغنى تعاني الحادثة من كثرة آبائها ومن صعوبة عرض حقيقتها كاملة غير منقوصة ومقنعة للجميع وهو ما يدفع ، اختصارا للوقت، إلى تشبيهها أو تصنيع تطابقها أو مد خيوط علاقتها بغيرها.

الحادثة تقع نتيجة لتداخل مصالح فئات وشرائح مختلفة، وترتبط أو تتراكم لأسباب هي الأخرى مختلفة، لتساهم في إبراز هذا التيار الديني أو يتكأ عليها ذاك التيار السياسي.فتقديم وتأخير العلاقات السببية الراهنة على الماضية، أو العكس، أمور تدخل ضمن أغراض المتناول ولا يمكننا الحديث عن حادثة دينية أو سياسية أو اقتصادية نقية تنتج بالنهاية مقولة دينية أو فكر سياسي أو قانون اقتصادي. الحادثة وعاء لكل هذا الخليط، وفعل أفراد وجماعات أنتجها المجتمع بحركته وصراعاته. لكننا قد نلتقي بحوادث تؤسس لمثل تلك التيارات أو تدفع باتجاهها فتقع أحداث غير سياسية لتؤدي إلى نتائج سياسية، أو أنشطة يومية رتيبة تؤدي إلى واقعة كبيرة وثورة جماهيرية عارمة كما حدث لشاوشيسكو في جمهورية رومانيا الاشتراكية، أو صراعات اجتماسياسية تؤدي إلى نتائج دينية وبيئية. لكن ذلك لم ينتج واقعة نقية.فمثلا الصراع المسلح والطويل في ستينيات القرن الماضي بين الدولة العراقية من جهة

والثوار المتمردين والمتمركزين في أهوار الجنوب من جهة أخرى دفع بالدولة إلى الاستعانة بالشركات الهولندية المتخصصة في عمليات الطمر واستصلاح الأراضي لتعين الشركات المحلية في تجفيف تلك الأهوار. وهذا السبب السياسي في ظاهره أدى إلى مشاكل اجتماعية وبيئية واقتصادية ودينية مختلفة. فلقد هجر الكثير من الفلاحين والصيادين بيوتهم وقراهم بسبب قلة المياه وموت محاصيلهم وحيواناتهم ليخلق ذلك مشاكل اجتماعية واقتصادية حادة. ومن الناحية البيئية طمرت المياه ويبست المحاصيل وهاجرت أنواع كثيرة من الطيور النادرة للبحث عن أماكن جديدة ودافئة في جهات مختلفة في أسيا الدافئة، ومن الجهة الأخرى أدت إلى مشاكل وجودية ودينية حقيقية لطائفة الصابئة المندائية المتمركزة في وسط وجنوب العراق والموجودة من مئات السنين وتعيش على عمل معدات الزراعة للفلاحين وقوارب الصيد للصيادين لتصطدم بحقيقة تجفيف الأهوار وتناقص كمية المياه التي تقع في صميم عملهم وفي مركز معتقداتهم وشعائرهم في التعميد. وأدى، إضافة إلى أسباب حضارية وعلمية، إلى هجرة الكثير من أبناء الطائفة القليلة العدد أصلا، وهددهم بالذوبان والاندثار كما حدث لهم في تأريخهم كأقلية قلقة على مصيرها. ومثل هذه الحوادث - تجفيف الأهوار - المحيرة والمتعددة المضامين ستكون بالتأكيد في متناول الجميع وسهلة لمن يقفون عند سطحها ويسرعون إلى تلخيصها في عبرة أو موقف أو نتيجة نهائية. لأن الحادثة التي تختزن السياسي والثقافي والعلمي والديني وبسبب حجم مساحتها الجغرافية، لا يمكن حجبها عن الآخرين، وخصوصا أصحاب الأغراض المباشرة. ولذلك فإن إعادة إنتاج الحادثة هنا قد يتطلب التنقل بين مكان وآخر، بين سياق سردي وآخر، بين موقف سياسي وآخر أقل ما يقال فيه أنه تقطيع للحادثة وتعقيدا لمهمة القارئ.

إن نتائج الحوادث المختلفة عن بداياتها وأسبابها في حراك اجتماعي لا ينقطع، تدفعنا كذلك إلى النأي بالحادثة عن ثنائية الشكل والمضمون

وترابطهما أو انتمائهما إلى طبيعة واحدة. وجر الحادثة إلينا بدعوى انسجام وترابط الشكل بالمضمون لا يستقيم على الدوام بسبب غنى الحادثة وتنوع أسبابها ودوافع المشاركين فيها ومصالحهم، وهو ما يجعل من الشكل السياسي للحادثة كما أسلفنا نتاجا بمضمون ديني أو اقتصادي.ونحن عموما لا نستطيع أن ننأى بصفاء الحادثة التي نصنعها عن مؤثرات (الأخرى) التي تؤدي إلى عدم فرض إرادتنا على مجرياتها وأشكال ظهورها. إنها ببساطة بقعة ضوء تتجمع حولها الأسباب والأسماء والأمكنة التي لا يمكن تجييرها والتحكم بعناصرها والاستمرار بامتلاكها حتى النهاية. ولذلك فإن لجوء بعض مؤلفي السيرة الذاتية إلى الأسلوب الأدبي في التناول وفصل الحوادث عن بعضها بعض في أبواب وقطعان ومهن لإبراز مضمون محدد، فيه تدخلا فظا في سياقها وتلقائيتها كما في (سيرة حياة) للأستاذ عبد الرحمن بدوي عند فصله الكتابة السياسية عن النشاطات الثقافية وهذه الأخيرة عن الدور العلمي" وأدع هذا الفصل من نشاطي السياسي لأتناول نشاطي في الإنتاج العلمي"[٣].والفاصلة هنا ليست بالضرورة بعد النقطة والهمزة أو نهاية الحادثة، فمنهج الكتابة يتفاعل مع ثقافة الراوي للتمهيد للفاصلة في القفز على والارتباط مع الحوادث الأخر. الفاصلة قد تأتي عند بدوي جملة سردية مثل" وما دمنا في بداية ١٩٣٤، فليقف الحديث عند هذا الحد ولنا عودة أوسع فيما بعد"[٤] ما يؤدي إلى إيقاف السرد وتحوله إلى آخر، في عملية تبويب للحوادث تنتج مللا عند القارئ في تكرار دلالتها. وهذا الإيقاف المقصود لسرد الحوادث الواقعية في جريان الزمن يتطلب في حالة العودة إلى السياق، تحريك الحوادث صوب التحديدات الزمانية والمكانية الطبيعية التي تم إيقافها، وتمهيد سردي جديد يوفر للقارئ عودة منسجمة لمناخ القراءة.

الحادثة كما هو معروف بنت زمانها ومكانها وأي إعفاء قسري لها من سياقها التاريخي يجعلها قلقة ومعلقة في فراغ اجتماعي مفتعل. فالزمان والمكان

والأبطال لا يكفون عن الارتباط بجريان الحوادث في حركة المجتمع، إلا أن وقوع الأمر وانتهائه يصعب بعده عملية التلاعب بعناصر الحادثة التي تمتلك وجودا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا لا يمكن تغييرهم واستبدالهم دون أن يترك ذلك بصماته على بنية الحادثة الأصلية.فكل عنصر يمتلك خصوصيته لحظة التشكل من دون أن يكون بالضرورة عنصر عزل عن وانقطاع مع الحوادث الأخرى. ومع أن عملية التغيير لا تعدم قدرة المخيلة في تنويع وتطوير عمليات السرد، باعتبار أن استبدال العنصر أو التلاعب بمساحته يتطلب قدرة أكثر إقناعا في تعويض ذلك التغيير بالكلام والخيال والأحداث المحيطة التي تساعد في إخفاء الإهدار الداخلي لبنية سياق الحادثة الأصلية وتلقائيتها، إلا أن عناصر الحادثة الواقعية تعمل كقوانين داخلية في تحديد بنيتها وشكلها الخارجي وقدرتها على توسيع مساحة فهم الصراعات الدائرة، مثلها كمثل العقل الذي يبحث في الحادثة والذي لا يمكنه الاشتغال منفصلا عن تاريخه وتجربته وثقافته. لكن الحادثة بعد وقوعها تكف أن تكون مفتوحة الضفاف كما الأفكار، وتستمر مثل الحقيقة المنفلتة التي يحاول الجميع الإمساك بجوهرها.

الحادثة مادة الأفكار. وكلما اقتربت هذه الأفكار من التجريد اقتربت الحادثة من الواقع العياني. أي الذي يتغير ويستمر هو علاقاتنا الفكرية والحياتية بها وليست هي. إن كلامنا المستمر عن الحادثة الثابتة نعني فيه قبل أي شيء العناصر الداخلية لها والتي تثبتها ذاكرتنا. فثورة يوليو المصرية عام(١٩٥٢) التي نفذها تنظيم الضباط الأحرار لا نستطيع إسكانها سوريا أو العراق باعتبار أن المكان الجغرافي هو موطن الحادثة الأول قبل أن تستوطن الذاكرة والأغراض، ولا نفترض زمانها الستينيات أو السبعينيات من القرن الماضي لأنها بحاجة إلى زمان تاريخي محدد تكون فيه موضوعا مختلفا عن صاحباتها، وكذلك لا نستطيع اختلاق صناع لها من عندياتنا، ناهيك عن الظروف والأسباب التي أدت إلى الثورة والتي لا يمكن تكرارها في أي من

البلدان على الرغم من حدوث انقلابات عسكرية مشابهة لثورة يوليو المصرية مجاورة لها مكانيا "سوريا والعراق" ومقاربة لها زمانيا \الخمسينات والستينات\.

وما سبق يشير إلى أن عناصر الحادثة /الزمان، المكان، الأفراد، الظروف/ تقيم فيما بينها علاقات متشابكة تعيق التفريط بأحدهما حفاظا على الإطار الذي يجمعهم ونعني فيه الحادثة. ولكن الذي يحدث هو أنها بعد وقوعها واكتمالها، تعرض نفسها الحوادث كنماذج جاهزة يذهب كل منا معتمدا رؤيته ومخيلته وذاكرته الفردية للبحث عن كمالها من خلال العلاقة بين الذات والعالم، وهذا قد يدفعنا إلى تقوية أو إضعاف عنصر على حساب غيره، غير مدركين أن ذاكرتنا الاجتماعية لا تستطيع الاحتفاظ بعنصر على حساب العناصر الأخر دون أن يترك ذلك خللا في بنية الحادثة .

اللغة والذات يمتلكان دورا كبيرا في جعل الحادثة مفتوحة النهايات وأحيانا أكبر من حجمها الطبيعي الذي انتهت إليه. دور يؤكد إن علاقتنا بالحادثة الثابتة المعالم علاقة تغيير وتجديد مستمرين.إن طبيعة السرد وهي تخبئ أساليب التذكر والتخيل والتوصيل ستختلف بين راو وآخر.صحيح إن الواقع على الأرض يستطيع تحديد الحادثة كما هي إلا أنها في الواقع ليست كما هي في أبنية اللغة وتراكيب الكلام.فعلى الرغم من تلازم الذات المفكرة مع الوجود إلا أن الخيال والتجربة في علاقتهما المنتجة بالأخير "الوجود" سيضعفان من عملية التلازم واستنساخ الحادثة كما هي. عندما يقع الأمر فأنه يكتمل، عاجلا أو آجلا، على الأرض وإن لم نستطع فصله نهائيا عن الأسباب والنتائج، ولكنه سيبقى في أذهاننا مشروعا مستمرا ومنفتحا إلى حين على الأفكار والمصالح والعلاقات.وباستثناء الحوادث المرتبطة بالمقدس فإنه لا توجد حادثة لم تتوقف عن إنتاج أفعالها. ومن ثم فإن هذا التوقف أو الاكتمال سينفتح على أساليب الرواة وثقافتهم وتجاربهم لا ينتهي عنده الكلام وسينتج علاقة متغيرة ومبدعة في تمديد أو اختزال العناصر الداخلية للحادثة وبالتالي تغييرا في شكلها.

إن وقوع الأمر سينتج معه أسباب بقائه "أو نسيانه" في الذاكرة الاجتماعية أو الفردية، على ألسنة الراوي والسامع والمتخيل. وصناع الحادثة أول الأمر هم مخزن رواتها والعنصر الأكثر ثقة وقدرة على تفريخ الاحتمالات والممكنات في إعادة إنتاجها.فبعد وقوع الأمر من الممكن أن نكون كلنا له مستهلكين وليس من الممكن أن نكون كلنا له منتجين، من دون أن نترك أثرا في بنيته. فصناع الحادثة ورواتها بداية يمتلكون حقيقة روايتهم للحادثة، وكل بما لديه قانع، من دون أن يمتلك أحدهم الحقيقة كاملة فسوف يسقط في الفراغ، إلا في حالة أن يكون هو العنصر "البطل" الوحيد فيها. وهذا نادر جدا لأنه ببساطة الفرد كائن اجتماعي لا ينفصل عن المجموع، وإن دوره في صنع الحوادث والتاريخ لا يمكنه من فعل ذلك وحيدا. إن الحادثة الجاهزة في انفتاحها على الجميع لا تعرض نفسها كاملة لصناعها وغالبا ما تترك جانبا مبهما وبعيدا عن دائرة الضوء يرونه كل من زاويته وموقعه. وأحيانا الزاوية التي يقف عندها الراوي أو تلك المحملة بالانحياز للمرجعية ستؤدي بوعي أو غير ذلك إلى عدم الاهتمام بعنصر معين، ما قد يؤدي إلى حجب واستبدال حقيقة التفاصيل لتنتج حادثة مجاورة، أو تنتج حادثته هو. وبمجرد شعور الآخر التاجر. العالم. المثقف. "السياسي وغيرهم" بأن هنالك دائما حادثة حقيقية تقف خلف تلك المروية وأن وجها حقيقيا يقف خلف ذلك الزائف، يعد ذلك من الخطوات الأولى لتجديد العلاقة معها. وبالتالي فإن انعدام القدرة الكلية في تحديد الرواية الحقيقية للحادثة ستدفع بالآخرين إلى إبداع رواية أكثر معقولية وموضوعية من وجهة نظرهم. وهو ما يوصلهم إلى إعادة إنتاجها.

عندما تقع الحادثة تؤسس للنسيان مثلما التذكر، صانعة بذلك الشك في الحقيقة التي هيهات تبلغ الكمال. ففي جريان الزمن والنسيان ستبقى في ذاكرة الأبطال والرواة صورة الحادثة وليست الحادثة، ولذلك فأنهم في عملية التذكر يستعيدون الصورة لا الأصل فأنه شبه مستحيل؛ أي أن استعادة الحادثة

في ظروف غير تلك التي وقعت فيها، معطوفا على رحيل الشهود واندثار الأمكنة تعتبر كلها مواد أولية جيدة لصناعة النسيان. ومع إن أغلبنا يلقي باللوم على النسيان في عملية الاسترجاع لما له من دور في دوس على التفاصيل المهمة إلا أنه في حقيقة الأمر ليس سلبيا على الدوام، فعدا عن كونه رحمة فنحن بفضله عرفنا الذاكرة وقيمتها وأساليب تنشيطها، ووسعنا المخيلة لتجعل من الحوادث المنسية أكثر قربا وحميمية. إضافة إلى أن هنالك كثير من المؤرخين، يرون في النسيان فرصة جيدة للتعامل بحيادية وموضوعية مع الحوادث التي لفها الماضي وغابت المصلحة المباشرة في استعادتها.

كما مر بنا فإن الحادثة تختلف عن نفسها على ألسنة صناعها ورواتها وليست كما وقعت. فهي بين معاناة البطل الذي ساهم في صنعها وبين تقنيات وأغراض الراوي ستصلنا مختلفة على الرغم من أنهما (البطل والراوي) واحد متداخل أحيانا. فكيف إذا كان الراوي ليس هو البطل وكان بعيدا عن الحادثة أو نقلها عن وسيط ؟وكيف بحقيقة المعلومة إذا تعدد الرواة ؟.

يقع الأمر على الأرض جغرافيا واجتماعيا وسرعان ما يتحول في رؤوس صناعه ورواته إلى صور وأفكار يتم استدعاؤها كلما تطلب الأمر ذلك. وعملية التحول من الواقع إلى الرأس تشبه عملية التدوين التي توثق روح الخبر لا تفاصيله كاملة. ومن هنا فإن قوة الحادثة لا تأتي فقط من روايتها على ألسن صناعها أو من تكرار روايتها على ألسن متنوعة وفترات متعددة أو على كمية الصدق الذي تحتويه، على الرغم من أهمية ذلك، بل ومن الاختلافات التي تنطوي عليها تلك الروايات ومن تنوع الإجابات على الأسئلة التي تعرضها الحادثة وهذه الاختلافات تزداد كثافة كلما اغتنت عناصر الحادثة بخصوصية المكان وطبيعة الزمان والمرجعية التي تقف خلف صناع الحادثة أو رواتها. إن عدم الإحاطة الكلية بحقيقة وقوع الأمر، وهو ينتج تنوعا في الروي، يتوسل علاقات جديدة بين العناصر ستؤدي إلى طرق جديدة في التفكير

والأحلام والأمنيات تحدد أن للحادثة مكانين للوقوع، على الأرض وفي الذهن. وقدر الحادثة أن تقع في الأول، الثابت، وتستمر في الثاني، المنفتح، وهو ما يدفعنا إلى القول بأن أي احتكاك أو تناول للحادثة سيؤدي لا محالة إلى إعادة إنتاجها سلبا أو إيجابا. إلا أن الخصائص الشخصية والفردية لصناع الحادثة الواقعية الواحدة والتي طالما سميناها بالزاوية التي يطل منها الفرد على الحادثة، لا تسوغ لنا القول بوجود حادثة داخلية (فردية) وأخرى خارجية (مجتمعية) مختلفتان أو متناقضتان، إلا في حالة يكون فيها هو وحده البطل، لحمة الحادثة وسداها، وهذا نادر جدا كما قلنا. إن الزاوية التي يطل منها الراوي ترتبط بقدراته السردية والتخيلية التي قد تنتج حادثته هو، ولكن هذا لا يعني أن هنالك عناصر داخلية مختلفة عنها في الحادثة الخارجية العامة.بل الحادثة هي هي نفسها ولكن المختلف هنا هو موقع الراوي وثقافته وتقنياته.وهذا دليل آخر على أن الحادثة تختلف عن نفسها على ألسنة الرواة وليست على أرض الواقع.أما إذا وقعت الحادثة وأدت نتائجها وارتباطاتها إلى تأثيرات معينة ومختلفة على أحد صناعها أو أبطالها على ارض الواقع المتحركة، فإن ذلك سينتج حادثة جديدة لها خصوصيتها وموقعها الجديد كحلقة جديدة في سلسلة لا تنتهي.

إضافة إلى الخيال الطري الذي يصاحب إعادة إنتاج الحادثة، فإن الأغراض تقف منذ البداية خلف التركيز على عنصر معين والإمساك فيه على انه المفتاح الوحيد أو الأساسي لفهم حقيقة وقوع الأمر - مكان وقوع الحادثة مثلا - إلا أن التعامل مع عناصر الحادثة بأسلوب الانتقاء وكأنها شخص مريض ينبغي معالجته أو تبديل عضو من جسمه، لن يدوم طويلا وسيكون مؤلما للحادثة كحادثة من جهة، وأخرى للأمانة والحيادية.التركيز على عنصر المكان قد يضعف عنصر البطل. إن اشتغال العناصر وانسجامها داخليا تطلب بنية توصل ذلك الاشتغال إلى نهاية وقوع الأمر وغايته. انسجاما تحدده خصوصية الحادثة وقدرتها على الاستجابة لذلك دون ارغامات فوقية متأخرة تقوي عنصر على

حساب الآخر لغرض التجيير أو الترابط مع الحوادث الأخر، أو تؤكد موقفا أو تجيب سؤالا؛ أي أننا لا نستطيع الحكم على الحادثة من خلال عنصر واحد دون أن نحدث خللا في بنيتها. فلحظة وقوع الأمر وتبلور العناصر، تكون الأغراض وأدوات التأويل والنتائج في رؤوسنا كلها في طور التشكل أو الذهول إذا كان الأمر قويا ومفاجئا، وبعد وقوع الحادثة تنشط في رؤوسنا الأغراض المؤدية إلى الحذف أو الإضافة لعناصر الحادثة، لنجد في المنعطفات الحادة والأزمات السياسية والاجتماعية ونتيجة لما تختزله الظروف من عوامل تاريخية متداخلة ومكثفة قد يبرز على واجهة الأحداث أفراد مجهولين قدموا من أماكن لم تكن مؤثرة، يدعون إلى إعادة كتابة التاريخ وترتيب عناصر الحوادث وربطها بما يخدم أغراضهم غير مدركين أنهم حتى لو استطاعوا في أماكن خفية أو بسبب غفلة الآخرين أن يصنعوا أحداثا ويلوون أخرى فسوف لن يستطيعوا التحكم بمجريات الأمور طويلا، وقد يعطي الترتيب القسري والمفتعل للحوادث نتائج على العكس مما كانوا يفكرون. إن الإزاحة التي تتعرض لها الحادثة لكي تنسجم وأغراض الراوي ستبدأ في إزاحة عناصر الحادثة في الزمان والمكان والأفراد. فكثير من الحوادث التي جرى التدخل في ترتيب عناصرها الزمكانية والاجتماعية أدت إلى نتائج كارثية على الجميع في الزمن القريب أو البعيد.صاحب ذلك ازدياد في نبرة الصراخ على أن ما يجري هو (ضرورة تاريخية وموضوعية) لتراكمات معينة ونتائج معقولة ومتوقعة للصراعات. وهذا ما نتلمسه في الانقلابات العسكرية والعصيانات المدنية والإضرابات العمالية عندما يتم مسبقا تحديد زمن التحرك ومكانه "وهو في الغالب العاصمة والأماكن العسكرية والمهمة " وأبطاله ودور كل منهم في الحادثة التي تنطلق من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) كي تأخذ موقعها المرسوم لها سلفا، وأحيانا تتم فرملة التحركات بتدخلات فوقية قبل أن تصل إلى النقطة التي تحددها طبيعتها المفتعلة بدعوى التنظيم المحكم الذي يسند النجاح، وهي

تدخلات تبقى فوقية ولا تصل إلى خلق الانسجام الداخلي لعناصر الواقعة المرتبطة بتطور الأمور على الأرض. فإن نجحت التجربة دخلت باب الضرورات الموضوعية التي يتطلبها تطور المجتمعات وإن فشلت دخلت كيس التجربة الاجتماعية وخيباتها المتكررة، وهذا يذكرنا بالنتائج الكارثية لكثير من الانقلابات العسكرية في بلداننا العربية وصحة المواقف والخطط والنوايا التي تقف خلفها. والسؤال هو إذا كانت التجارب خاطئة ومدمرة فهل يعني هذا أن ضعفا في بنية الحوادث قد أدى إلى عدم قدرتها في أن تكون لبنة جيدة في البناء التاريخي، أم هي التدخلات القسرية في طبيعة الحوادث بعد أن شغلتهم أحلام طموحاتهم عن حقيقة أن حركة المجتمع تفترض تراكم الحوادث التلقائي وتنوعه وغناه بالعناصر الدينية والسياسية والاقتصادية وبكل ما من شأنه إسناد الحوادث في أن تعبر عن نفسها وعن حركتها سلبا أو إيجابا كأداة ووسيلة للتعريف بطبيعة المجتمعات. حقا أن الأحداث تقودنا وتفاجئنا وتتلاعب بنا أحيانا على الرغم من أننا نظن عكس ذلك. ونستطيع تلمس ذلك في النتائج التي وصلت إليها منطقتنا على مدى قرن من الزمن.

قبل الانتقال إلى موضوع آخر لابد من الإشارة إلى الظاهرة الفيزيقية أو ما نطلق عليها بـ(الحادثة الطبيعية). وهي ظواهر لا تختلف كثيرا باختلاف المكان والزمان، وبطلها واحد هو الطبيعة؛ أي أن الظروف المتشابهة تؤدي أحيانا إلى ظواهر طبيعية متشابهة بشكل عام كالفيضان والزلزال والبركان. وهي تختلف في خصائصها عن الحادث الاجتماعي، الأمر الذي لا يعدم التشابه في أساليب البحث الاستقرائية والتجريبية والنتائج المتقاربة أحيانا في التأثير، مثل احتراق بستان بسبب الصاعقة أو بسبب غضب الفلاحين. وقد يتم استخدام الاجتماعي للطبيعي أحيانا بسبب التقارب الزماني أو المكاني. فالحوادث هنا قد تتراكم متجاورة من دون تفاعل أو حوار، وقد تتباعد دون علاقة كعصيان جنود أو عمال في الجنوب وفيضان نهر في الشمال. ولكن قد

يأتي سياسيا من الصفوف الخلفية، خصب الخيال، يفتعل التفاعل بينهما ويمسك بالخيوط التي هي غير موجودة إلا في ذهنه ليرسم بعد ذلك لوحة شاحبة عن تدهور الوضع السياسي والاقتصادي يسيجها بإطار من الشعارات والأفكار الضبابية التي تتحدث عن انسجام الإنسان مع الطبيعة.ومع إن السياسي لا يعتقد بفائدة القوانين الفيزيقية في حالة تطبيقها على التطورات الاجتماعية كعلم، لكنه لا يتردد بانتهاج المفهوم الكلي في تفسير الحياة حين يخدم مصالحه. ولكن إذا صادف وإن تواءمت الحادثة الاجتماعية مع أخرى طبيعية، أو أدى الفيضان إلى مجاعة تسهم في توسيع العصيان إلى ثورة أو تعقيد في التطورات الاجتماعية إلى درجة لا يمكننا معها الفصل بينهما، فهذا لا يعني بالضرورة وجود قانون ينتظم الظواهر الفيزيقية والاجتماعية أو يؤدي إلى نتائج تنطبق على الحالتين. وهذا ما نتلمسه في أسلوب الروي بما للحادث الاجتماعي من خصائص معلومة يفتقدها الحادث الطبيعي مثل تراكم الصراعات ودور الأفراد فيها أو طبيعة المكان الذي يحتضن الحادثة الاجتماعية ولا يصنعها، على العكس من حادثة الطبيعة

تسييس الحادثة

إن معايشة السياسي للحوادث ومشاركته الفعلية فيها وإبداءه وجهة نظر بمنطق صقلته التجربة، أمر لا ينبغي تجاوزه، خصوصا وان فرص الذين عاصروا الحوادث الماضية في البقاء أحياء تتناقص بمرور الأعوام.وجلهم يعتقد أن الأمانة والحياد لابد منهما في تقييم وقائع وأحداث عاصروها.الحادثة عندهم لم تكن ماض فقط، بل حاضرا ومستقبلا أيضا. السياسيون لا يكتفون بالنظر إلى الماضي فقط، بل ويسحبون الحادثة التي وقعت في الماضي إلى الحاضر ليستشرفون بها المستقبل، يدعمهم في ذلك أفق رؤيتهم الواسع وتجربتهم الغنية في الأخذ من الماضي ما يخدم الحاضر.لا ينسون، وهم في حمى

استعادتهم للماضي، فكرة إصلاح ما حصل وإعطاء البدائل وانتقاد الذات أحيانا، إضافة إلى إفساح المجال لكثير من المعلومات الصغيرة ، دينية وثقافية وجغرافية، التي تصادفنا بين السطور في دلالة أخرى على تماهي السياسي مع حركة الشارع الحية.

من نافل القول إن الحياة اليومية المتحركة تهفو بطبيعتها إلى الحوادث المعبرة عن حقيقة الصراع، لتكون الوسيط بين السياسي وبين رؤيته. أي إن السياسي يبحث في الحوادث المرتبطة بأفكاره وتلك التي تقع في مفاصل التطورات الهامة، ولا نبالغ إذا قلنا أنه الأكثر استهلاكا لها.

السياسة لا تحاكي أية موضوع مثلما تفعل مع التاريخ المتضمن حركة المجتمع، على الرغم من اختلاف آليات الخطاب السياسي عن منهجية البحث التاريخي.فإتباع خطوات المؤرخ من قبل السياسي أحيانا لا ينتهي إلى نفس النتائج، وهذا ما سنصادفه كثيرا في التعامل مع الحوادث وانتهاك حدودها في مذكرات السياسيين، معللين ذلك بمشروعية الأفكار المستمدة بالنهاية من التاريخ كعلاقات وأسباب، وليست من الحادثة فقط. ما يشي بأنهما معا، الحادثة والتاريخ، وسيلة لبلوغ أهداف السياسي ليس إلا.

على الرغم من الفهم الشائع عن أسلوب السياسيين المنعش لأفكار سياسية يومية غير عميقة الجذور ومواقف منحازة تفترض قارئا منحازا، إلا إننا نجد السياسي، على العكس من غيره، يمتلك شخصية حقيقية بالواقع، نشيطة وغير منفصلة عن المجموع كوسط وحيد قادر على استيعاب طموحاته ومشاريعه. وبما إن الحادثة مادة الأفكار الأساسية كما مر بنا، نجد من السياسيين من حولها إلى موقف أو وسيلة لبلوغ اليومي والعابر ومنهم من استطاع تطويرها إلى واقعة وتاريخ عبر رؤية شاملة للأحداث ومستنده إلى مشاركة فعلية ويومية لم تضعف من وقوفه عند التطور الكلي لحركة المجتمع التاريخية كما ذهب إلى ذلك الجبرتي في مصر ومحمد مهدي البصير بالعراق في كتابه القيم "تأريخ

الثورة العراقية"٥ الذي أنجزه في النصف الأول من القرن الماضي عن ثورة العشرين وأعطى، على الرغم من قلة المصادر، بانوراما مدهشة لتفاصيل الأحداث وترابطها من دون أن يخفي تأثره بمناهج البحث الحديثة وبأفكارها العصرية آنذاك من بينها الوطنية، ليدخلها بعد ذلك في عالم رؤيته المتفتح على التراث العربي الإسلامي وخصوصية العراق فيه.إلا أن تتريخ الواقعة أمرا لا يتعلق فقط بعلو كعب الأسماء المشاركة وقدرات التحليل، بل يعتمد في الأساس على طبيعة الحادثة ودور صانعيها ومستوى تأثيرها على صاحباتها وقدرتها على أن تكون مركزا تتجمع حولها الحادثات، الصغيرة والفرعية. حادثة محملة بأسبابها ونتائجها وملامحها لتكون فيه بالنهاية (واقعة) قادرة على أن تحجز مكانا لها في التاريخ.

إن أفكارا وصفات مثل الحياد والموضوعية والأمانة لم تكن منطفئة في أذهان السياسيين القادرين على تحويل الصراعات والتناقضات إلى غايات سياسية، وغير مستبعدة في نشاطهم اليومي.فهم يدركون أن محاولة إقناع الآخرين بوقائع جسيمة وبعيدة الوقوع وحقائق لا يمكن تلمسها ومعرفة تفاصيلها أو إقامة الدليل على وجودها على أنها حقائق واستنتاجات منطقية ومقنعة، ما هي إلا محاولات لا يكتب لها النجاح على الدوام في غياب الموضوعية والحياد، كمفردتين لهما فعل السحر في تحليل الواقع.إن وجود هذه الصفات مهم جدا في فعل الاستعادة والكتابة السيرذاتية، لكن ذلك لا يؤدي بالضرورة إلى تحليلات صحيحة ونتائج صائبة باعتبار أن بنية الحادثة على الأرض هي غيرها في الرؤية السياسية والنتائج التي تتفق مع الموقف السياسي وتداعياته.إن لجوء بعض المؤلفين إلى الصدق الأخلاقي والفني والسياسي بديلا عن الحياد والأمانة في رواية الحوادث الواقعية، أو غياب هذه الصفات كلها أو بعضها، لا يلغي حقيقة الواقعة أو ينتقص من قيمتها بقدر ما يؤجل من ظهورها فقط، معطيا في نفس الوقت مساحة للذاكرتين الاجتماعية والشفاهية لإعادة

إنتاجها.

إن غياب هاتين الصفتين (الحياد والموضوعية) أو ضعفهما قد يأتي بسبب ازدواجية الموقف أو انحيازه كليا ،لينتهي الأمر بالسياسي إلى استنتاجات قد لا تتفق وخصائص المجتمع عموما لكنها تعكس مضمون الوعي الجماعي لدى فئة أو عدد من الشرائح الاجتماعية.وهذا ما نراه جليا في حالات الخلط والتشابك بين حركة المجتمع العامة المعلن عنها بالتراكم والأزمات وبين حركة الأحداث السرية في قاع المجتمع ودهاليزه وأحزابه والتي لا يدركها غير أولئك الذين خبروا التجربة.وهو ما أدى إلى تشكيك المؤرخين والمعنيين بالكتابة السيرذاتية للسياسيين ومنبهين إلى ضرورة المقارنة والتوثيق والغربلة لمعرفة ما يختبئ خلفها من أفكار ومخططات "أني أطالب كما كنت أطالب القارئ العربي وغير العربي من قبل بأن من يقرأ تلك المذكرات السياسية علي أن لا يصدق ما يقرأ منها.وعليه أن يحاول مقارنة ما يقرأ بما كتبه المؤرخون المحايدون على الأقل،فضلا عن عدم التصديق بكل ما ينشره أصحاب تلك المذكرات إلا بعد التأمل والمقارنة والتوثيق وغربلة المواقف وتفكيك العناوين واختراق النصوص لمعرفة ما يختبئ ورائها من أفكار ونيات ومخططات سرية ،ذلك أن تاريخنا العربي المعاصر الذي نعرفه هو غير تواريخنا السرية الخفية التي صنعت أغلب الأحداث والوقائع الخطيرة من وراء الستار أو في الكواليس المجهولة"٦.

إن الأسلوب الهادف والمخلص في عرض الواقعة وتوضيح الجهود الفعلية والهوية الطبقية لصانعيها ليس بالضرورة محقا وأمينا ومقنعا للجميع من جهة،وأخرى فإن اختلاف حقيقة وقوع الأمر عند السياسي عنها عند صانعيها سيجعلها غير حادثة ويوفر شروطا مثالية لإعادة إنتاجها.فقد يكون ما يعرضه السياسي أحيانا غير الذي في وجدان العامة بسبب اختلاط مواقف السياسي المسبقة وأفكاره الجاهزة بحوادث حقيقية وقعت تدفعه إلى ربط الحادثة،

ذهنيا، بغيرها من الحوادث أو تشبيهها بأخرى سبقتها اختصارا للوقت والجهد في التحليل والإقناع، ما يجعل منها موضع شك واختلاف عند الآخرين.

الحيادية قد تغيب بسبب اصطدام رغبة كشف الحقائق بأسلاك المؤسسة السياسية وسمعة رفاق الدرب، ما يدفع بالسياسي في سرده إلى الابتعاد، أحيانا، عن صيغة الأنا وعن دوره المباشر في صنع الأحداث مرحلا قدر الإمكان تأريخه الشخصي إلى تاريخ الجماعة التي ينتسب إليها، واللجوء إلى التعميمات السياسية وتشغيل المخيلة المشحونة بالأمنيات والشعارات لغرض إعادة توزيع وتنشيط أدوار واتجاهات الصراع داخل الحادثة للتأثير بحماسة المترددين. وإن استدعت ضرورات السرد حضوره الشخصي في توضيح فكرة أو تصحيح معلومة، فإن السياسي لا يحضر كراو عن المجموعة، بل يحضر كمشارك في صنع الحدث، لإدراكه بأن الروي يتبع الفعل.

صحيح إن الحادثة مظهر من مظاهر الحراك الاجتماعي وتمتلئ بتناقضاته وخصائصه، إلا أن تقديم الحادثة من وجهة نظر الذات الملتزمة بشروط المؤسسة السياسية وتحميلها بالمصطلحات الأيديولوجية والتحليلات الحزبية والشعارات النارية التي تفرض نفسها بسهولة بسبب الحالة النفسية وطبيعة الشارع السياسي، كثيرا ما يضعف من حجتها في إقناع الآخرين بسبب هيمنة الأغراض السياسية على حقيقة ما يجري، خصوصا إذا كان التقديم (تأويلا) تتطلبه الأغراض وليست الحادثة أو تأويلا لا يشمل عناصر الحادثة بل يتوقف فقط عند تلك المتعلقة بنتائج الصراع.

إن عناصر الحادثة /الزمان، المكان،الأفراد/ وجودات لا تخدم على الدوام استعجال الغايات السياسية.فعند السياسي يكون التحليل هو الروي، وفيه يتم استبدال بنية الحادثة السردية وعناصرها الداخلية بأدوات التحليل (السبب والنتيجة). نشهد فيه ظروف أسباب وقوع الأمر وارتباطه وتأثيراته في غياب الأسماء والأمكنة التي وقع فيها، وأحيانا تحليلات مجردة ومترابطة دونما

حوادث وكأنه يبحث في أفكاره وليست في الحادثة.وبكلام آخر فإن السياسي يبحث في حادثته هو وليست كما وقعت.وبالتالي فإن توضيح العلاقات السببية التي تتشكل في نسيج العلاقات الاجتماعية وإبراز الظروف التي سبقت أو زامنت أو أعقبت الحادثة ، عنده أهم من الحادثة نفسها.فهي ليست أكثر من شكل ظاهري للحراك الداخلي.وهذا دليل آخر على أن السياسي من أسوأ رواة الحادثة ومستهلكيها ،وسيضمها آجلا أم عاجلا إلى قائمة ضحاياه.

إن الأفكار الجاهزة والمواقف المسبقة تتعامل مع وقوع الأمر كسبب ونتيجة.وهذه نقطة البداية في عملية تحطيم بنيته الحقيقية ، وينتهي فيه الأمر أن يتحول الحادث نفسه إلى موقف سياسي أو فكرة منتجة للأسباب. وانسجاما مع ذلك فأنه لا توجد في عرف السياسي حادثة غريبة أو غامضة أو مقطوعة في سيرورة الحياة لأنها ببساطة ستفقد أسباب بقائها واستمرارها. ومن هنا يتوجب إفساح المجال للحوادث الهاربة من أماكنها الحقيقية في البيوت والشوارع والمساجد والمزارع لتلوذ بالقوانين الاجتماعية للصراع السياسي فقط.

فالسياسي وهو يشتغل على حالتين مختلفتين بنيويا ، الحادثة والموقف السياسي، سيهدر لا محالة حقيقة وجود الأول لصالح أغراض الثاني بأدوات الربط والإلغاء والتأويل والاستحواذ ، غير مفرقا بين الأساسي وبين الثانوي.السياسي يجد متعته في الأحداث التي تتفق وأفكاره السياسية أكثر من تلك التي تتطلب البحث والتوثيق والحقيقة ،قد يدفعه ذلك إلى عبور حوادث فرعية وحتى أساسية لا تأتي بفائدة أو تدعم موقفا.وهذا يدلنا على العلاقة النفعية بين الحادثة وبين السياسة والتي لا يمكن إلغائها وإن أمكن أحيانا تحديد نسبة الهدر الذي يصيب الحادثة عندما نقارن ونمحص لمعرفة حجم التأويل والتهميش والثلم والإلغاء التي تعرضت لهم عناصر الحادثة.

الصدق هنا ليس في حقيقة ما يجري فقط بل وفي المقاصد الأساسية والنتائج

السياسية كذلك. فمن اجل الأهداف السياسية (التي تهم الجميع) يمكن إعادة تقديم الحادثة سياسيا ودحرجتها مرة أخرى صوب العامة وإشراكهم فيها والإيحاء لهم بأنهم صناعها الحقيقيون وإن الأزمة لم تنته بعد.فالأهداف السامية والبعيدة الغايات غالبا ما تبرر عرض تحليلات ونتائج مختلفة بشكل أو بأخر عن حقيقة تفاصيل الحادثة ،أو دمج الحادثة في أحسن الأحوال بالأهداف عبر لغة توحد عناصرها وتختزلها إلى موقف أو فكرة ،وهو ما يجعلها مبهمة وغريبة ومختلفة عند الواقفين في الضفة الأخرى من النهر.ونستطيع القول باطمئنان أنه ليس من السهولة بمكان تنقية العقل السياسي من شوائب الانحياز ولي أعناق الحوادث.فهو لا يستطيع التعامل مع الحادثة كما وقعت ،ويراها خاملة ومملة.ولا نستطيع أن ننسب له ذلك الشيء المفقود لكننا نستطيع أن ننسب له استثماره لكل ما يدعم أفكاره ويضمن توصيلها حتى لو أدى ذلك إلى إلغاء الأداة ،الحادثة .

إن فاعلية الفكر السياسي في تغيير الواقع ستجرف في طريقها كثير من الحقائق اليومية والثقافية من بينها تفاصيل الحوادث، عبر إغراقها بالمصطلحات والتحليلات والتأويلات.وهذه الفاعلية لا تغير كثيرا في حقيقة وقوع الأمر بقدر ما تجدد وتغير في الأدوات الفكرية والمصالح السياسية لمن يتناولها. ونحن هنا لسنا ضد تحويل الحوادث إلى أفكار ومفاهيم تساعد في فهم الواقع وتغييره لكننا نريد معرفة الأداة والمحافظة عليها.الحادثة باعتبارها خامة نشتغل عليها فكريا باتجاهات مختلفة ،فإن أسلوب التعامل معها ينعكس على النتائج التي سيتم التوصل إليها ،وهذا هو مكمن انتهاك الحادثة.الحادثة ليست فكرة.الحادثة لها عناصرها الملموسة على الأرض.والفكرة كما هو معروف تمتلك آلية البرهنة والقدرة على الحفر عميقا في التجريد والوصول إلى النتائج الفكرية والنظرية والسياسية من دون الاعتماد على حيثيات الحادثة الواقعية ،لكن الفكر السياسي لا يستطيع ذلك دونما حراك وصراع وحوادث

ملموسة.

إن الحادثة مثل أية حكاية اعتاد الناس سماعها وروايتها، إلا أنها أكثر واقعية من الحكاية.تتطلب وجودا ملموسا يضمن وحدة عناصرها ووصولها إلى تخوم التوثيق.وإن التناقض الذي يسم الحادثة أحيانا ليس سببه بالضرورة خللا في بنيتها أو تعارضا في أسلوب الروي بين المتخاصمين، باعتبار أن تنوع أساليب الروي يغني أكثر مما يلغي بعضه الآخر، ولكن الأفكار السياسية المعبرة عن اختلافات أيديولوجية وتجارب متنوعة هي التي تقف خلف ذلك الخلل.إن التعامل مع الحادثة بأسلوب انتقائي يتفق وأغراض السياسي هو قبل أي شيء نوع من الدفاع عن النفس اتجاه الآخر في واقع محتدم.إنه يروي أحداثه موزونة بقسطاس الحذر السياسي المنشغل بالأهداف البعيدة، ولا يستعجل مباغتة القارئ أو شحذ خياله ومشاركته في مضامين الحكاية بقدر ما يريد الوصول إلى نتائج يلتزم فيها الآخرون تفاديا للأخطار المقبلة، حتى لو أدى ذلك إلى إثقال الحادثة بكثرة التوضيحات الإنشائية والتعميم والربط العشوائي بغيرها أو إقامة علاقات خارجية بين الأحداث للوصول إلى صلات داخلية مفتعلة تدعمها الأفكار الجاهزة والخبرات الطويلة، خصوصا وان المحاولات المستمرة في تحليل وتبرير الصراعات والتي قد تصيب أو تخطأ، غالبا، ما تؤدي إلى تقوية قدرات التأويل والتنبؤ والربط عند السياسي.

إن القدرة على خلق العلاقات السببية بين الحوادث المتفرقة والمتباعدة هي موهبة السياسي بامتياز، يساعده في ذلك التحليل والتأويل ولي عنق الحوادث.فإضراب عمال في الجنوب يمكن تعميمه عند السياسي على بلد مترامي الأطراف على الرغم من صعوبة تماثل الواقع اقتصاديا وسياسيا ودينيا.وهذه الرؤية التي تستند إلى عموم العلاقات السببية مهما بدت لنا عبثية فهي تمتلك إرثا من المفاهيم الراسخة في عقل السياسي ومستندة إلى التاريخ الذي تحركه الصراعات.وهذه الصراعات في ظنه هي التي تزود الحادثة بالنور

الكافي وليست عناصر الحادثة الداخلية في الزمان والمكان والأفراد؛ أي من دون الصراع لا يمكن أن تفهم الحادثة أو تؤثر في غيرها من الحوادث ولا تملك فرصا كثيرة للبقاء في ذاكرة الآخرين.وبالتالي فإن كل تناولا لها بعيدا عن ذلك يعد جهلا بالواقع السياسي والاجتماعي وتشويها للحقائق التي درج العامة على ربطها بالسياسة.ولذلك نجدهم في مذكراتهم وخطاباتهم لا يطيلون الوقوف عند الحادثة كحقيقة أولية واقعة لها خصوصيتها بقدر وقوفهم عند النتائج التي انتهى إليها صراع القوى.السياسي حين يسعى إلى إذابة الفوارق وتقليل المسافات بين الموقف السياسي وحقيقة وقوع الحادثة، نجده لا يصرح علنا بنيته في تهميش الحادثة أو إلغائها لصالح أهدافه بل يعود إلى ترميم الحادثة ترميما سياسيا بأدوات ومصطلحات وشعارات تجعل منها امتدادا لمواقفه وتحليلاته.كل ذلك مصحوبا بمطاردة العناصر المؤيدة لتلك الأهداف بين تفصيلات الحادثة وردها إلى دوامة الصراعات، كأسلوب لجر القارئ إلى التعاطف والانحياز، وتوريطه في أحداث وحقائق غير دقيقة جعلت من علاقة الواقعة بالعملية السياسية كعلاقة الحاشية بالمتن.

إن التحاور والتداخل والتفاعل الذي ينشده السياسي بين الحوادث وبين المواقف والأفكار يهدف إلى جعل الحوادث مقبولة وواقعية ومعبرة عن طبيعة الصراع. فهو يعطيها ويأخذ منها بأدوات التحليل السياسي، وسرعان ما يهمشها لصالح المجموع (الحزب) في حركة المجتمع.وهذا الإرث النظري للرؤية السياسية للصراع والذي يكاد يخلو أحيانا من الموقف الحيادي اتجاه سير الحوادث نتيجة فقد الحرية أو التطرف الحزبي، وضع السياسي أمام مرجعيتان أساسيتان لما يجري، الأولى مرتبطة بحيثيات الحادثة وخصوصياتها في الزمان والمكان والأفراد، والثانية مرتبطة بالمواقف السياسية المسبقة للمؤسسة والرفاق والصالح العام.ولذلك فإن فك الارتباط بين الفرد وبين مواقفه السياسية المسبقة والجاهزة التي يؤمن بها، ليست أقل تعقيدا من فك تلك المواقف عن تلقائية

الحدث ووحدته وحقيقة تفاصيله وحسب الأهمية تأتي مصالح المؤسسة السياسية المنحازة ايدولوجيا أولا ومن ثم حقيقة الحادثة وقيمتها التاريخية، معيدة إفساح المجال أمام إعادة إنتاجها.ففي مقدمة مذكراته يقول السياسي هاني الفكيكي"على أنني لم ألتزم تماما تفاصيل هذه الرواية أو تلك، لهذا الحدث أو ذاك، بل حرصت على تقديم ما اعتقدت انه الأقرب للواقع والصواب"٧ وهنالك رأي مشابه للدكتور رفعت السعيد في ذكرياته.وهذا الاعتقاد الذي يؤدي بالسياسي إلى الانتقاء والانحياز لهذا الحدث أو ذاك، ويعينه في التخلص من التذبذب ومن الأسئلة التي علقت بروحه، هو ليس إبداعا من جانبه لجديد بقدر ما هو عرف سياسي اعتادت عليه القوى المتصارعة عبر التاريخ في الوصول إلى أهدافها.فطبيعة السياسي التي تميل إلى التحليل والاستنتاج ولي عنق الحوادث وانتقائها وتأويلها غالبا ما تؤدي إلى تصادم الأفكار والمصالح، بعد السماح بتداخل الأزمنة والأمكنة وكل ما من شأنه المساعدة في دعم وتوضيح تلك الرؤية.وكما قلنا فإن الحادثة بعد وقوعها لا تحتمل أزمنة مغايرة وأمكنة مختلفة وأبطال مجهولين، لأن الافتعال والاحتمالية في ربط الحادثة بغيرها بواسطة القفز عبر الزمكان لتوليد فكرة معينة أو إثبات موقفا سياسيا غالبا ما تكون قفزة في الفراغ بسبب الشكوك التي تخلقها الاحتمالية بحضور الحوادث وبقدراتها في التأثير. على الرغم من انتهاك السياسي لزمن الحادثة وجعله مفتوحا ومرتبطا بأزمنة أخرى لحوادث مختلفات قد تكون أكثر أو أقل كثافة، نجده قياسا بالآخرين لم يحاول أن يلغي الزمان أو يقلب سياقه خوفا من عدم القدرة على الإقناع أو في ضعف التوثيق، ولجأ بدلا عن ذلك إلى تنويعات من خضم التجربة.فلكي يصل إلى النتائج المستقبلية في تحليلاته للتطورات عليه أولا أن يقف عند الأسباب التي أفرزت الأحداث في الماضي ويستمر صعودا وقفزا أحيانا على مراحل لفرض إيصال الفكرة.أما الحاضر فهو الزمن الأكثر واقعية وقربا وقدرة على دعم

الخلاصات الفكرية ولا يجري ترحيله لكلا الزمنين من دون أهداف. وبما إن الحادثة هنا هي السبب والنتيجة فإن القارئ أو السامع يشعر أحيانا وبتأثير من أسلوبي التحليل والترابط بأن نصفها في الماضي والآخر في المستقبل.لكننا نستطيع تلمس الحاضر في طبيعة الروي وهي تحتوي مساحات زمكانية متنوعة لا تخفي زمن الكتابة أو تلغيه.

إن ممارسة السياسي للزمن تبقى عملية لا نظرية نتلمس ذلك في تراكم الأحداث وتسلسلها وترابطها المنطقي وفي الغياب الواضح للوحدات الزمنية "الساعة واليوم والشهر" واللجوء بدل ذلك إلى التعميم(في صيف عام كذا.. في نهاية القرن الماضي..الخ) بسبب قدم الحوادث أو نسيانها أو عدم مشاركته الفعلية فيها.إن التعمق بالماضي على أرضية الحاضر دون تحديد الزمان يوفر للسياسي مساحات فكرية أكثر وضوحا (تأويلا) بالمستقبل الذي أعيى جلجامش من قبله،ويساعده في صياغة التوقعات والمخططات؛أي انه يذهب للماضي ليست للإقامة فيه بل للتأسيس لأفكار وتوقعات سريعا ما تتحول بتراكم الخبرات إلى قناعات ونبوءات هي في حقيقة الأمر تحويل الأفكار الأيديولوجية التي يؤمن فيها إلى حوادث مستقبلية ستقع على الأرض أو ستساعد في وقوعها على مستوى الأفكار المجردة.تاركا زمان ومكان الحادثة المستقبلية للقوة المحركة للمجتمع وتراكمات الصراع.

إذا كان التزمين بشكل ما ضمانة للتحليل الإقناعي،فإنه مع وجود المكان التخطيطي الذي يحتوي الحادثة الحاملة لثقافة المجتمع وطبيعة صراعاته،يشكلان دعما كبيرا لحقيقة الواقعة ويساعدان في إضاءة الأفكار وتفعيل الذاكرة في عملية ربطها للحوادث بحقيقة الصراع.إلا أن علاقة السياسي بالمكان تتأثر بتجربته الصعبة فنجده،عموما،سريع العبور على الأمكنة التي لا ترتبط مباشرة بظروف حياته واختصارها بفكرة تعكس بعدا اجتماعيا معينا،وهذا ناتج عن قسوة التجربة في السجون والمنافي

والهروب،وضعف سعة المخيلة عند السياسي وقلة معاينته لوقائع الأمور،معطوفا على طبيعة الثقافة التي يتمتع فيها .

دون شك السياسي مشغول في جدل الأسباب الماضية والحالية لوقوع الأمر بهدف الوصول إلى نتائج مقنعة عن المستقبل، ومستندة إلى الخبرة السياسية والمعايشة اليومية المؤدية إلى ربط الحوادث ومعرفة وجهتها وبالتالي استثمار كل ما يؤمن توصيل الأفكار. ولكن هذا الانشغال قصر،بسبب قسوة التجربة، في الوقوف عند الحادثة كحادثة لذاتها غنية بالتفاصيل وتخدم كل الفرقاء ولا تستقيم كتابة التاريخ من دونها.تقصير تجلى في إدماج الحادثة بالموقف السياسي بلغة وحدت عناصرها ـ من بينها المكان ـ من خلال إهمالها أو اختزالها إلى أسباب ونتائج.

ففي كتابه القيم "صدي السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم "٨ يرى السياسي العراقي المعروف (زكي خيري)في الظروف والأسباب التي سبقت ثورة تموز في العراق عام ١٩٥٨ على أنها حوادث مترابطة بفعل الصراع الاجتماعي ألقت بضوئها على الثورة،وجعل من هذه الثورة النتيجة والنقطة التي تنطلق منها الأحداث؛أي انه وقف طويلا عند الظروف التي سبقت الثورة والتي تلتها ولكن يوم الثورة الذي يحتفل فيه العراقيون حتى اليوم تمدد على ورقة يتيمة فقط.وهذه الرؤية كما سنرى في تجربة المؤلف لم تكن متعالية على الواقعة أو تم استخدامها فقط للأغراض السياسية،لكنها جاءت لأسباب أخرى كذلك.أولها غياب المؤلف عن مسرح الأحداث يوم وقوعها وعدم مشاركته الفعلية والمباشرة فيها فقد كان يومها سجينا،صاحب ذلك توسع الرقعة الزمكانية في تناول التطورات.ولذلك فإن اللوحة المدهشة التي رسمها للصراعات ينقصها الاستقرار والإحساس بالمكان وأسماء المشاركين في صنع الحوادث.وثاني الأسباب هو يوم الثورة،لحظة وقوع الآمر،الفراغ بين الماضي والمستقبل،بين الأسباب والنتائج. اليوم الذي يريك أنضج السياسيين فكرا

وتجرية بسبب سرعة الحوادث واضطرابها في بطئ عجلة الزمن، ما دفع بالراوي إلى ملئ هذه الفجوة بالمصطلحات السياسية والشعارات والآمال الممكنة والمستحيلة واللجوء إلى التطورات العامة كمخرج سهل لتلافي نقص المعلومات وضبابية المواقف.وثالث الأسباب هو الانحياز الأيديولوجي الذي يدفع باتجاه امتلاك الحدث، ما يصنع ضيق الفكرة أمام جسامة الواقعة ويؤدي بالتالي إلى نتائج قد تكون غير مقنعة للجميع ولا تصب في مصلحة المؤسسة السياسية. وهذا ما يفسر وقوف زكي خيري عند الكثير من التوقعات التي لم تحصل بعد الثورة، بسبب عدم وضوح الرؤية في إدراك واقع شديد الارتباك حل فيه الموقف الأيديولوجي محل التاريخي.فبعد إن كانت تدفعه الحوادث إلى استنتاج الحلول نجده في حرارة الشارع السياسي هو يدفع بالحوادث للوصول إلى تلك الحلول، مستخدما مزيجا من التحليلات والنبوءات التي لم تحصل بعد الثورة.ولذلك فأننا حين نتحدث عن لحظة وقوع الأمر لا نعني فقط الوصف المجرد لمتى وأين ولماذا وقع الأمر، بل نعني كلية الواقعة في الزمان والمكان المعلومين، أبطالها وظروفها ومحيطها وما سبقها من أسباب وأحداث معززة بالأسماء والأرقام والوثائق.وهذه المشكلة صاحبت الكثير من المفكرين والسياسيين، فلقد كانت الحسرة واضحة في كلمات لويس عوض عن غياب الحقائق اليومية لثورة يوليو١٩١٩ في مصر " خسارة كبيرة أن ثورة يوليو لم يكن لها جبرتي يدون يومياتها أولا بأول "٩ .

تقديس الحادثة

لقد كان الدين على الدوام على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بحياة الشعوب.وولوج الإسلامي نفق اللعبة السياسية واستخدامه مصطلحاتها وأساليبها الملتوية من جهة، وأخرى إدراكه أن وقوع الأمر في الزمان والمكان المعلومين لا يمكن أن يقال فيه أي شيء ومن أيا كان، نجده لا يتردد في ترحيل

الحادثة للماضي خدمة لأغراضه.فالماضي كنز يتكرر تلميعه والتلاعب فيه على مر العصور بقصد أو بدونه .وهذا الترحيل (الريط) إلى الماضي يتم حتى لو كانت أسباب الحادثة الجديدة معروفة لديه. فالإسلامي لا يذهب إلى الماضي البعيد بسبب انغلاق الحاضر أو صعوبة فهمه، بل على العكس هو مثل زملائه الآخرين مدرك لصراعات الشارع ولغة التوصيل، إلا أن منظومة أفكاره مؤسس لها هناك.لقد سبق للسلف أن رأوا في العودة للأصل وللحقائق الأبدية البعيدة عن الدنيوي فضيلة الفضائل. والإسلامي المعاصر يميل إلى الاقتداء بذلك، لأن الحقائق الإيمانية وفكر الأوائل واعتماد المنهج الإسلامي يمهدون إلى تجاوز حدود الواقع المادي للحادثة إلى الماضي ومن ثم إلى الغيب.

الحادثة هنا ما أن تقع حتى تكون صدى لأخرى سبقتها ،وكأنها هي الأخرى لها أنسابا في الماضي؛ أي أنها ليست جديدة بدروسها ودلالاتها بقدر ما هي جديدة بوقوعها في الزمان المحدد.وستكون مفهومة ومقبولة أكثر كلما تداخلت وتواصلت مع التراكم المؤسس له على الحادثة الأصل (المقدسة) المسيجة بتأريخ من الشواهد التي تدعو إلى الأيمان والعزة.وفي حياتنا اليومية نجد الحادثة المقدسة هي التي تعطي المعاني ولا تأخذها من اليومي والعابر ،وكلما يبست الحادثة ازدادت قدسيتها وابتعدت عن واقع الحياة اليومية لتحضر في عبرة أو مثل أو حكاية.رغم إن الحادثة المقدسة غالبا ما تكون محددة بالزمان والمكان المعلومين إلا أنها لا تخضع لذلك شأنها شأن الحوادث الإلهية المتحررة من زمنها ،وتتسع في فقدانها ملامحها الأساسية ،وهذا ما نتلمسه بغزوات النبي(ص) والفتوحات الإسلامية وحادثة التحكيم بين علي ابن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان و واقعة (الطف) المأساوية بكربلاء وغيرها .

إن الإسلامي بطبيعته يميل إلى الماضي والأنساب والتغني بالملاحم والقصص وكل ما له علاقة بالأوائل، ونجده مأخوذا ومذهولا أمام الحروب الدينية

القديمــة الــتي ارتبطــت بأسمــاء ونــصوص ونتــائج لا تقبــل الاخــتلاف والتشكيك، جعلت منها الروايات والتدوين وإعادة كتابة تاريخ الخلفاء والملوك أكثر درامية وإقناعا للعامة.هذه العودة التي تعكس نوع من الشوق إلى بداية دينية تم التعبير عنها بتقنيات ليست بعيدة عن ذلك، تحتوي النفسي والعاطفي والمقدس والواقعي.ومزج الصفات في كل يخدم خير الجميع، مفهوم ومبرر ولا يعني التشاؤم والتخلف بقدر ما يعني الانسجام بين أساليب التفكير وبين تأريخ الصراعات الاجتماعية على أساس الحقيقة الإيمانية التي تنتج علاقات وظيفية بين جيل الحادثة الحالي وبين زمن الأفكار والأحداث الخالدة .

عناصر الحادثة المقدسة كلها مقدسات/الزمان،المكان،الأسماء/ إذ لابد من علاقة داخلية منسجمة تعطي بنية السرد شكلا مقنعا.وهذه العناصر التي يجري التعامل معها على أنها خارجة عن تصوراتنا وتوقعاتنا البشرية،سلحت الحادثة المقدسة بمقاومة النسيان والتغيير.فالزمن عند المؤمن من المقدسات(لا تسبوا الدهر فإن ألله هو الدهر)وكل الحوادث مكتوبة علينا، وتأتي بسبب مصائب الدهر الذي سبق الحوادث وأعقبها. ووجود الأبدي في فكرة الدهر وفرت شكلا من أشكال الثبات يجعل المؤمن قادرا باستمرار على العودة بالحوادث إلى الأصل الذي لا يضاهيه شبيه.بيد إن المفاضلة بين زمنين بقيت تقنية جوهرية في فكر الإسلامي المعاصر،ولذلك فأن مقارنة الحوادث الجديدة المشبعة بهموم وعواطف وأحاسيس الأفراد الأحياء،بالحادثة القديمة أو الأصل التي فقدت شروطها وتحولت إلى موعظة،هو تنقية للأخيرة ودعما لأصالتها لكي تكون حيوية وصالحة لكل العصور.المفاضلة هنا نوع من ترحيل الماضي إلى الحاضر ليكون مفيدا للماضي أكثر مما هو للحاضر،بسبب التغريب الحاصل للأخير وإضعاف عاملي الزمان والمكان،وهو ما يفقد الحادثة الكثير من ملامحها.إن المفاضلة والمقارنة يتضمنان كذلك عنصر الإلغاء للراهن والانحياز للماضي بسبب غياب القدرة على هضم حقيقة أن الأسلاف قد بالغوا

أو وقفوا في المكان الضعيف وإن الحوادث أتت عليها أحوال.ليبقى الأيمان، إلى جانب أساليب السرد التي رافقته، أفضل ما يملكه الراوي من بينة على صحة المعلومة وقدسية الأسماء والأمكنة.

في مجريات الحياة اليومية نستطيع تلمس حقيقة أنه كلما زاد تمجيد الحادثة المقدسة زاد تسطيح الحادثة الراهنة، لأن العودة الدائمة إلى الماضي تخبئ نية التهميش للراهن على الرغم من ادعاء العكس.فبعد وقوع الأمر وارتباطه بحياة الناس وذاكراتهم، يبدأ الإسلامي بتحويله وربطه بالماضي عبر إغراقه بأساطير الأولين وأمثالهم وحكاياتهم وكتبهم وأحاديثهم التي صقلتها الألسن مئات الأعوام وأمست لا يمكن تكذيبها والاختلاف معها، مستعينا بمبدأ القياس باعتباره من مصادر التشريع الإسلامي الذي يقيس الفرع على الأصل ويجعل السابق أصلا للاحق.ولذلك فإن اختصار الأمور وربط الحادثة بالماضي البعيد حال وقوعها غالبا ما يتم بإرغامات مذهبية ومصالح دنيوية تؤدي إلى عبور سريع يدوس التفاصيل ويهمش كل ما لا ينسجم والحادثة الأولى.وكل ذلك مصحوب بوعيد وتحذير من عادة النسيان.

الحادثة لوحدها عند الإسلامي(مثل السياسي)لا تفسر كل شيء، خصوصا إذا كانت مبهمة أو معقدة.وإن ترابطها وتراكمها الظاهران لا يعكسان الحقيقة الكاملة (عكس السياسي) من دون أضاءتها بالحوادث المقدسة المرتبطة بالحقيقة الإيمانية.وهذا الاتفاق والاختلاف بين السياسي وبين الإسلامي والذي يبدو في ظاهره زمنيا وشكليا هو في حقيقة الأمر يعبر عن مفهومين مرتبطان بفكر ومنهج كل منهما، ويساعد كل منهما على سحب الحادثة في الاتجاه - الماضي أو المستقبل - الذي يضمن تحقيق الأغراض.أي إن الحادثة تقع وتكتمل على الأرض لكنها تستمر وتتغير على ألسنة الرواة.

البنية الفكرية في عالمنا العربي بأطيافها الدينية والسياسية والثقافية لم تفصل بعد الماضي عن الزمن، ولم تتعامل معه كماض محدد في دائرة جغرافية

واجتماعية معلومة لها صراعاتها وخصوصيتها التاريخية.بل إن الإسلامي مجال بحثنا غالبا ما يتعامل مع الماضي والزمن والتاريخ كحزمة واحدة تعني الدهر، وهذا الأخير من مخلوقات الله كالروح والكواكب والجبال.الثقافة الإسلامية المتجهة إلى الماضي توهمنا للوهلة الأولى بأنها معنية بالماضي كماض، تبحث فيه وتستلهم دروسه وخصوصياته. ولكننا لو تبصرنا جيدا نجد أن الوقوف والبحث قد تركزا أكثر من أي شيء عند القرن الأول للهجرة.إنه قرن أبدي لم يسبقه أو يعقبه ما هو أفضل من حوادثه ورجالاته وأماكنه. ولو دققنا أكثر لوجدنا حوادث القرن الأول للهجرة لا تنتمي لزمن محدد.هي حوادث أزلية تنتمي للحقيقة المقدسة.إلى الله.

إن تأثر الإسلامي بمناهج الآخرين، مصطلحهم وأساليبهم وطرق استخدامها في تفسير وتحليل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لم تخفف عنده من سلطة الماضي البعيد في إسناد وتزكية الواقع الجديد، وبقي يقرأ الحادثة الجديدة بعقله لكن روحه تحلق بين رايات القرن الأول للهجرة.فحين يتحدث عن التجديد يقصد العودة بالإسلام إلى صورته الأولى، إلى فهم الصحابة الأوائل الأكثر معرفة بالأصول قبل الفروع؛أي أن هذا البناء المتصل الذي يبدأ من الماضي لا يساعد في إعادة إنتاج الحادثة وتقليل غوامضها فقط بل وكذلك إعادة إنتاج مجتمعات القرن الأول للهجرة بأسمائها وأزيائها ومآثرها التي لا سبيل لأحد في معاداتها أو مخالفتها.

إن الحادثة الأولى(المقدسة) وهي تحيط نفسها بالغيبي والخارق ستتحول بمرور الزمن إلى جزء من الطقوس والشعائر المتجددة والمتكررة في المناسبات التقليدية.وهذا التكرار سيجر عناصر الحادثة الداخلية إلى حالة من الدوران لا تنتهي.ولكن هذا التجدد والتكرار والانسجام الظاهري الذي تصنعه الشعائر هو عامل قطع للحراك الاجتماعي الطبيعي المتسلسل والتلقائي وليست عامل ربط داخلي في استمرار الحوادث اليومية.فمثلا حادثة (الطف) بكربلاء التي

وقعت وانتهت في القرن الأول للهجرة تعتبر مقدسة عند الطائفة الشيعية، نموذج حي على ما سبق.وكل عام في شهر محرم يتم قطع استمرار طبيعة الحياة اليومية تغلق فيها الطرق والمحلات ومن ثم إحلال فصل من البكاء واللطم يقطع نياط القلوب، في ذكرى استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب.إن الاتصال والتواصل مع قضية وفكر أهل بيت النبوة هما الركيزتان اللتان تستتفر إليهما الطائفة الشيعية الاثناعشرية في خطابها على مر القرون متمثلة بحوادث وأسماء لم ينقطع حضورها وتأثيرها حتى يومنا هذا.ومع أن العادة والتكرار يصوغان عالم الطائفة، إلا أن ذلك لا يلغي حقيقة ثبات المعلومات التي تحملها تلك الحوادث (السقيفة, الجمل، التحكيم، الطف وغيرها). فحادثة مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في معركة الطف بكربلاء أرخها كثيرون نثرا وشعرا ورسما.وبعد قرون من تكرار المعاناة واستعادة المظالم تحول (الحسين) رمزا للشهادة في الذاكرة الاجتماعية وتحولت كربلاء إلى مكان مقدس يزوره ويتبارك فيه الملايين.وبعد أن شكلت الطائفة الشيعية بالعراق خطابها الديني والسياسي على مرتكزات الضحية، شيدت على مقربة من الأمكنة التي قتل أو دفن فيها أهل بيت الرسول(ص) أضرحتها وحسينياتها ورموزها لإعطاء الطقس العاطفي رداء الحقيقة الملموسة والمعبرة عن فكرة المظلومية.وإذا كان المكان الأول (المقدس) قد احتضن الحادثة بكربلاء فأننا نشهد اليوم انشطارا رمزيا للأمكنة التي تصنع حوادثها ومعاناتها تجلى في كثرة الحسينيات وقبور الأئمة، ولكن من دون أن تنفصل عن الأصل الحسيني.

إن تكرار الشعائر المؤلمة والعاطفية في استعادة حادثة الطف كل عام وإحاطتها بالخارق والغيبي يساهم في بقاء الطائفة وتناقل تراثها ويعيد إنتاج الحادثة بما يضمن استمرار الطائفة.فهم في استحضار الطقس يستحضرون معه في المقام الأول معنى حضاريا ملازما له مثل الإمامة والشهادة، ومن ثم الحادثة المحددة جغرافيا وتاريخيا.إن عادة التكرار التي تتعرض لها حادثة الطف غالبا

ما تأتي بالمبالغات التي تهيل تراب الزمن على حقيقة التفاصيل، إلا أن ذلك لا يقلق المعنيين بقدر ما يقلقهم تسرب الملل إلى أفراد الطائفة بفعل ذلك التكرار ودوران الأسماء والحوادث حول نفسها، فيعمدون إلى إعادة إنتاجها وتجديدها مستعينين بالثقافات الأخرى (الفارسية مثلا) لنشهد كل عقد من السنين حادثة للطف مختلفة التفاصيل عن التي سبقتها.وهذا التكرار للطقس والاستعانة بالآخر في إدامته لن يتوقفا قبل اكتمال النص للحادثة المقدسة، قبل انتهاء معاناة الطائفة في ظهور المهدي المنتظر ليملأ الأرض عدلا.

إن عصر النبوة عند الإسلاميين والقرون القليلة التي تلته لم يكن عصرا عاديا في أحداثه وتأثيراته ولم يكن زمنا مألوفا يتم حصره وحسابه بالأيام والأعوام، بل كان - وما يزال - تغيرا جذريا في معنى حياة الإنسانية تجلت بحوادث لم تكف حتى يومنا هذا عن إنتاج الدلالات والأفعال.فمثلا حادثة السقيفة أو حادثة التحكيم التي لاكها كثيرون على مر القرون والتي أدت إلى أول انقسام بهذا الحجم في بدايات الإسلام، لم تنطفئ جذوتها إلى يومنا هذا وغالبا ما يجدون شيئا منها فيما يستجد من حوادث، يساعدهم في ذلك التأويل ولي عنق الحوادث باتجاه الحادثة المقدسة التي تمتلك بنية عامة يمكن الاتكاء عليها في كل زمان ومكان، غير مبالين بالتشوهات التي تمس بنية الحادثة الجديدة، ومفترضين أن القيم الإنسانية ثابتة ولا تتغير سوى أساليب تناولها وأشكال ظهورها.

إن إعادة صياغة وترميم حادثة الحادثات (التحكيم) على مر السنين على الرغم من اندثار شروطها، سيغير الكثير من دلالاتها زمن وقوعها وتجعل العامة يشعرون بالرهبة والاحترام لكلا الطرفين المتحاربين، من كان منهما على حق أو على باطل على حد سواء، بسبب الأسماء الكبيرة الممثلة لتيارات سياسية مختلفة ما زالت إلى اليوم عند بعض الطوائف حاضرة وحية يتم تذكرها شعريا وتمثيلها مسرحيا كل عام لغرض التذكير وتجديد البيعة.ولذلك فإن ربط

الحادثة العادية هنا بأخرى قديمة ومؤثرة إخراج لها من عاديتها وسلبيتها.ليس فقط لأن الحادثة القديمة هي الأساس وتقود ما تلاها أو لأنها الشجرة الأصل والبقية فروع وأغصان،لكنها ببساطة ارتبطت بمقدسات الآخرين وتاريخهم إلى يوم الدين.

الحادثة المقدسة هي الفعل الأول الذي تتبعه ردود أفعال متنوعة السرد والأهداف،لذلك أستدعى مدها بالزمن الممكن تحديده وتعميم مكانها وتأثيث تفاصيلها بالسجع والأحاديث النبوية والأسماء ذات الرنين المألوف،وإبراز قدرتها على التفريق بين الحق وبين الباطل،فذلك يساعد في إدامة الاستحواذ على الحوادث المتفرقة وتوظيفها لصالح الأصل.والإسلامي في كل ذلك يبتغي حسن العاقبة والاقتراب إلى الله وأنبيائه وكتبه التي هي فوق التاريخ والحوادث.ففي النهاية لا يوجد شيء يعلو على ذلك الذي قدر الله وقوعه ولا راد لقدرته.

أسلفنا إن عصر النبوة والقرون القليلة التي تلته لم يكن عصرا عاديا حتى يتم عبوره بسرعة أو حصره وحسابه بالأيام بل كان تغيرا جذريا في الحياة، إلا أن طبيعة المجتمعات هي الاستمرار والتراكم إلى جانب الشد المكلف إلى الخلف والبقاء في حدود المقدس.فالأحداث المقدسة والمحددة زمانيا ومكانيا"حروب الرسول والصحابة والفتوحات الإسلامية" لا تخضع لتلك التحديدات شأنها شأن الأحداث الإلهية في الكتب المقدسة حيث يتم تحريرها من عناصرها الداخلية فيتراجع الحاضر إلى أزمنة منسية ويتوسع المكان ليشمل أرجاء المعمورة.فعلى الرغم من قدرة الزمن هنا على الاسترجاع والتكرار"فإن الزمان المقدس يمكن استرجاعه إلى غير ما نهاية،وهو يقبل التكرار بصورة غير محدودة "١٠ لكننا نجده زمن استرجاعي رتيب في اتجاه واحد لما مضى من أحداث، ولا يجري الحديث فيه عن المستقبل،فهو عندهم واضح ومعلوم، بدائي ونهائي،انه يوم الحشر.وهذه الرتابة لا تخفف من سرعة

انحدار الزمن من الحاضر إلى الماضي، ولا تخفف من اقتلاع ونسيان الكثير من خصائص الحادثة الثقافية والاجتماعية. وكلما زادت سرعة الانحدار أكثر للماضي تغيرت طوعا أو كرها تفصيلات الحادث ليصبح أكثر درامية وقبولا وقدرة على التحول إلى الأسطوري والمحكين ،لأن الماضي هنا هو الخلق والأنبياء والأوائل ومآثرهم الجليلة، والمستقبل هو الجنة التي وعد الله بها عباده، وبين هذين الزمنين المطلقين تأتي الحوادث السريعة "واقعية كانت أم غير واقعية" عادية وهشة متجهة إلى اللازمن .

إن الزمن المطلق الذي يشكل هالة من الضوء حول الحادثة، يستدعي مكانا مقدسا حاضنا للحقيقة الإيمانية التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة.والمكان وظيفيا هنا هو المركز من بين عناصر الحادثة الأخرى، يحيطها بوعاء تاريخي يمدها بأسباب البقاء والتفاعل، ويلخصها في أسم أو عبرة أو حكمة أو موعظة، ويعيد ترتيبها وترابطها ضمن الحقائق الأبدية التي تساعد على التوحيد والارتقاء "إن الخطاب القرآني حين يعلي من شأن أماكن معينة فذلك تركيزا لعقيدة التوحيد ومبدأ الاستخلاف.عبر المكان يتاح للإنسان ارتقاء لا يتوقف بل يتحول بالإيمان والعمل إلى معنى لا ينضب و سيرورة واعية"١١.

الأمكنة المقدسة التي لا يمسها الزمن والشك ليست حكرا على تلك التي جاء ذكرها في الكتب المقدسة، فالتاريخ الإسلامي ملئ بالفتوحات والهجرات والصراعات التي أدت إلى إنشاء المدن والطوائف والملل، أنتج بدوره أمكنة مقدسة أكثر من تلك التي وردت في الكتب المقدسة.أمكنة أنتجتها صراعات الحق والمال والسلطة والطوائف، وصقلتها العيون والأقدام والألسن والمعاناة، وجددتها التقاليد والقيم .

إن ترحيل الحادثة للماضي سيضعف المباشرة والإحساس بالواقعية وغالبا ما لا يساعد المكان في أن ينهض داخل حياة الأبطال، ليكون في النهاية خليطا من

متخيل وواقعي يعاد تشكيله وفق مستويات الحنين ويغلب عليه طابع الأمكنة الحاملة لقيم العبادة وأداء الشعائر التي تشير إلى الخير كالمساجد وقبور الأولياء أو قيم الظلم وإيذاء النفس كالسجن وأرض المعركة. وهذا التعامل، ما يقف عند الحدود الظاهرة منها والتي فيها القليل من حقائق الأمور.فالحادثة لم يصنعها المكان فقط، ولم تقع لكي تبرهن أن لها أصلا في الماضي أو تمتحن قدرة أحد في الوصول إلى مخرج مكتنز بدروس الماضي الأكثر رحمة وأصالة.الحادثة بنت أسبابها وإن حصل تكرار وقوعها فهذا لا يعني أن هنالك تماثل بالأسباب أو تكرار للشروط الاجتماعية والاقتصادية التي أنتجتها.فما الذي يربط بين حادثة التحكيم في القرن الأول للهجرة وبين أية حادثة وقعت في القرن الرابع عشر؟ وما هو الرابط بين حادثة الردة بعد وفاة النبي محمد(ص) وبين نكسة حزيران في النصف الثاني من القرن العشرين أثر هزيمة العرب عسكريا أمام إسرائيل، كما ذهب إلى ذلك الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه(سنوات الغليان)١٢ قافزا على كل المراحل التاريخية والتطورات الاجتماعية والاقتصادية.وحتى لو كان هنالك رابطا في القيم والرموز والدروس والعبر فهل هنالك تماثل في الأسباب وفي القوى المحركة لهما ؟وماذا تعني إعادة إنتاج حادثة هجرة الرسول (ص) في ريف مصر بعد قرون على وقوعها وإغفال ساذج للاختلافات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، أكثر من عملية بعث مكررة للزمن الأول عبر تفريغ الحادثة المقدسة من مكانيتها وتعميمها على الأمة.العودة هنا ليست حنينا دينيا للحادثة فقط بل يصاحبه تجديد للأفكار والشعائر التي تقف خلف الحادثة.وهي على العموم أفكارا يدعو ظاهرها إلى العبادة والدين وباطنها أفكار شمولية تمتلك القدرة علي توليد السياسات الصالحة في كل المواقف خارج الزمان والمكان، لتجعل من الماضي إطارا سياسيا لحوادث المستقبل. وكل ذلك يتم بأسلوب الوعظ والنصح يغلفهما السجع وفنون الكلام بهدف الوصول إلى نتائج سهلة

وسريعة، يساعدهما في ذلك هزائمنا المستمرة وتخلفنا الحضاري لنجد أنفسنا منقادين إلى سحر الماضي نفتش بين الركام عن عزاء يخفف سواد المحنة.

على الرغم من إن الإسلامي يواجه مشكلاته الخاصة في عملية التوصيل إلا أنه يعد اقلهم /السياسي، العالم، الخطيب/ انتهاكا للعناصر الداخلية في الزمان والمكان وأكثرهم استخداما للوحدات الزمانية والتخطيطات المكانية.

سردنة الحادثة

إن حقيقة وقوع الأمر وتنوع صناعه ورواته ليست كل المشكلة، فذلك سيتوقف بالنهاية على أساليب السرد وتقنيات التوصيل.وتأسيسا على ما مر بنا فإن الإرباك المقصود لحقيقة التفاصيل بعد وقوع الأمر يعد تحايلا على الواقع، وإن تحول الحادثة إلى نصوص ذات هاجس أدبي أو فني على حساب التفاصيل الحقيقية لوقوع الأمر غالبا ما يحولها إلى نصوص نثرية أو شعرية تدمج الواقع بالمخيلة المبدعة تبدو فيها العناصر الداخلية لحقيقة وقوع الأمر والتي تحدثنا عنها طويلا ، ليست هي حدودها النهائية.فعندما يتسلل الزمان إلى أزمنة راحلة أو قادمة، وعندما يتشظى المكان إلى أمكنة حقيقية ومحتملة، وعندما يتداخل وجه البطل في زحمة الأقنعة والخيالات فإننا بالنتيجة لا نحصل على الحادثة بل ظلها وصداها.فالسرد المعتمد على إزاحة العناصر من الواقع صوب الخيال يتطلب أجواء غرائبية وخيالا خصبا ولغة عالية التراكيب وقدرة على السرد وكل ما من شأنه إقناع القارئ بجمالية الحادثة كنص وليست بحقيقة وجودها.

القارئ يجد المؤرخ والباحث الاجتماعي والمحلل السياسي، ملتزمون بقواعد المهنة كل على طريقته في تقديم الحادثة في تسلسل زمني، أو غيره، وتحليل للأسباب والنتائج مصحوبا بأفكار حقيقية أو مساهمات فعلية.وكما أسلفنا فإن وقوع الأمر المحدد زمانيا ومكانيا قد يتم الإبحار به

للماضي والحاضر ليتم فيه استشراف المستقبل.غير أن للروائي الذي يتناول الأزمات والظواهر التاريخية والأبطال من منطلق ذاته وتجربته دورا غير ما ذكرنا كاشفا العلاقة بين التاريخي _ سياسي وبين الأدبي.صحيح إن كثير من الروايات ترتكز على حادثة وقعت أو تؤرخ لمرحلة معينة،لكنها قد تمتد إلى فترات سحيقة وأساطير وأمكنة غير واقعية تتداخل فيها الأزمنة والأسماء.وقد تبنى الرواية على حادثة لم تقع أصلا وجرت تفاصيلها في خيال المؤلف ومناماته.

الشكل الروائي عموما يتصف بكثرة المصادر وتعدد الأغراض.والحادثة دونما اشتراطات قد تكون أحد هذه المصادر أو جزء من الأغراض.المؤلف هنا ينتقي الحكاية أو الحادثة الملائمة لعالمه ليعيد صياغتها وبنائها بشكل مختلف، وتحويله إياها إلى بنيات سردية تسهم في توصيل فكرة العمل بعيدا عن حقيقة الأسباب والنتائج التي رافقت وقوع الأمر،ولا تشترط الترابط والتأثير والحدث المتنامي حتى النهاية كسبيل للبقاء.ففي كثير من الروايات نجد أنفسنا أمام دوائر صغيرة من القصص الداخلية المنفصلة التي لا يربطها غير أساليب السرد ومناخ الكتابة.

إن استخدام الحادثة هنا لا يستلزم المشاركة الفعلية للمؤلف أو معاصرته للأحداث ومشاهدته لها،وهل وثقها المؤرخون أم تناولها العامة وما هي الأسماء الحقيقية للأبطال والأمكنة. الروائي يتعامل مع الحادثة كمادة خام ويسقط عليها رؤيته ومستخدما على العكس من الآخرين،أنواع السرد والعادات والتقاليد والأساطير والأمكنة والأزمنة ويصهرها في مخيلته،ليعيد تقديمها كحقيقة معتمدة الإقناع الأدبي والفني أكثر من اعتمادها حقيقة وقوع الأمر وواقعية أبطاله.فرواية نجيب محفوظ(اللص والكلاب) خامتها حكاية محمود أمين سليمان سفاح مدينة الإسكندرية الذي خانته زوجته مع محاميه ولما خرج من السجن قرر الانتقام منهما قبل أن تعثر عليه الشرطة مستعينة بالكلاب.وقد حظي محمود أمين سليمان بحب الناس بالإسكندرية بسبب مقاومته للغدر

والخيانة من جهة،وأخرى مواجهته للشرطة التي كانت مؤسسة مكروهة عند عامة المصريين وعلى الرغم من بقاء سعيد مهران بطل (اللص والكلاب) في ذاكرة الناس إلا أن ذلك لا يمنع حقيقة أن أهالي الإسكندرية لهم روايتهم للحادثة وأن محفوظ استخدمها وتوسع في المعلومة التي قدمتها الحادثة. وهذا ليس حكرا على محفوظ فلقد سبقه إلى ذلك كثير من الروائيين الكلاسيكيين في العالم /تولستوي، ديستوفسكي، غوغول / وغيرهم من الذين أشادوا أعمالهم على قضايا المحاكم والحوادث المرعبة.

في تناوله للحوادث لا يلتزم الروائي بالتسلسل الزمني مثل المؤرخ والسياسي،فقد تتجمع الأحداث عنده دونما مقدمات مسهبة عن الأسباب والنتائج وتتراكم دون تواتر زمني مستقيم، أو يلجأ إلى إهمال الزمن في تغييب الراوي والتسلل إلى أزمنة أخر.إن عودة المؤلف إلى الماضي المؤلم في حياة أبطاله لأغراض فنية أو سياسية،لا تلزمه لا بالتسلسل الزمني ولا بحقيقة أبطاله وفي بحثه المضني عن خبايا الذات الإنسانية قد يلجأ إلى نسيان الأبطال الحقيقيين للحادثة ويقف عند شخصيات أقل أهمية وحتى هامشية وقد يتواطأ مع الضعيف ضد القوي أو العكس أو يلجأ إلى صنع بطلا من عندياته لضرورات السرد،لان رؤية المؤلف هنا لا تتجسد بحقيقة صناع الحادثة، على الرغم من أهميتها، بقدر تجسدها في الرواية وأسلوب كتابتها وفي قدرتها على تقديم رؤية لحركة المجتمع والتاريخ لا تحتم واقعية الحدث ومكانه وزمانه وأبطاله؛ أي أنه يمارس نوعا من إعادة إنتاج الحادثة معتمدا الإبداع ونشاط المخيلة وتنويع السرد.

إن علاقة الروائي بالمكان كعنصر أساسي في بناء العمل لا تختلف كثيرا عنها مع عناصر الحادثة الأخر.علاقة غير موجودة في الواقع اليومي الذي نعيشه وإنما في وجدانه ومخيلته،ولذلك نجد البذخ في وصف الأمكنة بعيدا عن التخطيط الداخلي الحقيقي للوصول إلى ذات البطل.وأحيانا على العكس نجده يصف الأبطال ومثالبهم ولهجاتهم وملابسهم وأدوات عيشهم لتشكيل مناخ

المكان.

الروائـي يـستطيع العـودة إلى المكـان رغـم اسـتحالة ذلـك علـى أرض الواقع.فالأمكنـة الـتي سلبت مـن أهلها بـالاحتلال والتهجير والاغتصاب كما حدث للفلسطينيين والأكراد والأرمن نجد أبناء تلك الأمكنة غالبا مـا يعيدون إنتاجهـا اعتمـادا علـى ذاكـرتهم ومخيلـتهم وحنيـنهم ومعلومـاتهم الجغرافيـة والسياحية والتاريخية كأفضل أدوات متاحة للتحايل على النسيان.

إن الأعمـال الروائيـة (الثوريـة) الـتي مجـدت أحـداثا مهمـة في تـاريخ الـشعوب التزمت أكثر من غيرها بواقعية الحدث ومكانـه وزمانه،وعكـست طموحـات وأفكار فئات وشرائح واسعة لكنها لم تذهب إلى النهاية في توثيق حقيقة وقوع الأمر وهذا طبيعي حتى لا تفقد الكتابة الأدبية متعتها وخصوصيتها "إن الوقائع الفعليـة لا تمتلـك الخاصـية الـتي نجـدها في القـصص،وإذا عاملناهـا وكأنهـا تمتلك تلك الخاصية،فلن نصدق معها"١٣. لكن الانحياز المبالغ فيه من الروائي صـوب الـسياسي والنـزول عنـد رغباتـه كـثيرا مـا سـاهم في إضـعاف الجانـب الفني،وسـاعد في خلق عـادة التلفت إلى الـوراء لمعرفـة رأي الآخـرين.وهـي عـادة أثرت في تحريك الصراعات والأحداث،وإبعاد اليأس والعبـث عـن حيـاة الأبطـال وتـزيين وجـوههم بالرضـا والمحبـة والتفـاني والاسـتـشهاد،وصولا إلى النهايـات الإيجابية الـتي تـضع المؤلـف في متاهـة إقنـاع الآخـرين.ومثـل هـذه الأعمـال أمـست نمطيـة ولا تـشهد تلـك الـتغيرات الـتي تـسم أسـلوب الروايـة مـؤخرا.فـالأغراض المـسبقة والمرتبطـة بالأيـديولوجيا أدت بـالمؤلف إلى الـتكلم بلـسان الأبطـال والأحداث برتابة تسجيلية غـاب عنهـا تـشابك الـسرد وتنوعـه ليتحـول العمـل إلى أبواب تنفتح بعضها على الآخر في عملية مقصودة لاستمرار الحدث حتـى نهايتـه المنتظرة،ليبدو العمل الروائي مألوفا ومملا ما أن يبدأ القارئ بتصفحه.

الحادثة ابنة من ؟

لقد بات معروفا إن طرق التدوين لم تضع حدا لأسلوب النقل الشفاهي للأحداث، بعد أن بقي راسبا ثقافيا نشطا في عتمة الواجهات الخلفية للفئات الواقعة تحت ضغوطات اجتماعية وسياسية واقتصادية، ومحاطة بقناعات متوارثة عن التاريخ الذي يكتبه الأقوياء فقط.فالطبيعة الإنسانية للضحية عندما تفتقد القدرة على التعبير والتغيير ستميل إلى إخفاء أسرارها وستنتج بمرور الوقت ذاكرة قادرة على ترتيب أولوياتها.وهذا الأسلوب القادر على تجديد نفسه باستمرار عبر الصراع ومقاومة النسيان وإعادة تأثيث الحادثة وتجديد ديكورها، هو الأكثر مساهمة في إعادة إنتاج الحادثة، ويزداد كثافة في المناطق الفقيرة والريفية والدينية.إن أسلوب (الضحية) المتمتع بتعاطفنا، غالبا، ما يساعد الراوي بالانتقال من الأيديولوجي إلى الانفعال اليومي عبر تطويع الحادثة بما ينسجم وردود الأفعال.مستخدما الشعر والأسطورة وجماليات التعبير وتقنياته التي تستدعي قدرة الجسد في الإيماء والرقص والغناء والكتابة والحفر والنقش والرسم وكل ما من شأنه التقريب والتحبيب، وهذا ما يفسر تحول بعض الحوادث إلى حكاية أو أغنية فلكلورية أو مثلا شعبيا أو قصيدة شعرية أو لوحة، تتوزع على أساليب ولهجات متنوعة ومتعددة بسبب الاختلافات الاجتماعية والعرقية والطائفية.فحادثة (ريا وسكينة) التي هزت الشارع المصري في بدايات القرن العشرين ووصلت إلى البلدان المجاورة، وحفرت بشاعتها عميقا في وجدان العامة واستمروا يلوكوها لقرن من الزمان في الشارع والسينما والمسرح والرواية لتصبح جزء من ثقافة المجتمع المصري على الرغم من اختلاف الكثير من رواتها حول مكانها وأبطالها.أو حادثة (أدهم الشرقاوي) التي تحولت إلى موال شهير ردده الكثيرون عن مجرم في حسابات الدولة وبطلا شهما في حسابات العامة التي حولته إلى أسطورة، صاحب ذلك غياب المعلومات التي تضيء حياة الشرقاوي ومكان

طفولته وعائلته في ظروف سياسية معقدة وغليان في الشارع المصري أدى بعد ذلك إلى ثورة ١٩١٩.

الحادثة باعتبارها الابنة الطبيعة للحياة لا تعاني خللا في بنيتها أو عقدة يصعب حلها وفهمها إلا في إطار حل عام يشملها جميعا، إنما المشكلة في أساليب توصيلها وقدرة الألسن على إعادة إنتاجها.فهي تقع لكي تروى وسيقف خلف ذلك ثقافة الراوي وطبيعة الحادثة ومرجعية الأغراض معطوفا على الظروف الموضوعية المحيطة بذلك،والتي قد تؤخر "أو تعجل" زمن روايتها.

الحادثة لها من يصنعها ومن يعيشها ومن يرويها ومن يقف على طل يتابعها.وهذا الغنى في نهاية الأمر يجعلها ملكا للجميع الشاعر والمفكر والجاهل وأمام المسجد،وتتم روايتها بأكثر من أسلوب وموقع ولغة وغرض "كنا كغيرنا نعتقد أن الواقعة لا تتحدث إلا متى ما رعاها المؤرخ وهو وحده الذي يقرر أيا من الوقائع يريد أن يفسح لها المجال وبأي نظام وأي محتوى "١٤.

الروايات هي أثواب الحادثة الواحدة،والتي قد تعمر إحداها في الذاكرة وقد تبلى أخرى،وقد يفسح الحراك الاجتماعي في المجال لهذه دون تلك.وإن غاب الرواة، لسبب أو آخر،فإنها ستبحث عنهم وستعبر عن نفسها بالوسائل المتاحة في مقاومة النسيان وستعيد إنتاج نفسها في معاناتهم وثقافتهم وذاكرتهم الشفاهية خالقة بذلك رواية "الضحية "الأكثر انتشارا من بين الروايات الأخريات.

إن الضحايا هم الذاكرة الشفاهية للمجتمعات التي ابتليت بالظلم وعدم القدرة على توصيل صوتها.وعندما يقع الأمر وينتهي فإنه يبدأ بالتشكل في مخيلة الضحية وهي تنسج علاقاتها بالماضي والحاضر والمستقبل عبر مفردات المثال والحلم والأمل.وستدفع بالحادثة من صندوق الذاكرة الفعالة إلى صندوق الخيال المؤثث بالمعاناة ومفردات الضحية،التي تجعل من الذاكرة الشفاهية أشبه بعربة حلمية من الحوادث المشوهة وأنصاف الحقائق التي تصل أضيق زقاق

كحكاية، أغنية، رقصة، مثل شعبي، طرفة مسورة بالتعاطف والتضامن.

إن الاستماع إلى رواية الحوادث من فم الضحايا فقط، غالبا، ما يوصلنا إلى الرتابة الناتجة عن التعاطف والمواقف المعروفة سلفا، وبالتالي الإحساس بفقر المشهد بسبب إهمالنا دور الأطراف الأخرى في روايةحقيقة ما وقع .. ومن بينهم الجلاد. ربما عبارة الجلاد هنا مبالغ فيها قليلا، لكننا بحاجة إلى لقب ممتلئ بالعنف وتغييب الآخر للحديث عن راو مختلف "الضحية".الرواة الجدد الذين نطلبهم لم تكتمل ملامحهم وأدواتهم بعد ولا نلمس وجودهم على الدوام وكأنهم أبطال روايات وحكايات خرافية.وهم بعيدون جدا عن مفردات البطولة ونظافة السيرة على الرغم من أن الأعمال والممارسات البشعة التي نفذوها بحق ضحاياهم كانت زمن الصراعات السياسية والحزبية تعد أعمالا وطنية ونضالية ومهنية لا يجوز التشكيك فيها.الرواة هنا لم يرووا حديثا أو شعرا بل هم أولئك الذين أصدروا الأوامر وشاركوا في أو شاهدوا تفاصيل ما حل بالآخرين في ضوء النهار وفي حلكة الليل.وبكلام آخر فإن أسماء القاتل والمقتول، التهمة وأسبابها، ظروف الموت وزمانه، مكان الاعتقال والموت والدفن والتغييب كلها تفاصيل تساعد في توثيق الحدث، وتتطلب شاهد عيان أو مطلع على حقيقة ما جرى، أو وثيقة مكتوبة أو مصورة لتقعيد الحادثة وتحديد طبيعتها.فقد يكون الراوية الجلاد في فيلم رعب يسوده الصمت وفوضى الأطراف المبعثرة، لا يعرف ضحاياه ولا يملك شيئا خاصا يربطه بأحدهم لكنه ساهم بالمجزرة بدافع الواجب الوطني والقومي والديني والمهني.إنه الراوي الأكثر عبثية بين الرواة، إلا أن روايته أكثر أهمية للتاريخ وللحادثة من العواطف والتحليلات السياسية والتأويلات والاستنتاجات التي تعقب الحدث أو تلك التي زامنته وهي بعيدة عنه.رواية الجلاد فيها اختصارا للجهد والوقت في دفع الحادثة من خانة الحكي إلى حبر التوثيق، مستعينة بالتفصيلات الصغيرة المعذبة للضمير وبالأسماء الراقدة في صمت النسيان وبالأمكنة التي عرفها

الراوي والتي تعد من العناصر الأساسية لاكتمال صورة الحدث ومده بالحياة والبقاء، معطوفا على الأسباب والتبريرات التي وقفت خلف ارتكاب الفعل.ولكن في حضور المأساة والصراعات علينا أن لا نذهب بعيدا في الأمنيات ومطالبة الجلاد بالاعتذار وذرف دموع الندم على الضحايا أو نعيهم بالقصائد والتماثيل أو رواية الحادثة بدقة وأمانة أو موهبة على السرد وفنون التوصيل، لأن المرجعيات الاجتماعية والسياسية والثقافية للراوي ستقف بالنهاية خلف أسلوب تعامله مع الحادثة.

إن معايشة الراوي للتفاصيل ستؤدي إلى إنصاف الحادثة وأبطالها فيما لو رويت بأمانة وحياد، في حين تناولها عن بعد سيحولها - الحادثة- إلى عموميات ومواقف وشعارات تنال كثيرا من حقيقة وقوعها.ولذلك فإن رواية الحادثة لا تكتمل فقط بشهادة الضحية على الرغم من أهميتها، بل تستدعي صناعها الآخرين.الراوية الجلاد ضحية من نوع مختلف كونه أكثر عذابا وعزلة من أقرانه ومطارد من تاريخه وذكرياته وضميره، إلا أنه قليل الحظ في عالمنا ولا يجد من ينصفه على الرغم من الخدمات التي سيقدمها للتاريخ والحادثة ولذوي الضحايا في كشفه الحقائق، معززة بالمكان والزمان المعلومين، وبالظروف الخارجية التي صاحبت كل ذلك.

إن الصراعات الداخلية للراوي والضغوطات الخارجية للمجتمع ستدفع بالأول (الجلاد)إلى انتقاء الحادثة أو الخوف من روايتها كاملة وبالتالي إسنادها بالتبريرات والتأويلات وأدوات الدفاع عن النفس، وستدفع بالثاني (الضحية) إلى عدم التصديق وبالتالي امتلاك الحق في إعادة صياغتها وفق طقوس الضحايا واستمرار دائرة الدم، ليبقى الخاسر الوحيد في عملية التجاذب هو الحادثة، التي هي نحن .

والملفت أن الجلاد حين يفقد سلطته ومكانته ويتحول بدوره إلى ضحية فإن روايته ستكون هي الأخرى مثيرة ومفضلة أحيانا على رواية الضحايا القدماء

اللذين أمسوا يمارسون ممارسات جلادهم.الناس سريعو النسيان عندما يتبادلون الأدوار أو عندما يريدون ذلك.وهذا التجاذب الذي يعكس حيوية الحادثة وحقيقة وقوعها المشروط اجتماعيا وتاريخيا سيدفعها بلا شك للبحث عن طريقها إلينا وعن رواتها في عموم المجتمع وستترك أثرها في تجليات الحياة الإنسانية حتى لو تم السكوت عنها قصدا أو جرى تقاسمها بين الضحية والجلاد أو احتكارها من أحدهما لأغراض معينة، إذ لا توجد حادثة قد أضاعها النسيان إلى الأبد وستبقى في الذاكرات إن لم تستطع العبور إلى التاريخ.فهي بين الجلاد والضحية، بين التوثيق والشفاهة ستحتفظ بعمرها سرا مفضوحا، وبوجودها حقيقة باقية، وبكمالها بنية سردية مفتوحة النهايات.ونحن بدورنا نأخذ منها ونعطيها حتى الفصل الأخير من حادثة الخلق.

الـهـوامـش

١ ـ الدكتور علي كريم سعيد- العراق البيرية المسلحة - الفرات للنشر والتوزيع - بيروت لبنان ٢٠٠٠

٢ ـ مهدي عامل ـ في علمية الفكر الخلدوني ـ دار الفارابي،بيروت ـ ص ١٦

٣ ـ عبد الرحمن بدوي _ سيرة حياتي _ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠ ـ ص ١٥٠

٤ ـ مصدر نفسه ٢٢٢

٥ ـ محمد مهدي البصير - تأريخ الثورة العراقية -

٦ ـ سيار الجميل . مناقشة نقدية في مذكرات أمين هويدي . الحلقة الثالثة،العراق وعبد الناصر

٧ ـ هاني الفكيكي - أوكار الهزيمة - رياض الريس ١٩٩٣ ص١٢

٨ ـ زكي خيري ـ صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم ـ مركز الحرف العربي ١٩٩٦

٩ ـ الدكتور لويس عوض _ أوراق العمر _ ص ١٤٥

١٠ ـ مرسي الياد - المقدس والعادي - ترجمة عادل العوا - صحارى للصحافة ص٦٧

١١ ـ أحمد النيفر _ جريدة الحياة بتاريخ ٢٢_ ١٠_ ٢٠٠٥

١٢ ـ محمد حسنين هيكل - سنوات الغليان – ١٩٨٨

١٣ ـ ديفيد كار ـ الوجود والزمان والسرد ـ ترجمة سعيد الغانمي ـ المركز الثقافي العربي ص٢١٣

١٤ ـ عزيز سباهي - تأريخ الحزب الشيوعي العراقي – منشورات الثقافة الجديدة ٢٠٠٢ – المقدمة

الفصل الثاني

السيرة الذاتية والاحتيال على النسيان

ظـهـورات الكتابـة

ترتبط حركة المجتمع بنشوء حاجات اجتماعية وثقافية متنوعة تتحول بفعل التراكم إلى لبنات حقيقية تشكل هوية الأمة وتاريخها.وإن الذاكرة القادرة على استعادة وتوثيق الحوادث التي أتت عليها أحوال، هي إحدى تلك اللبنات والوسائل المعرفية التي ستساعد الأجيال القادمة في ذلك.وبما انه لا يوجد إنسان دونما حكاية حتى لو ولد ميتا، فإن الحادثة التي تؤسس للحكاية هي كلمة السر فيما نكتب وفيما نروي عن الماضي. ومن هنا فإن استعادة التجربة الذاتية والاجتماعية ارتبط تقبلها عند القارئ قبل أي شيء بحقيقة المعلومة وواقعية الحكاية وطبيعة أبطالها وأماكنها، ومن ثم أساليب الاستعادة والسرد والتوصيل.

إن الكتابة عن الماضي هي كتابة عن (المشروع) وإن اختلفت التحديدات في أنواع الكتابة السيرذاتية.كأن تكون المذكرات أكثر التصاقا بالمشروع لفئة معينة، السياسي مثلا، في رواية الحوادث الفردية والاجتماعية، المترابطة والمتسلسلة، أو يلجأ آخرون إلى الذكريات عند انتقائهم الحوادث والشخصيات لغرض أو خلل في الذاكرة، ويفضل آخرون الترجمة الذاتية لرواية مرحلة عمرية محددة، وهكذا السيرة الروائية، الشهادة، المقالة اليوميات..الخ كل حسب أولوياته.

إن قدر الكتابة السيرذاتية ليست فقط التنوع في الفئات والشرائح الاجتماعية، بل وكذلك إشكالية جنسها والسياحة بين المفاهيم والتجارب والأساليب، يمارس فيه مؤلفيها تذكر الماضي عبر خطاب ممتع ومتنوع غالبا ما يلهينا عن البحث في التفاصيل والاختلاف مع المعلومة التي يتضمنها.وهذه الحالة الزئبقية التي يتفلت بين ظهرانيها مصطلح الكتابة السيرذاتية أنتجت

عشرات التعريفات والشروح والتحديدات والمصطلحات أوصلتنا إلى وهم تجاوز اشتراطات الجنس والسن والملامح لهذا المخلوق،وجعلتنا نشعر مع كل كتاب جديد أننا بحاجة إلى تعديل المفهوم وكأن لكل كتاب جنسه.وهذه الحالة الرجراجة التي تتوسط المسافة بين الحادثة وبين إيصالها والتي غالبا ما يتم تناولها أدبيا،يغذيها منذ البدء عنصران مهمان هما طبيعة السارد ومرجعيته وثقافته من جهة،وأخرى طبيعة الكتابة السيرذاتية الموزعة على والمتأثرة بأكثر من نوع وجنس.

إن اختلاف التعريفات في الحدود الأدبية والتاريخية اتفقت عموما على أن السيرة الذاتية تحكي التجربة الفردية "والاجتماعية" التي جرت أحداثها في الماضي.ففي قاموس أوكسفورد كانوا قد أوجزوا تعريفا للسيرة الذاتية بأنها (كتابة الشخص لتاريخه،قصة حياته بقلمه) وغالبية اللذين تناولوا الكتابة السيرذاتية وتوسعوا،نسبيا،في تعريفهم لها لم يذهبوا بعيدا عن ذلك،ووقفوا طويلا عند الملامح العامة لها ومرددين ما قاله من سبقوهم في عناوين السرد ليجدوا أنفسهم في موقع لابد فيه من إضافة تعريف يختصر تلك العموميات دون أن يؤكد تحديدا متفقا عليه.فنجد الدكتور محمد الباردي يرد الكثير من التعريفات - موضحا ومختلفا ومتفقا - لكنه يلقي بحبله قريبا من ذلك فيقول "إن السيرة الذاتية هي حكي إستعادي نثري بأشكال سردية متنوعة يقوم بها شخص واقعي عن وجوده الخاص والعام وذلك عندما يركز على حياته الفردية والجماعية وعلى تاريخ شخصيته الجزئي أو الكلي"[1].وهذا التعريف توسعة لما أورده الباحث الفرنسي المتخصص بالكتابة السيرذاتية فيليب لوجون الذي ركز في الكتابة على الفرد وتاريخه الشخصي "أنها حكي إستعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص،وذلك عندما يركز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته بصفة خاصة"[2] .وهنالك الكثير من التعريفات العربية وغير العربية المرتبطة طرديا بكثرة وتنوع كتابات الأدب الشخصي التي لا يسع

المجال لذكرها بالتفصيل. وهي ظاهرة صحية في الحياة الأدبية وأثرا من آثار الحداثة الأدبية كما ذهب إلى ذلك (جورج ماي)، وإن لم تؤدي بعد أكثر من قرنين على ظهورها إلى تعريف متفق عليه.إن التعريفات الأوربية، على أهميتها، وبسبب مرجعياتها ومساحة الحرية التي تتحرك فيها قد لا تنسجم والكتابات التي ولدت في حاضنات بعيدة وظروف مختلفة ما قد يؤدي إلى إسقاطات خارجية على طبيعة الكتابة الجديدة تكرس تابعيتها وتخلفها، أو في أحسن الأحوال لي عنق الكتابة الجديدة لتنسجم وتحديدات التعريفات الأوربية، متجاوزة الزمان والمكان وطبيعة المجتمعات وثقافاتها. وما قاله فيليب لوجون من أن السيرة الذاتية تعبير عن الإنسان الحديث، عموما، لا يعارض ما ذهبنا إليه.فطبيعة مجتمعاتنا الشرقية تخفي متناقضات لا تحسد عليها وإن غلب عليها التحفظ والكتمان.ففي التطورات العالمية الحديثة نشهد تقليعات وتغيرات متسارعة ومذهلة عن رياضيين رشيقي العضلات ومطربين صغار السن بزوا السياسي والمثقف والعالم والعسكري بعد أن كتبوا أو كلفوا من يكتب لهم سيرتهم رووا فيها مشوارهم الاحترافي والأسرار والخفايا التي تميز هذا الميدان عن غيره، ومزينة بأجمل الصور والمواقف.وهنالك كتابات مجهولة ظهرت على الشبكة العنكبوتية للانترنيت بأسماء مستعارة لشباب حديثي التجربة في مناطق خطرة من عالمنا الثالث تروي عن الحروب والهجرة السرية ومعاناة الأقليات، وقد ترجمت إلى اللغات الأوربية وصنعوا منها أفلاما أو قدمت على خشبات مسارحهم. هذا إلى جانب الكثير من الكتابات التي جرت العادة على ظهورها في المناسبات والأزمات وبعد موت أصحابها، عكست تأثرا بتلك الصرعات.فبعض المؤلفين أدخل من عندياته فصولا وصورا معدة بإتقان عن طريق الكومبيوتر لغرض التشويق، ليس لها أصل في واقع الأمر(مذكرات سليمان فيضي) وهو ما ألقى بظلاله على أمانة الوثيقة.وبعض كتاب السيرة يحلو لهم أن يزينوا النص الأصلي الذي ظهر قبل سنين لغرض جعله معاصرا

وحديثا ودعمه بوثائق وصور لم يتسن لصاحب الشأن الحصول عليها في حياته.وبكلام آخر فإن التطور المضطرد والسريع للمجتمعات الذي أشاع الكتابة السيرذاتية هو الآخر ترك أثره على عدم استقرار المصطلح ووضوحه.

منتصف القرن الماضي وجد الكثير من العرب، من أهل الفكر والعمل الذين ساهموا سلبا أو إيجابا في تطور مجتمعاتهم بعد سنين من النسيان وتبادل المواقع، وجدوا أنفسهم في صداقات حميمة مع أعداء الأمس من سياسيين ومثقفين وعسكريين إما جيران في السجن أو غرباء بالمنفى يرددون سوية شعارات العصر الليبرالية في الدفاع عن الأفكار والمعتقدات والحقوق بعد أن كانت هذه المفردات سببا كافيا في تصفية بعضهم بعض. فتوالي النكسات وتطور الأفكار وتغير الأمكنة ونضج التجربة وركض السنين صوب النهايات من الأسباب التي دفعتهم إلى سماع الآخر وتوسيع مساحة الحرية على مضض أحيانا، مدافعين عن مواقفهم ومتطوعين بالرد على الكثير من التشوهات والمبالغات التي طالت حوادث مهمة سبق أن عاصروها أو ساهموا بصنعها، ليجرهم ذلك إلى فكرة كتابة المذكرات والسير والشهادات والمقالات وأحيانا القصائد والروايات. إلا أن ذلك لا ينفي بقاء الكثير من العداوات والصراعات التي وجدت طريقها إلى الكتابة السيرذاتية .

ولو تركنا الموت جانبا كونه حق، فإن الأسباب والأغراض التي تقف خلف كتابات الأدب الشخصي غير ما ذكرنا وأوسع من كونها تسجيل معاصر لتاريخ المؤلف ودوره الذي لعبه فيه.فمنهم من وضع ذاته موضع الكتابة وآخر وضع مجتمعه موضع المساءلة وهنالك من وضع تجربته التي تفسح في المجال للآخرين والمقربين وطبيعة المهنة ونوعية المنضمات. تتفاوت بينهم الرؤية والجرأة والأسلوب واختلاف الثقافات والمجتمعات وصولا إلى الدوافع المرتبطة بتجربة المؤلف وطبيعة علاقته بالحوادث.

إن عدد سنين العمر لوحدها لا تفسر أسباب الكتابة، وقد كره ذلك كثيرون.فهم بعد أن قطعوا عمرا صوب المثال والهدف نجدهم في نهاية الرحلة لا يهدؤون أو يتمتعون بما أنجزوه بل يعاودون الرحلة بالاتجاه المعاكس في تدوين ما أنجزوا وإقناع الآخرين بصواب الرحلة وصحة المشروع.وهو ما أدى بكثير من المؤلفين اللذين كانوا طرفا في النزاعات إلى استمرار خصوماتهم على الورق استكمالا لتلك التي كانت على الأرض. وقد يكون دافع الكتابة متعة استرجاع الحوادث مرة أخرى على الورق بعد أعوام على وقوعها رغبة في إشراك الآخرين بمعاناته، وقد يكون الدافع مواجهة التشوهات الحاصلة للحوادث بمبادرة فردية أو بطلب من الحزب أو الصحيفة، وقد يكتبها آخرون انسجاما مع حالة ثقافية شاع فيها الأدب الشخصي، أو يضمن المؤلف لنفسه - ومن خلفه دار النشر - ربحا ماديا وذكرى طيبة وفكرة للتواصل، أو بسبب حادثة مفجعة تكون بمثابة الشرارة التي تضئ ما مضى من حوادث كما وقع لـ (جوليت المير) بعد إعدام زوجها أنطوان سعادة مؤسس الحزب القومي السوري "هذه الفاجعة التي ضربتني في صميم أعماقي تجرني إلى التماس ذكريات كل دقيقة من الدقائق التي عشتها قرب رفيقي الوفي، ذكريات حياة عظيمة في أساسها، بسيطة في مظاهرها" وتروي فيها فقط علاقتها بالزعيم عابرة تفاصيل الطفولة والمراهقة والدراسة وحياة العائلة .

إن كتابات الأدب الشخصي التي يحتضنها الماضي قد تأتي بفعل المصادفة أو الضرورة ولكن أكثر ظهورها سببه إلحاح المقربين المقرون بالعتب والاستعجال كما جرى ليوسف القرضاوي ومحمد عابد الجابري وزكي خيري على سبيل المثال لا الحصر.أو نتيجة لمقابلة طيبة في مطبوع معين تتحول بعد ذلك إلى مذكرات كما حدث مع (مذكرات وريثة العروش) لمؤلفه المحامي فائق الشيخ علي وكذلك مذكرات الدكتور نصر حامد أبو زيد.ومنهم من يرويها كجواب على أسئلة الموت أو تحديا لاستعادة الحوادث التي كثر حولها الجدل

لغرض تصويبها وتوضيح المخفي منها، أو تأتي ردا على التاريخ الرسمي للدولة أو المؤسسة. لكنها تبقى في كل الأحوال تجربة فردية تتمدد على فترة زمنية محددة في وسط اجتماعي معين، ترتبط أهميتها بطبيعة الأحداث التي ترويها والمرحلة التي ظهرت فيها وقدرتها على أن تكون معلما لتاريخ المجموعة وأسباب الكتابة غالبا ما يوردها المؤلف في الصفحات الأولى والمقدمة، لكن هذه الأسباب سرعان ما تتراجع في قادم الصفحات تدريجيا لتفسح في المجال ظهور أسبابا أخر سنتلمسها في جريان الحوادث وهي تحدد ملامح الكتابة وأهدافها.

علينا أن لا نندهش لكثير من السير التي كتبت بعد وفاة أصحابها أو المذكرات التي كتبت بيد آخرين في حياة أصحابها بسبب المرض والعجز كما حدث مع الشاعر محمد مهدي الجواهري وسليمان فيضي أو كتبت بطلب رسمي عن أفراد أو أحزاب أو مؤسسات رسمية، ما قد يؤدي إلى ظهور كتاب ومثقفين معنيين بكتابة هذا النوع من السير معتمدين على قدراتهم الثقافية والتخيلية وقربهم أو انحيازهم إلى صاحبها. هنالك من السياسيين والمثقفين والعلماء الذين قدموا الكثير لبلدانهم ولم يجدوا ضرورة لرواية ذلك، لا بخلا على القارئ ولكن بعدا عن مساوئ (الأنا) وقربا من آخر المشاعر. وهنالك من لم تسنح لهم الفرصة بالكتابة لتبقى تجاربهم الفردية والإنسانية مسودة حياة لم تبيض على ورق.

إن فعل استعادة الماضي الذي يسير بساقين من التذكر والابتكار ليس حكرا على شعب دون آخر، ولا يحدده عمرا أو ظروفا سياسية واجتماعية معينة تكون فيها أكثر أهلية من غيرها للاستعادة، أو على الأقل لا يلعب ذلك دورا حاسما في طبيعتها. ففعل التذكر متأصل في طبيعة البشر، وهو ليست مرحلة عمرية يصلها الإنسان تحتم عليه ذلك.

كثير من مؤلفات الأدب الشخصي ظهرت إلى النور بعيدا عن اشتراطات الكتابة من مثل نضج التجربة واكتمالها وترجل الفارس بعد سنين عن حصانه

في فسحة هادئة تتيح له الفرز والانتقاء، ولكننا لا نستبعد تأثير ذلك. إن سنين العمر ليست مصفاة تستبقي الحوادث الكبيرة والمفصلية، إنما الذاكرة في خريفها غالبا ما تتجه إلى إبراز وتجسيد الدلالات والدروس والمفاهيم المعبرة عن تجربة الراوي. الذاكرة في اقترابها من الوعي المتأخر المرتبط بالصالح العام، كثيرا ما تعمل على تقديم وتأخير في سلم الأولويات والافضليات، المريك لتلقائية سير الحوادث. ولكننا قد نصادف يوميات كتبت في مقتبل العمر أو مذكرات جمعت في منتصفه وأصبحت فيما بعد مادة الكتابة وأساسها أو وثائق تعود إلى ما قبل حياة المؤلف؛ أي أن نشاط الذاكرة في مرحلة عمرية دون أخرى أو موضوع دون آخر، عملية قصدية يبتكرها المؤلف لأغراض السرد. وبكلام آخر فإن هذه الكتابة ليست على الدوام عملا من أعمال الشيخوخة وإن كتبت بعضها على فراش الموت أو بعد رحيل أصحابها.

إن الكتابة السيرذاتية لا تشترط ظروفا إيجابية أو سلبية، انتصارات أو هزائم لظهورها. ولا تشترط على طبيعة المجتمع حادثات دون أخريات. صحيح إن للمواجهات العسكرية (نكسة حزيران مثلا) والصراعات السياسية والاجتماعية والانقلابات العسكرية تأثيرا بائنا على ازدياد ظهورها بسبب ما توفره من معلومات متنوعة ووثائق غنية وأسماء أعلام مشهورة، إلا أن السيرة الذاتية من الجهة الأخرى قد تحتاج الهدوء والاستقرار وبعض الوقت لغربلة المعلومات ومقارنة الحقائق واختمار الأفكار وإصدار المواقف ثم الكتابة. على أننا في الحالتين لا نستطيع التأكيد على أولوية أسباب دون غيرها، خصوصا والوضع العربي يعيش احتقانا مزمنا ومستمرا لعشرات السنين قد لا يتيح الوقت المثالي لكتابتها. عموما فإن طبيعة الكتابة السيرذاتية يحددها - إضافة إلى طبيعة الراوي وتجربته - بنية المجتمع الذي جاء منه المؤلف والتي تعمل كإطار سياسي واجتماعي وثقافي نستند إليه في تبيان علاقة المؤلف بالحوادث، كأن تكون بنية محتدمة ونشطة ومتنورة نسبيا كما بالعراق وسوريا وفلسطين

ولبنان تسود فيها الكتابات السياسية والعسكرية والتنظيمات السرية والسجون والقسوة، أو تكون بنية هادئة وحديثة التشكل يشغلها الكتابات الاجتماعية والدينية والهوية الثقافية كما في دول الخليج العربي التي تضج بالقيم والتقاليد والتعقيدات المسكوت عنها والممنوعات الصغيرة من مثل ركب الدراجة الهوائية ولبس النظارات وغطاء الرأس وغيرها.

إن التناقضات والصراعات والقسوة التي تعج بهم الكتابة السيرية أو تلك الهادئة والحديثة التشكل ترجع إلى طبيعة المجتمعات العربية المعقدة وإلى التجارب التي عاشها مؤلفوها والتي تعد عاملا أساسيا في الكتابة السيرية، ولكن رغم هذا التفاوت بين البيئات الاجتماعية العربية فإن هوية الكتابة حين ننظر إليها في العموم نتلمس تقاربا في التواريخ وتشابها في الأمكنة وتداخلا في الأزمنة، وتراجع صوت الفرد لصالح الآخرين، وتهميش جنس الكتابة لصالح عموم الثقافة، وسوف لم يتبق مما ذكرنا (الاحتدام والهدوء) سوى علامات دالة على ثقافة إنسانية عامة متنوعة وتضج بالتفاصيل والخصوصيات.

إن نوعية الكتابة السيرذاتية واختلاف مرجعيتها ليست لهما علاقة مباشرة وحاسمة بكميتها.ولو تركنا المنفى كونه حالة طارئة أدت إلى ظهور الكثير من الكتابات بسبب مساحة الحرية وتحسن الأداء، فإننا نشهد كثافة لظهورها في المجتمعات المحتدمة حينا وآخر في تلك الحديثة التشكل، على أنهما في كلا الحالتين يشكلان جزء من ثقافة المجتمع وتاريخه.فالحادثة هي مادة الكتابة، ويمكن تناولها على أنها جزء من حركة المجتمع بغض النظر عن طبيعته إن كانت محتدمة أم هادئة.ففي دول الخليج وبعد أن كنا كغيرنا نردد كذبة شفاهية عن طبيعة المجتمع الإسلامي المتحفظة التي تفيد بأنها أرضا غير خصبة لنمو أساليب الكتابة التي تتعرض لخبايا الذات والأعراض والمقدسات، نجد في الأعوام الأخيرة تطورا ملفتا في كتابات الأدب الشخصي

تعكس مناخا اجتماعيا خاصا، صاحبه ظهور دراسات وكتابات واهتمامات من القراء والدارسين تدعم ذلك.

ونود التأكيد هنا على ان التحديدات النهائية والمطلقة والباتة لنشاط الأفراد والمجتمعات التي تعودنا عليها في السياسة والاقتصاد، قد لا تفيد كثيرا في التعامل مع كتابات الأدب الشخصي لأسباب كثيرة من أبينها حداثة تكون المجتمعات العربية وهشاشة البنية الثقافية التي جعلت منها مستهلكا وتابعا، وكذلك حداثة الكتابة السيرذاتية في عالمنا العربي، وحركية المفهوم وعدم الاتفاق على تعريف معين.

كتابات الأدب الشخصي المحتفية بالحوادث والمستندة إلى الفعل الماضي لا تستطيع التخلي نهائيا عن ضمير المتكلم(الأنا) في فعل الكتابة، شأنها شأن أنواع الكتابة الأدبية الأخر وإن اختلفت مساحة الحرية بين نوع وآخر.وهذه (الأنا) التي تروي عن الذات والمجموع تزداد كثافة ووضوحا رمزيا كلما تكرر إنكارها أو الوقوف طويلا عند انغماسها في المجموع كما نجده عند رفعت السعيد في (مجرد ذكريات) وغيره من أصحاب التجارب المريرة.ونحن نجده من الطبيعي وقوف المؤلف عند شخصه في هذا النوع من الكتابات لأنها ليست معنية فقط بتلك الحوادث التي وقعت والتي شارك فيها هو والآخرون بل هنالك حادثات خاصة داخلية بين الفرد وذاته يعبر عنها بالأفكار حتى وإن لم تقع مثلما نجده عند الراحل إدوارد سعيد"خارج المكان".ولذلك نجده من الطبيعي حتى عند أولئك الأشد نكرانا للذات واندماجا في المجتمع والتعبير عن حاجاته، العودة للوقوف عند عتبة (الأنا) وتوضيح دورها في صنع الحوادث، وقوفا قد تشغلهم الإطالة فيه أحيانا عن شرطهم الموضوعي ووجودهم الاجتماعي وتأتي بمردود على عكس المتوقع، إلا انه مطلوبا ولا تستقيم الكتابة من دونه باعتباره عنصرا من عناصر الحادثة وأداة من أدوات توصيلها.

الكتابة السيرذاتية - حتى الآن – هي من السرديات التي تتمتع ببطل

واحدا يتذكر الآخرون.واستناد هذه الكتابة على التجربة الشخصية يجعل من حقيقة تكرار ضمير المتكلم ظاهرة طبيعية في سرد الحوادث.فعودة المؤلف إلى ذاته وإبحاره في اتجاهاتها المحرمة والمحزنة أو المحرجة والمفرحة بالأسلوب الذي يناسبه لا يشغله على الدوام عن التوقف عند الأسماء والأحداث والظروف التي وقفت خلف تجربته.الأنا هنا لا تلغي الآخر.وأحيانا نلتقي أسماء أعلام على لسان الراوي وقد أفردت لها فصول، وأحيانا نصادف إسترجاعات غيرية يتوقف عندها الراوي لأبطال ورواة وظروف لم يعشها المؤلف وذلك دعما لروايته وأفكاره.

إن عدم وضوح معالم التجربة وارتباكها المتجسد في كثرة الهوامش والاعتذارات والعبور السريع على حوادث مهمة، إضافة إلى الطبيعة الشرقية المبتعدة عن بساطة القول وصدقه المفسدان للمودة، أدى بالمعنيين إلى دفع الكتابة باتجاه الشخصي والسياسي حينا وباتجاه الأدبي والثقافي حينا آخر، وهم ممسكون بلسان الأسرار.وهذا القلق الذي يجلب مشاكله معه لا يعدم حقيقة أن الكثير من الشعراء والروائيين والسياسيين المشهورين رووا بخجل سيرهم، بلغة ممتعة عالية التراكيب والدلالات تضمنت السياسي والأدبي معا كمحمد مهدي الجواهري ونيازي مصطفى وطه حسين وحنة مينة وزكي خيري وآخرين.

هذه الكتابات الأدبية التي تتلمس طريقها وسط السرب دون القدرة على الخروج منه وعليه، تزودت منذ البدايات بخبرات الفنون الإبداعية والفكرية كالفلسفة والتصوير والشعر والقص وغيرها، لترتبط معهم بعلاقات متباينة في أساليب التوصيل حسب طبيعة الثقافة التي تقف خلف تجربة المؤلف ونوعية المطبوع.وهذا الارتباط لا يحكم الكتابة بقدر ما يوفر لها الإمكانيات التي تغنيها وتؤكد خصوصيتها في مجال الاسترجاع ورواية الحوادث التي وقعت وإسنادها.فمنهم من يروي الحوادث التي ساهم فيها فقط عن قرب أو عن بعد في ترابط وتسلسل تحتوي الغث والسمين (مذكرات توفيق السويدي) ومنهم من

يروي الأقرب للواقع وللأفكار والتحليلات ومتوقفا عند المهم منها وقافزا على التفاصيل الجانبية (هاني الفكيكي - أوكار الهزيمة) ومنهم من يغرف من الجانبين، وكل رواية تتطلب أسلوبا مختلفا في التعامل مع عناصر الحادثة في الزمان والمكان والأبطال والظروف المحيطة(رفعت السعيد - مجرد ذكريات)ومنهم من تتحول عنده الحادثة إلى أفكار وتحليلات اجتماعية عميقة (إدوارد سعيد ،خارج المكان) ومنهم من فسر كتاباته وإبداعاته الفكرية على أنها سيرته الذاتية كما ذهب إلى ذلك التفكيكي جاك دريدا.وأيا تكن الأسباب والدوافع التي تقف خلف كتابة السيرة الذاتية فإن تفاصيل حياة المؤلف وثقافته ومهنته وتجربته ومجتمعه ستوضح ملامح السيرة وإطارها العام.وهو ما دفع بالناقد شوقي ضيف إلى تصنيفها في كتابه(الترجمة الذاتية)بالتراجم الفلسفية، العلمية، والصوفية، والسياسية.وكذلك فعل إحسان عباس ووصنفها بالإخبارية، والتفسيرية، والروحية، والمغامراتية.وهذه التصنيفات ليست مطلقة أو نهائية، فطبيعة الكتابة السيرذاتية الميالة إلى الأخذ من المهن والفنون والآداب والجغرافية والتاريخ، لا تعدم تداخل الأساليب وإبراز أحدهم على حساب الآخر.ففي سيرته(دولة الإذاعة)يروي الشاعر والإذاعي إبراهيم الزبيدي بأسلوبه الممتع حوادث كثيرة ومتنوعة في السياسي والثقافي والعاطفي والإذاعي في سلسلة غير مترابطة سوى أن مهنة الإذاعي وقفت خلف جمعها وترتيبها.ونصادف أسماء مشهورة لرؤساء ووزراء وشعراء وعلماء مع غياب واضح للحياة اليومية للشارع العراقي.فالشاعر الراوي يحضر اللحظات الأخيرة قبل مقتل الرئيس العراقي عبد السلام عارف في تفجير طائرته، ويتحول بعدها مباشرة إلى وصف مراسيم التوديع لساسة آخرين في مطار العاصمة أو لقاء السفراء بالقصر الجمهوري، دون رابط غير أدوات المهنة مثل الميكرفون وأنواع المرسلات ومسجلات الصوت ونوعية الأجهزة التي يحملها معه أينما يذهب، ومكان استيرادها وذكاء الإذاعي وطبيعة الأسئلة المحرجة، في كل

متجانس يصنع متعته وترابطه عبر مفردات المهنة.إن المسموعات من الحوادث هنا مجهولة وبعيدة عن العامة، فهي معزولة بسبب نخبوية الأبطال وسرية تحركاتهم والأمكنة التي جرت فيها الحوادث ومهنة الراوي المحاطة بالأسرار والممنوعات، وليست معزولة بسبب خللا في بنيتها أو في علاقاتها بغيرها من الحوادث.وبالنهاية فإن تجربة الزبيدي الإذاعية تقول أن امتلاك الفرد أدوات المهنة معززة بالتجارب الثقافية والعلاقات السياسية، يغري بالكتابة ويوفر فرصة لرواية الأحداث من زاوية بعيدة قد يقربها الميكرفون. فقطعة المعدن هذه حتى وإن تراجع دورها وسط التطور المتسارع لوسائل البث والاتصال الحديثة أو تحولها إلى فلكلور بعد تغير معدنها وسقوط أنظمة وديكتاتوريات واديولوجيات، بقيت في ذاكراتنا رمزا للسلطة المستبدة والمتخلفة والمبهورة بتضخيم الصوت والموقع.

إن بوابة بيت الأدب الشخصي التي تنفتح على أنواع الصراعات والقيم والمفاهيم هي الحادثة، ولو بحثت الكتابة السيراذتية في موضوع يقع خارج جريان الحوادث سوف تكف عن أن تكون كذلك وتتحول إلى كتابة أخرى.الحادثة هي مادة الكتابة، ويتم التعامل معها في سياقات متنوعة/متسلسلة، متقطعة، متداخلة / حسب طبيعة الكتابة.

إن دراسة الحادثة بشكل منفصل لا تقلل من أهمية موضوع الكتابة.ولذلك فإن أدوات السرد لوحدها، على الرغم من أهميتها وانشغال الجميع بها في توصيف الكتابة السيرذاتية، لا تقول كل شيء. فمثلما يقف المؤلف عند أدوات التوصيل كاللغة والخيال والخبرة وغير ذلك، يقف القارئ عند صحة المعلومة التي توصلها الأدوات.لأن تأثير الأدوات الممتع سيكون سريع النسيان في غياب معلومة واقعية ومقنعة ومؤثرة تسندها. صحيح إن الحادثة وأدوات توصيلها من الناحية النظرية متخادمان ومرتبطان، إلا أن الواقعة الكتابية المنشغلة بالسرد والتوصيل هي غير تلك التي وقعت على الأرض مرتبطة بالزمان والمكان

والأفراد.ففضاء السرد المنشغل بمستوى الخطاب ودلالته ليس هو فضاء الحوادث الواقعية المتمثلة بعناصرها في حراك اجتماعي لا يكف عن التراكم.وما أن تصبح الثانية موضوعا للأولى حتى يعاد إنتاجها طبقا لشروطه اللغوية والتخيلية.وهي شروط ديدنها الإبداع والتلاعب بالمبنى الواقعي لحقيقة وقوع الأمر وظروفه وعناصره وعلاقاته مع جيرانه.ولذلك فإن الحادثة الواقعية التي تبنى زمن كتابتها لا زمن وقوعها تتطلب إضافة إلى التوثيق والتأريخ،تنوعا وتطورا في أدوات السرد لغرض توصيلها بشكل مقبول من جهة،وأخرى للتخفيف من شكوك القارئ،في إن تنوع أدوات السرد وتطورها لا يضعف من صحة المعلومة.إن عملية التفضيل بين حقيقة المعلومة وبين أدوات التوصيل،تبقى عملية نسبية تحددها طبيعة القارئ وثقافته.لأنه ببساطة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر،وإن كان في الإمكان تغليب أحدهما على الآخر "إن الحادثة أو الحقيقة لا تكون كذلك إلا بالوصف وأن أية ظاهرة يمكن أن توصف بطرق متنوعة، فتدخل بذلك إلى فرضيات شرح مختلفة"٣ .

إن اختلاف أساليب التوصيل الناتج عن تنوع التجارب والثقافات في واقع اجتماعي متحرك،لا يلغي الحادثة وحقيقة وقوعها بقدر ما يضيئها ويجعل من كثرة الكتابات ظاهرة إيجابية تساعد في رؤية مظان حقيقة التفاصيل المخفية بين ثنايا التوصيل"وهذه المذكرات قد تتناقض في ذكر الأحداث ولكن تناقضها يعطينا وجهات نظر مختلفة حول الأحداث قد يساعدنا على فهم بعض خفاياها"٤.إن كثرة الكتابات وتناقضها هو إعادة إنتاج الحادثة الذي عنونا به كتابنا،والذي تتجلى أهميته بالنهاية في تكوين خطابا ثقافيا وتاريخيا عاما يعكس حركة التطور متضمنة هوية أبطاله وحركة مجتمعه،من دون أن تكون هذه الكتابات لوحدها هي الهوية أو التاريخ .

غنى الواقع لا يضمه كتاب،والحقيقة لا تغمض في فكرة. وبالتالي فإن كثرة الكتابات الشخصية سيساعدنا ليس فقط في زيادة التراكم التوثيقي

الداخلي والرد على الرواية الرسمية وتقليل الاعتماد على الآخر في كتابة التاريخ الاجتماعي للمجموعة، بل وكذلك يساعدنا على دراسة طبيعة الحوادث والتعامل مع الروايات المرتبكة والمتنوعة على أنها وجهات نظر متعددة في حراك اجتماعي مستمر، أكثر من كونها حقيقة وحيدة الاتجاه لتوصيل الحدث كاملا بكلام آخر هي إعادة إنتاج للحوادث التي تناولها الآخرون لتكون صفحات من التاريخ وليست التاريخ. فالمذكرات مثلا كنتاج فردي يتاخم التاريخ ويخص تجربة فردية واجتماعية معينة في زمان ومكان معينين، لا يمكنها تغطية الجغرافية الطبيعية والاجتماعية والثقافية لعموم البلد ما يدفعنا للبحث عن ذلك في تنوع واختلاف تلك الكتابات وتناقضها. لقد كان القدماء يكتبون سيرهم بأسلوب لا يفسح في المجال للتشكيك والاختلاف هدفه التأثير على العامة والاستفادة من العبر والدروس والأعمال الخيرة، فجاءت سيرهم متشابهة تبحث في المناقب الخيرة لأصحابها ولا تحتمل الاختلاف والتناقض والتصادم.فإن اختلاف الروايات بسبب تنوع التجارب والأغراض والزوايا التي يقف عندها الرواة، يأخذ ويعطي للحادثة، ليس بعيدا عن دعاوى الصدق والحقيقة والأمانة وطموح كل راو في أن تكون روايته لبنة في تاريخ المجتمع الذي ينتمي إليه، إلا أن المذكرات التي ترويها التجربة، عن قريب أو بعيد لا يمكن تسميتها والتعامل معها على أنها تاريخ، وكذلك لا يمكن فصلها عنه بسبب الطبيعة التوثيقية وواقعية الحوادث الكثيرة والمتنوعة في حياة المجموعة وأسماء الأعلام والأمكنة التي تساعد المذكرات "أكثر من أي جنس أدبي آخر" في الاقتراب منه.

إن وقوف المؤلف عند أهداف وأغراض الكتابة تارة وأخرى عند طبيعتها وخصوصيتها بين الأجناس الأدبية الأخر يؤدي لربطها بالتاريخ تارة وأخرى بالأدب.ففي كتابه "قصتي مع الحياة " يربطها مؤلفها خالد محمد خالد من الصفحات الأولى بالتاريخ "إن المذكرات والذكريات والسير يمكن أن ننعتها

بالتاريخ"٥ ثم يسترسل في الصفحات التي بعدها بالكلام على أن المذكرات قديمة قدم الإنسان وأن كلمات قدماء المصريين المحفورة على الحجر هي ذاكرتهم وتاريخهم.وأن المعلقات السبع وما سبقها من شعر الجاهليين وما تبعها من شعر الأمويين والعباسيين إن هي إلا ذكريات ومذكرات وحوليات ويوميات.خالد محمد خالد لا يفرق هنا بين السيرة الذاتية كمصطلح علمي يحدد طبيعة الكتابة الوافدة التي تتحدث عن فرد يروي عن نفسه وعن الآخرين، وبين المعلومات والأخبار السيرية المبثوثة في الثقافة والجغرافية والتاريخ.وهذا الذي يذكره الراحل خالد محمد خالد ليس جديدا، فالتعبير عن الذات نشاطا إنسانيا رافق الإنسان منذ نشأته بالرقص والغناء والرسم وغيره، ولكن المهم في موضوعنا هو شكل الكتابة وأدواتها وأسلوب توصيلها.ولذلك نرى هذا التعميم ضربا من المجاز الذي ينسجم ليس فقط مع عمل الراحل بل وكذلك مع أي نشاط آخر ولكن من دون الوقوف عند المفردة والمصطلح خصوصا وإن الكتابة السيرذاتية حديثة ووافدة ولم تدعي كتابة التاريخ ولا يمكن لها أن تكون هي التاريخ "لم تعد المذكرات تنافس التاريخ ابتداء من القرن العشرين، لآن التاريخ أصبح علما. أي المذكرات تاريخ لكنها ليست التاريخ"٦ .

إن الرسمات والقصائد وما شاكل ذلك تؤرخ لحياة الشعوب إلا أن التأريخ (بالهمزة) هو غير التاريخ (بدونها).فهذا الأخير له مناهجه المختلفة في البحث والاستدلال بتطور المجتمعات، مختلف عن كتابات الأدب الشخصي التي تؤرخ للفرد وسط المجموع.إن تنوع المؤرخين ورؤاهم وأدواتهم قد تتفق مع أو تصطدم برؤية الكاتب السيرذاتي في المنهج والرؤية وأدوات التحليل.فالمؤرخ قد يأخذ بالأسباب أكثر من النتائج، وبالظروف المحيطة بالحادثة أكثر من الحادثة نفسها، وبالوقائع المهمة أكثر من الحوادث العادية.وهو ما يؤدي إلى تمييع ونسيان وتجاهل الحوادث اليومية والشخصية التي لا تستقيم الكتابة

السيرذاتية من دونها. وقد يتجه المؤرخ زمنيا بما لا يرضي الأديب والسياسي.فنجد أحيانا مفردات الفكر التاريخي المتدرجة من الازدهار إلى الانحطاط ثم الانهيار، مقلوبة عند السياسي الذي رتب مفرداته وتحليلاته من السكون والتخلف إلى التحرك والفعل ثم المستقبل المشرق.ناهيك عن حميمية المكان السيرذاتي المختلف عن جغرافية وتاريخ الصراعات السياسية والاجتماعية التي تدوس على التفاصيل الصغيرة.وبكلام آخر فإن الاختلاف بين المجرد وبين المعيش سيحتم تناولا مختلفا لعناصر الحادثة الداخلية في الزمان والمكان والأفراد والظروف المحيطة.

إن عودة المعنيين بالكتابة السيرذاتية إلى التاريخ والماضي والموروث الثقافي هدفه البحث عن المشتركات والعلاقات بين السيرة الذاتية الحالية وبين السيرة القديمة بشكلها الكلاسيكي كما عند أبن هشام وأبن إسحاق وغيرهم.ولكنهم لم يثبتوا شيئا ملموسا وبقيت حججهم في دائرة المعلومات السيرية المبثوثة في التاريخ والجغرافيا والأدب.وكما قلنا فإن الحادثة هي مادة الكتابة السيرذاتية وسوف يصيبها التشويه إذا تعرضت عناصرها للثلم والتغيير، فكيف بنا إذ تتم روايتها بعد عقود على وقوعها، شفاها وبغياب أبطالها ومن قبل رواة لم يشهدوا الحادثة.لقد كان الإخباريون أول من أقدم على رواية السيرة النبوية بشكلها المتسلسل والمترابط، وكانوا على علم بتاريخ الأنساب الجاهلية والوقائع المهمة، وغالبا ما كانوا ينتظرون طويلا للبدء برواية تلك الوقائع.وأغلب مروياتهم الشفاهية عن العصر الإسلامي الأول(السيرة النبوية) تم تقبلها بعد أكثر من قرن على روايتها من الذين ظهروا بعدهم، إلا أن كثرة الرواة وصراعاتهم وانحيازهم لهذا الاتجاه أو ذاك واستخدامهم القص لتوثيق تراث هذا الأمير أو ذاك أثار الشكوك حول رواياتهم للسيرة النبوية من معاصريهم ومن علماء الحديث كالبخاري والدارقطني وغيرهم.إضافة لذلك فإن السيرة التي ارتبطت منذ البداية بالقص القديم والموروث والأسماء

والأمكنة، افتقدت الإسناد في تعزيز ذلك.وهو ما دفع القدماء إلى التفريق بين السيرة وبين الحديث بسبب غياب الإسناد، صاحب ذلك ظهور علماء للحديث راسخي القدرة في الإسناد، أدى بشكل تلقائي إلى استبعاد الإخباريين واختفائهم.لقد كانت السيرة الكلاسيكية بعيدة عن تناقضات الذات خصوصيتها ودورها، واشتغلت على الجانب الإيجابي والبطولات والمفاخر، عبر أسلوب من القص القديم وهو يدمج سوية شكل الكتابة ومنظورها السردي ووظيفتها الدينية والاجتماعية في كل لا يعكس علاقة معينة بالكتابة السيرذاتية في شكلها الراهن.فمصطلح الكتابة السيرذاتية بحساسيته الفنية الجديدة المرتبطة بتطور الحياة لم يكن موجودا أو متداولا في عالمنا العربي قبل القرن العشرين، ولكن ارتباطنا الحميم بالماضي والأوائل هو الذي يسهل علينا استحضار الوقائع والأسماء بقيمها الناصعة والدائمة حتى وإن لم تنسجم والحساسية الثقافية لعصرنا في العصور التي أعقبت العصر الإسلامي الأول ظهرت سير مختصرة وطويلة يقترب بعضها من السيرة الذاتية مثل(المنقذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي، وكتاب (الاعتبار) للأمير السوري أسامة بن منقذ وغيره. أتمنى أن أعود إليها في كتاب منفصل لدراسة بنية الحادثة في تلك السير خصوصا وإن قسما منها (أبو حامد الغزالي) يتميز بالاختلاف والبراهين وهو ما يعني إعادة إنتاج الحوادث والأفكار التي كانت موضع خلاف. وتأسيسا على ما مر فأنه من الصعب إيجاد المشتركات الدامغة بين السيرة القديمة وبين السيرة الذاتية بشكلها الجديد والوافد. فالأولى تبحث في المعتقدات والثانية تبحث في طبيعة الذات وسط المجموع، ووجودهما معا أو تصنيع العلاقة بينهما سيهمش لا محالة الذات التي تعتبر عنصرا من عناصر الحادثة وأداة صناعتها وروايتها.صحيح ان مصطلح السيرة الذاتية في القواميس الأوربية فقيرا من الناحية التاريخية، ولكنه في قواميسنا غائب تماما.فهل يعني غياب المصطلح غياب الكتابة أيضا في ثقافة لم تنقطع عن تذكيرنا بحرمة البوح بما أمر الله

بستره؟ وهل يسد ذلك الغياب والتحريم، تاثر العناصر السيرية على التاريخ والجغرافيا والثقافة؟ "وإذا كان كثير من مؤرخي الأدب ما زالوا يقولون بوجود سيرة ذاتية في أدب العصور الوسطى، فذلك لأنهم يردون معايير اليوم الأدبية إلى الزمن الماضي، وهم بذلك يسيئون تفسير "القرائن" أو الدوال الأدبية، ويعدلون من أفاق التوقع الأصلية التي تحكم النتاج الأدبي والتلقي وقت إنشاء العمل، ويطمسون الحقيقة أو لعلهم يخترعونها، وهو الأمر الأسوأ "٧ .

حداثة النص السيرذاتي المعتمدة تنوع الحوادث واختلاف الرواة، والمتأثرة بالمهنة والهدف والتجربة، والمستعينة بالتاريخ والفنون الأدبية الأخرى، لم تعط أو تحدد للمؤلفين أسلوبا أو طريقا أو منهجا محددا للاحتيال على النسيان يستمرون فيه إلى النهاية إذا كان في طبيعة السرد أو في التسلسل الزمني للوقائع وترابطها أو في الوقوف عند الحوادث المهمة والمؤثرة التي وقعت فعلا أو تلك التي تمس الآخرين "خلطنا - في الحقيقة - بين هذه المناهج، فمرة تحكم بنا عامل الزمن وأخرى أهمية الموضوع وثالثة مكانة الشخص" ٨. إن التجارب والمعاناة التي توضح ملامح الراوي وتحدد خصوصيته نجدها متنوعة ومختلفة حتى بين أصحاب الرأي الواحد فكيف باختلاف المصالح والاتجاهات والمرجعيات والمهن والأساليب.كل كتاب أسلوب.نتلمسه في بناء الحوادث وأدوات التوصيل وروايتها بالتسلسل أو الترابط أو التداخل أو التوازي أو التكرار أو غيره. ففي الكتابة التي ترويها التجربة المرتبطة بالمشروع نجد الوظيفة المضمونية هي التي تتصدر باقي الوظائف من دون أن تلغيها.وفي الكتابة التي تحددها المهنة نجد وظيفة أخرى ومصطلحات أخر تحدد طبيعة الكتابة.وقد هيمنت النزعة التحليلية على أسلوب الباحث أحمد أمين في سيرته الذاتية (حياتي).وفي كتابه" مواقف مع الطب النفسي في مصر" يختصر مؤلفه جمال ماضي أبو العزم تجربته كلها "ثمانية عشر فصل" بمهنة الطب النفسي. وسنصادف الكثير من الأسماء والأمراض والحوادث والأدوية والمواقف التي لا

تخرج عن ذلك.وحتى في رحلاته إلى خارج مصر يروي لنا عن مستعمرات المعوقين عقليا وأساليب العلاج النفسي بواسطة الموسيقى والتلفون.وحين يدخل عالم السياسة بمصر فأنه يروي دوره في تطوير السياسات العلاجية وعلاقة الطب النفسي بالعدالة.وتجربة "ماضي أبو العزم" مميزة بكل تأكيد لها قرائها.

إن الزاوية التي يقف عندها الراوي غالبا ما تكون محددة بالمرجعية الثقافية وطبيعة المهنة ومساحة الحرية الممنوحة. وهذا ما نلمسه في المذكرات التي كتبها العسكريون والقضاة اللذين صوروا باختصار ملامح الحياة الاجتماعية في حيز العسكرية والمحاكم موثقة بالأرقام والتواريخ والأسماء والأمكنة، وكل ذلك مدعما بوثائق رسمية محفوظة في أرشيفات الدولة الرسمي.هنا نجد هامش الحرية أو الزاوية التي يقف عندها الراوي لتوصيل وجهة نظره محددة إلى أبعد الحدود، ولا يستطيعان اللغة والخيال فعل الكثير حيال ذلك، لأن أغلب الحوادث هنا اعتمدت أساسا على الأوراق والأخبار في ثكنات معزولة أو في أروقة المحاكم التي يتطلب ضبط الحوادث فيها على بيانات الدولة الرسمية وإحضار الشهود بعيدا عن المعيش وعن حقيقة وقوع الأمر المشبعة بالتفاصيل والظروف والأسباب.

دون شك الكتابة السيرذاتية تمتلك جانبا كبيرا من تحسين صورة المؤلفين وعصورهم.إلا أن تبادل الرضا بين المؤلف وحياته تبدو في كثير من الأحيان عملية مهلكة وشبه مستحيلة.فهي كالحب من طرف واحد مزيج من الاندفاع والأشواق والدموع والبغض، مختلفة بداياتها عن نهاياتها.وفي حب مثل هذا سيمارس فيه الإغواء تأثيره للكشف عن خبايا الذات الإنسانية في حلوها ومرها إلا أنه لا يوجد مقياس لمعرفة مقدار الصدق في ذلك، خصوصا وان (الحقيقة) بين مطرقة الزمن وبين سندان الأسرار سوف لن يتبقى منها أكثر من (أل) التعريف.المشكلة هنا ليست فقط في قدرة المؤلف على عرض حياته

الخاصة أو حجبها، تعرية أسرار الذات والآخرين أو سترها، لكن المشكلة كذلك في القدرة على رواية الحوادث بما يضمن حقيقتها النسبية التي لا تسخر من القارئ أو تثير شكوكه.القارئ في علاقته بالأدب الشخصي يشغله قبل أي شيء طبيعة المعلومة ومرجعية راويها قبل أن يتوقف عند الوسائل التي تم فيها توصيل المعلومة.لقد آثر الكثير من كتاب المذكرات والسير إلى عدم التطرق إلى الحقائق والحوادث والمواقف التي تسئ إلى الوطن والأمة أو تكشف أسرار العائلة والحزب والوطن ورفاق الدرب ما دفع باتجاه أنصاف وأرباع الحقائق وتعقيد مهمة القارئ "تتضمن هذه المذكرات فصولا وحقائق ووثائق غض النظر عن أدراجها وتسجيلها في هذه الطبعة وفي هذا الوقت بالذات، استجابة لنداء المصلحة القومية العليا، واقتناعا بأن ذلك من حق المصلحة العامة ما دام هذا الكتاب مذكرات وليس تاريخ لاسيما وإن تلك الحقائق من شأنها إذا نشرت اليوم أن تؤدي إلى ما ليس هذه الأمة في حاجة منه إلى مزيد "٩ .

كثير من مفردات الفضيلة تلعب أدوارا قلقة في تعاملها مع أدوت التوصيل.فالحرص والتواضع ومصلحة الأمة غالبا ما يدفعون بالمؤلف من قول الحقيقة إلى المساهمة في قولها وتأجيل ما يراه مناسبا.وبما إن إخفاء الحقيقة مشكلة وإفشاءها مشكلتين فإن أنصاف الحقائق هنا أسهل من قولها كاملة أو من إخفائها لأنه يعطي مساحة أوسع للتحرك والتأويل والتبرير. وكما مر بنا فإن مفردات من قبيل الحياد والموضوعية وقول الصدق على الرغم من نسبيتها وطابعها الأخلاقي، ليست غائبة عن المؤلفين، إلا أن حداثة الكتابة وطبيعة مجتمعاتنا الحديثة التكوين والمختلفة عن الآخر والمتناقضة مع نفسها، تجعل من مفهوم الصدق نسبيا ومشوشا.وتصور الكاتب السيرذاتي على أنه شاهد عيان أفتقد تلك المفردات في سرده للحوادث أو لم يجعلها من أولوياته.ففي طريق البحث عن المعنى والمثال تبرز أولويات عند المؤلف تعمل كمصفاة توصل ما يضمن الأثر.كأن يبرز المؤلف جانبا من حياته دون آخر حتى لو أدى ذلك إلى

التلاعب بعناصر الحادثة، أو يلجأ إلى عبور أزمنة وقطع للترابط والتسلسل بين الحوادث، أو استبدال مفردات الحياد والموضوعية بالصدق الفني والجمالي.لنشهد أساليب للسرد تنسينا حقيقة ما وقع مؤدية بالحادثة إلى مرتبة أدنى.وهو ما نتلمسه عند الروائيين والشعراء على سبيل المثال لا الحصر.أما السياسيين فلقد انشغلوا بتقديم تجاربهم الخاصة والمعبرة عن مواقفهم وتصوراتهم لما جرى لغرض توظيفها في تسويق الأفكار والمعتقدات بما لا يتعرض لأسرار الرفاق وقداسة المؤسسة السياسية.أما الإسلامي المنشغل بفضيلة الدروس والعبر ومآثر الأوائل نجده الأكثر تحفظا من بين كتاب السيرة الذاتية في الكشف عن أسرار الذات والجماعة، ولا يستطيع البوح بما أمر الله بستره "اللهم إلا الحديث عما اقترفته يداي من آثام وموبقات فكل هذه الأمور حقها الستر والكتمان وإن يتبعها بالتوبة النصوح "١٠ .

إن فضيلة قول الحقيقة وكشف المستور في ثقافتنا يجعل كتابات الأدب الشخصي، برغم حميميتها، من أكثر الكتابات مجلبة للعداوة والضغينة والخلاف من جهة، ومن جهة أخرى من أكثرها ثلما للحوادث.لأن التعديلات التي تحمي الأسرار والأصدقاء والمؤسسات لا تحمي الحوادث من التشويه والاختزال. الحادثة بدورها ليست حقيقة نقية أو مطلقة، فهي سرعان ما تتعدى تفاصيلها وخصوصيتها لحظة ربطها بغيرها من الحوادث السابقة أو اللاحقة، ناهيك عن اختلاف مواقع صناعها ورواتها ومستمعيها. إن (الحقيقة) كذلك ليست إجبارية في الكتابة السيرذاتية، إلا أن البحث عنها فعل طبيعي رافق الحوادث عبر التاريخ ولم يتوقف عند حد معين.ومن هنا فإن الحقيقة نسبية، ومرتبطة بالأغراض وزوايا الرؤية وإعادة إنتاجها بما يضمن ذلك.وهذه الزوايا والأغراض هي التي وقفت خلف سؤال محمد عابد الجابري هل(الصدق واحد أو متعدد؟). ففي كتابات الأدب الشخصي إذ يمارس الإغواء تأثيره في الكشف عن خبايا الذات الإنسانية فإن الأغراض والزاوية التي يقف عندها لا

تتركان مجالا لتحديد مقدار الصدق في ذلك.فقد يكون التواضع المحبب للقارئ أحيانا سببا أو ستارا في عدم قول الحقيقة كاملة أو قولها بما يضمن الغرض "ولكنني لست قديسا ولا أدعي البراءة المسطحة،ولا أزعم ذلك، ومن ثم فقد أروي ـ وقطعا حدث ذلك ـ رواية ما من زاوية نظري إليها،أو تفسيري الشخصي لها ... وتلك نوازع يصعب منازعتها مهما ادعيت لنفسك البراءة والحياد "١١ وحتى المبالغة في الجهر وفضح الأسرار والتحدث طويلا عن الأمانة والصدق في رواية الحوادث ليس هو الآخر مقياسا للحقيقة كما ذهب إلى ذلك إحسان عباس " وقد كان يظن أنها أصدق سيرة كتبت،ولكن الدراسة المعمقة قد دلت على أن روسو كان أكبر مشوه للحقائق،وهو أخلص الناس في نقلها "١٢ .

ومع ان السيرة الذاتية جنس حديث ووافد في ثقافتنا إلا أنه تأثر كثيرا بمفرداتنا وتقاليدنا الاجتماعية الضارية في التاريخ والتي تميل إلى قول الحقيقة بما يضمن الطيران وسط السرب وحفظ الأسرار والحرمات.أي التغني بفضيلة الحقيقة التي نراها نحن وليست كما هي.وحتى الكتابات التي فضحت أسرارا واخترقت القشرة الهشة للتقاليد الاجتماعية والتي تعد على أصابع اليد الواحدة،فإنها لم تذهب بعيدا في اختراق الممتنع الذي عرفت به مجتمعاتنا والتي أمضت عقودا في تكوينه وصقله وتبريره،إلى درجة باتت فيه لا تفرق بين الحرام وبين الممنوع،بين الجرأة والوضوح في الكتابة وبين فضح الأسرار والمحرمات.وهو ما نعده من معوقات تطور الكتابة السيرذاتية.

الأغراض والمعوقات كما مر تؤثر في منهج التناول وأسلوب التوصيل وحقيقة وقوع الأمر.وإذا جلس كل مؤلف في فترات استراحته يعد على أصابع يديه عدد الذين سيصيبهم الأذى لو ذكر هذا التفصيل وعدد الذين سينجون لو قال ذاك،ستتحول السيرة الذاتية إلى كتابة مطلوب منها ضبط المقاسات وتلبية الأهواء.وبما إن لكل كتابة وظيفة فللمذكرات والسير فضل الكشف وأزالت الغموض عن الذات وما صاحبها من الوقائع والحوادث الماضية ونقلها للأجيال

القادمة وتمهيد الطريق أمام المؤرخين والمعنيين بأسلوب قد يتقاطع مع روايات الآخرين أو يختلف"وظيفيا"عن الوثائق الرسمية، لكن الحياد والأمانة وأدوات التوصيل التي تحترم القارئ سيخفف من ذلك كثيرا.

إن الكتابة التي تحتوي الشخصي والوطني والإنساني والتاريخي ليس حكرا على فرد أو فئة أو زمن أو جغرافية على الرغم من وجود الأسماء والحوادث الكبيرة التي تصنعها المجموعات في أمكنة معينة.ما يعني أن هذا النوع من الكتابات لا يزداد فقط عقب الهزائم والانكسارات بل وكذلك بعد الانتصارات وتكوين الدول وتطور المجتمعات ولكن في الحالين يرتبط تراكم وتطور هذا النوع من الكتابات بتصاعد الوعي الثقافي والسياسي للنخبة المرتبط عضويا بتطور المجتمع وتنوع أساليب التعبير والتوصيل.وبما أن الكتابة السيرذاتية بشكلها الحالي جنس وافد فإن مساحة التأثر لا يمكن تجاهلها في أسلوب الكثير من النخب الثقافية وتجاربهم الاجتماعية والعلمية بعد سفرهم ودراستهم بتلك الدول، لتأخذ شكل اليوميات عند توفيق السويدي وأسلوب القص عند (سليمان فيضي)١٣ وشكل المقالة وطرق التحليل السياسي عند زكي خيري.. الخ. وهذه النخب المتعلمة والمنحازة إلى قبائلها السياسية والعسكرية أدركت أن أهمية الكتابة السيرذاتية تأتي كذلك من أسلوب التوصيل كما تأتي من صدق التجربة وطبيعة الحوادث المعروفة والتي ما تزال ذيولها محسوسة زمن قراءتها، إلا ان مبالغة بعضهم في الانسجام مع متطلبات العصر على حساب حقيقة ما جرى جعل من الكتابة سريعة الاحتراق والنسيان .

إن حياة السياسي في شرقنا عبارة عن اندفاعات مستمرة لبلوغ الهدف.وبعد أعوام طويلة يتم اللجوء إلى عقلنة تلك الاندفاعات وصياغتها على شكل سيرة أو مذكرات أو ذكريات.وقد يكون هاجس الموت من يدفع باتجاه الكتابة أو الميل إلى إنقاذ الذات ومصالحة الأخر وإنصافه، إضافة إلى أن بعضهم لا يطيق البقاء في الظل طويلا خارج الدائرة ومنسيا من الجميع، لذلك عمد قسم كبير

منهم إلى تأسيس أحزاب فرعية والعمل في مؤسسات إنسانية ودولية أو كتابة مذكرات كتتويج وتجديد للتجربة الثقافية والسياسية في تحريك الجمود والتأكيد على الحضور.وليست مصادفة أن نرى تكاثر هذه الكتابات بعد كل هزيمة عسكرية أو أزمة سياسية كهزيمة خمسة حزيران أو حروب الخليج في نهاية القرن الماضي ما أدى بالكثير من العسكريين والسياسيين والمثقفين إلى كتابة يومياتهم وشهاداتهم وسيرهم ومذكراتهم التي تعكس تحولهم إلى فكرة النتائج والنهايات التي تعقب الأزمات.ويمكننا القول أن ظهور كتابات الأدب الشخصي تتطلبه الحاجات الضرورية التي تفرزها حركة المجتمع الثقافية والفكرية والسياسية المتمثلة بنخبتها ورجالاتها.وإن وجود الأزمات أو غيابها لم يحدد نهائيا مستقبل هذه الكتابات ولم ينعكس سلبا عليها وعلى حداثة أدواتها كونها متنفس طبيعي لردود الأفعال،لكننا نستطيع الإشارة إلى افتقارها للأسس التقليدية التي درجت عليها شعوب سبقتنا إليها بمساحات أوسع في التعبير والحرية.

إن كتابات الأدب الشخصي قد تغطي يوما واحدا أو تتمدد على مائة عام.وقد تكون بأكثر من عنوان،مفردة واحدة أو جملة طويلة.فالعناوين عادة تختلف محمولاتها الدلالية بين مؤلف وآخر بسبب اختلاف التجربة والمشارب السياسية والثقافية.فهو عند السياسي مباشر وواضح وصارخ أحيانا،وعند الشاعر أو القاص رمزي وغامض ومختفي خلف مرآة،وعند الديني قديم ومسجوع يوحي بالعبر والدروس.وبمرور الأعوام أدى تراكم السير والمذكرات ـ اغلبها لسياسيين ومثقفين وبدرجة اقل لرجال دين ـ إلى عملية تفاعل بين وجهات النظر وأساليب الروي ساهما في أزالت الغبار عن الحقائق الغائبة، صاحب ذلك تطور بطيء في أدوات السرد وقفزات سريعة إلى النتائج والدروس. وإذا كانت الكتابة السيرية متجهة صوب أساليب السرد وفنون الروي بلغة تقترب من ذات المؤلف وخصوصيته وهيمنته ومدعمة بالمهنة والدين والثقافة التي تقف خلف

تجارب مؤلفيه، فإن التفاوت بين أنواعها لا تخطئه العين.لذلك نجد مؤلفات لروائيين وقصاصين وشعراء كتبت بلغة عالية وتقانة قادرة على الوصول إلى حاجات القارئ.ومؤلفات كتبت بلغة وسطى "ولهجات مفصحة"منشغلة بالصراع اليومي والأغراض وواقعية الحوادث لسياسيين وعسكريين، وأخرى كتبت للسياحة وجغرافيا الأوطان وحال الدنيا.وإذا كان الروائي أكثرهم قدرة فإن السياسي أكثر واقعية والثالث لا يخلو من متعة، ولذلك فإن عملية الأرجحية هنا نسبية ومرتبطة بثقافة القارئ وطبيعة المجتمعات وأحوالها.وهذه الاختلافات في التناول والتوصيل لا تخفي المشتركات بينهم والمستندة إلى فعلي الاسترجاع والروي اللذان يشربان من نبع واحد ألا وهو الحادثة وعناصرها في الزمان والمكان والأفراد.

قد يكون صحيحا لابتعاد المؤرخين عن بعض الحوادث دورا في تغذية توجهات الآخرين لتناولها دون دراية ومناهج علمية وأدبية، ولكن من الجهة الأخرى نجد أن غنى الحياة الثقافية وتنوع شرائح المجتمع وتعدد الأغراض أدت إلى الاستعانة بالحادثة وبأشكال متعددة/خبر، مقالة فلسفية، قصة، مذكرات.. الخ/ ولم تعد حكرا على من صنعوها أو ساهموا فيها فقط بل وكذلك من سمع ورأى وفكر وتأمل.وبما أن السيرة الذاتية تقف على ساقين مجربتين(التوثيقية والادبية) فإن الالتقاء والتقاطع مع فنون القول الأخرى متوقعا بسبب خصائص وأهداف كل فن.فمثلا فن الخطابة الذي أسس له الفلاسفة القدماء يمتلك والمذكرات المرتبطة بالمشروع مثل هذه العلاقة.الخطبة هي حبل الوصل بين الخطيب(السياسي مثلا)وبين الجمهور، والمذكرات التي تقترب من المشروع كذلك تبحث عن قارئ منحاز.ولكن بين العين والأذن هناك ما هو أكثر من مجرد البحث عن حقيقة المعلومة.هناك الاختلاف في طبيعة الحوادث وأساليب التوصيل وربط الحوادث والأفكار.فالكتابة السيرذاتية تضج بحوادث موثقة واضحة العناصر بكلمات وجمل ونص تمتلك

مساحات للتفكير والتأمل، ولكن الخطبة تمتلك نتائج لا تحتمل جدل المستمعين وفيها الحوادث شفاهية سريعة عابرة ومرتبطة على عجل بالشعارات والعواطف والتحريض.فبين المنطوق وبين المكتوب اختلافات زمنية وأسلوبية كثيرة ممكن تلمسها في المنطوق والمكتوب وفي تحويل الحادثة المروية إلى وثيقة مكتوبة، خصوصا وإن الحادثة بعد وقوعها أو روايتها لا تبقى كما هي في الذاكرة بعد سنين طويلة ويبقى في أحسن الأحوال دلالاتها وما تشير إليه.فنون القول تلتقي وتتقاطع. والقول العفوي والمتدفق والمحرض والمترابط الأفكار الذي تتطلبه الخطبة لغرض الإقناع يختلف عن طبيعة المذكرات التي تنشد الإقناع عن طريق التوثيق وبناء الحوادث والنص.وحتى لو حاول الخطيب نفسه أن يكتب ما سبق وقاله أمام الجمهور فإنه سيواجه مصاعب حقيقية في التدوين.القول العفوي والمتدفق الباحث عن أذان صاغية وردود أفعال متجاوبة لا يمكن أن يبقى هو هو في حالة تحويله إلى كتابة لها تدفق وتوتر مختلفين ولا يمكن للقلم أن ينساق لهما دون قوانين تبطئ من احتراقه وتغير من دلالاته في حين ان المذكرات تشهد حوادث موثقة سبق أن تناولها آخرون بشكل متفق أو مختلف، وهي موجهة إلى جمهور من القراء مختلف المستويات والتوجهات قد يتفق أو لا يتفق مع مضمون الكتابة، على العكس من الخطبة الموجهة إلى أسماعهم والتي تمتلك نتائج لا تقبل الجدل والمقاطعة على الرغم من شيوع الاحتمالية نتيجة التدفق والانفعال.وعلى هذا المنوال نستطيع التوقف عند المقالة والقصيدة وغيرهما، للبحث عن المشتركات والمتناقضات السردية التي تربطهما والكتابة السيرذاتية عبر بوابة الحادثة وطرق التعامل مع عناصرها.

إن كثافة الأغراض التي تتكدس خلف قسم من كتابات الأدب الشخصي، أضعفت من أدراك المؤلف للقيمة الأدبية لعمله والتي يدلنا تنوعها على أنها تشرب من مياه متشعبة في الفن والتاريخ والأدب والجغرافية وتفاصيل الحياة اليومية المرتبطة بحيثيات الحوادث.كتابات الأدب الشخصي وإن كانت

مهمة للمجتمع وللأجيال القادمة وخطابا يغني الحياة الفكرية والثقافية، لكنها لم تكن بأية حال أكثر أهمية عند المؤلف (السياسي مثلا) من مواقفه المسيجة بالدم والخوف والسجون دفاعا عن مبادئه الايدولوجية، أو أكثر أهمية (عند الشاعر) من دواوينه الشعرية ونتاجاته الإبداعية وصراعاته الأدبية، أو أكثر أهمية عند (الإسلامي) من طقوسه وعباداته. إن أسم المؤلف وتأريخه الشخصي المتمثل في تجربته ومواقفه أو في كتبه التي ألفها، وعنوان المؤسسة السياسية أو الثقافية التي ينتمي إليها، كلها عوامل تفعل فعل الماركة التجارية في عملية تسويق الكتاب والقناعات التي يتضمنها، أكثر من القيمة الأدبية والمعلوماتية التي يمتلكها الكتاب.

هذا لا يعني أن حياة السياسي أو المثقف هي الأجدر بالتدوين دون الحيوات الأخرى، لكنهما يمتلكان الأكثر من الفرص في ذلك.فبعض العامة قد يعيش حادثات كبيرات ويساهم في صناعتها أو في روايتها، وقد يعيش السياسيون حياة رتيبة تنتج، أو لا تنتج، مذكرات عادية نشهد منها الكثير على أدراج المكتبات.وقد تأتي امرأة منسية وبعيدة عن السياسة والثقافة ولم تصنع واقعة لكنها تروي مذكرات الضحية وسط الشعارات السياسية والوطنية، لتخفف من ذكورية التجربة ومن رنين الأسماء الضاج بالفراغ أحيانا كما حدث مع مذكرات (وريثة العروش) التي سنتناولها بالتفصيل في الدراسة التطبيقية والتي تروي تفاصيلها امرأة تجاوزت الثمانين من عمرها بعيدا عن مفردات البطولة والمثال وهي الأميرة بديعة ابنة الملك علي وحفيدة الشريف الملك حسين بن علي.تروي معاناة الناجية الوحيدة من مجزرة دموية راح ضحيتها كل أفراد العائلة المالكة بالعراق، منتصف القرن الماضي.

إن ظهور الكتابة هو الآخر يعد حادثة مهمة في حياة المؤلف

والمجتمع يلعبان فيه أسم المؤلف وطبيعة الكتابة دورا كبيرا في إطالة أو قصر عمر الكتاب.بداية تأتي أهمية الكتابة السيرذاتية من كونها معاصرة

وحديثة التأليف وحوادثها لم تزل تسبح في دائرة الضوء.ولكن أمر بقائها في أذهان الناس طويلا لم يحدده ما مر ذكره فقط، بل وكذلك نوع المتلقي وطبيعة الظروف المحيطة كأن تكون أزمات سياسية تدفع باتجاه البحث عن ما هو سياسي.أو تكون صحوة دينية تستحضر سير الأوائل ومناخ النصائح والتعاويذ والعبر والدروس، أو حركة ثقافية أو علمية ..الخ.إن حقيقة ميل القارئ إلى نوع من الكتابة دون غيرها هي حقيقة نسبية يجري تبنيها بسبب المواقف والأهواء المؤقتة التي سرعان ما تنتهي تاركة تأثيرات غير حاسمة.

إن بنية السيرة الذاتية التي ظهرت في كتاب وتوقفت عند نقطة معينة وتحدد الزمن الذي تمددت عليه الحوادث، تهدف ـ ضمن ما تهدف إليه ـ إلى أن تكون درسا للأجيال القادمة ولبنة حقيقية في تاريخ المجتمع الذي ينتمي إليه المؤلف.ولكن ليس غريبا في حياة المؤلف، أو بعدها، أن تظهر حقائق جديدة عن حوادث أنهكها البحث والتأويل والاستحواذ، بسبب وثائق منسية أو شهود عيان أخرسهم الخوف.وليس غريبا نشوء ظروفا مختلفة وأجيال جديدة تمتلك قراء مختلفين ودارسين يمتلكون فهما جديدا، ليؤثر كل ذلك في عمر السيرة الذاتية ووجودها.فالسيرة الذاتية التي تجيب عن أسئلة معاصريها سوف لن تكون كذلك حتى الأبد إلا ما ندر.وإذا كانت مقبولة وشائعة في مكان / مدينة طائفة، دولة/ قد تكون مرفوضة أو مجهولة في مكان آخر.إذ أن الاهتمام بالنص السيرذاتي لم يكن على وتيرة واحدة، خصوصا وإن الكتابة التي تظهر في خريف العمر تتصف بالسكون وبطء تحليق الخيال وثبات الحقائق التي لا يصح التلاعب بها عن هوى.فالزمان محدد والمكان معلوم والبطل معلن.ومع أننا نجد أحيانا بعض المؤلفين أو" أهلهم وذويهم" أعادوا طبع مذكراتهم وتكييفها لتنسجم وحاجات الزمن(مذكرات سليمان فيضي)وهو ما أثار أسئلة كثيرة عن سبب صدورها الأول بهذا الشكل، والذي أثر بعمرها

سلبا في الظهور الثاني .

طفولة المكان الأول

غالبا ما تستهل كتابات الأدب الشخصي صفحاتها الأولى بالطفولة البهيجة والمشاكسة والتي تزداد براءة كلما ابتعدت في الزمن وتكالبت على الذاكرة الصدمات.ويتم تناول هذه البدايات بلغة نثرية رشيقة تتسم بالمفارقات التي تشكل حياة الطفل، ووصف يتميز بالشفافية للأماكن الأولى للنشأة.وهذا الاستهلال الذي لا يرتبط بكبير علاقة بنهايات الكتابة كما في أنواع أدبية كثيرة، يذكرنا بأشعار القدماء التي تبدأ بالعشق والقمر وتنتهي بالدم وقعقعة السيوف.فنجد عالم الطفولة في المذكرات السياسية مثلا يفقد شفافيته كلما اقترب المؤلف من احتدامات الواقع الاجتماعي، ويبهت المكان ويصبح ثانويا كلما توسع المؤلف بالشرح والتحليل.إن أشياء الطفولة في الكتابة السيرذاتية مرتبطة قبل أي شيء بقوة الذاكرة القادرة على الاحتفاظ بالتفاصيل، وبأسلوب التوصيل وطبيعة حوادث الطفولة المرتبطة بحميمية بحياة المؤلف.وإذا كانت المعلومات الناقصة والغائمة في مرحلتي الطفولة والمراهقة وما يصاحبهما عادة من انفعالات شخصية وعثرات يمكن فهمها، فهل يمكن فهم ذلك عند التطرق إلى الحوادث العامة في طفولة المؤلف التي تتحدث عن مصائر الناس وتاريخهم ؟.صحيح أن السيرة الذاتية تسمح بسرد أشياء عن تفصيلات حياتية دون أن تلزم صاحبها بقول الحقيقة كاملة عن الحوادث الأخر، لكن الكتابة المرتبطة بتاريخ الآخرين لا يمكن التعامل معها كألبوم للصور تبعد من تشاء وتغير أو تستبدل ما ينسجم وطبيعة الألبوم كما ذهب إلى ذلك بعضهم "تحاشيت ما يثير الخواطر ويبلبل الأفكار فمررت على بعض الحوادث المثيرة مرور الكرام لا خوفا ولا تهيبا إنما حرصا على المصلحة العامة ودفعا للشقاق"١٤.

إن ميل المؤلفين إلى تجاربهم السياسية والثقافية والدينية على حساب كفة

الميزان الأخرى شيء طبيعي، وعدم ميلهم إلى قول الحقيقة عن أنفسهم كاملة هو الآخر ممكن فهمه، ووقوفهم عند شخصهم طويلا وبنرجسية معينة كذلك طبيعي ومطلوب أحيانا، فهذه الكتابات معنية ليست فقط بتلك الحوادث التي وقعت وشارك هو والآخرون فيها، بل هنالك أشياء داخلية بين الفرد وذاته تتطلب الإبحار في الذات لإبراز خصوصيتها.ولكن الغير طبيعي هو أهدار سياق الحوادث العامة والمشهورة والتي ساهم كثيرون في صنعها وروايتها، لتنسجم والشخصي أو السياسي بذريعة المصلحة العامة وعدم المس بأسرار الآخرين، لأن ذلك سيؤدي بالنهاية إلى إعادة إنتاجها وروايتها بما ينسجم وأسلوب المتضررين من ذلك.

كما هو معروف فإن الذي يشكل مناخ الكتابة السيرذاتية بداية هو الذاكرة وآليات اشتغالها.ولكن أحيانا وبسبب الفترة الزمنية التي تفصل بين وقوع الأمر وبين كتابته بأسلوب الاسترجاع الذي يتطلب تنشيط الذاكرة في خريف الجسد، يلجأ الراوي إلى توسيع مساحة المخيلة ودورها في الإضافة والحذف عند استعادته الحوادث؛ أي أن أسلوب الاسترجاع هنا لا يركن إلى الحوادث البعيدة فقط، بل وكذلك إلى المخيلة وإلى الذاكرة المحاطة بالموقف والتجربة والمعاناة لإكمال الصورة "فلقد كان العذاب الحقيقي في تجربة مستعادة الوقائع، هو محاولة البحث عن الحقيقة وراء المشاهد، وربط المشاهد بعضها بالأخر، والنفاذ إلى المستقبل حتى تتكامل الصورة "١٥.

إن الكتابة عن الأمس بلغة اليوم، عن الطفل بلغة الشيخ، وبمسافة زمنية تمتد إلى عشرات الأعوام من الخبرة والمعاناة والتجارب، هي الكتابة عن المشروع.يضيء فيها الراوي الكثير من أفكاره وتأملاته.وسقوط ضوء المشروع من جهة واحدة على بنية الحادثة سيصنع في الجهة الأخرى غموضا وتوقعات وتأملات تجعل من الحادثة غير حادثة. ونحن هنا حين نتحدث عن غموض وتأملات وأغراض ومشاريع فلسنا مع، أو ضد، هذه الرواية أو تلك أو ننصح

بكتابة دون أخرى، فهذه مشكلة المؤلف والنص والتجربة.لكننا نوضح أشكال تناول الحادثة في النص السيرذاتي، وندفع في الاتجاه البعيد لفهم دور عناصرها في الزمان والمكان والأفراد والظروف المحيطة ولا يشغلنا أن تكون الكتابة فنية أو رسمية، فردية أو اجتماعية، منفصلة أو مرتبطة بقضايا المجتمع.وما وقوفنا الطويل عند الحادثة الواقعية، مادة الكتابة السيرذاتية، إلا لكي نعطيها قيمة تميزها عن غيرها من الحوادث في منهج بحثنا، وليست أفضلية. فالحادثة مهمة أيا كانت، وستكون أكثر أهمية لمن يريد الاهتمام فيها.

إن كتابات الأدب الشخصي، عموما، تروي حوادث شخصية واجتماعية وقعت في زمان ومكان معلومين وأبطالها معروفين، تجري تفاصيلها بين يوم ومائة عام تبعا لطبيعة الكتابة. فالمذكرات هي غير اليوميات فيما يخص المساحة الزمنية التي تشغلها، والذكريات غير المقالة أو الخطبة.فلكل شكل خصوصيته وإن استعار من جاره أو تأثر بفنون القول الأخريات.ففي كتابه الموسوم بـ(ليلة الهرير في قصر النهاية)١٦ يستعرض السياسي العراقي أحمد الجبوري ليلة واحدة فقط، أربع وعشرون ساعة من الموت والرعب في إحدى دورات العنف المسلح بالعراق، يساق فيها العشرات من الأبرياء إلى الموت دونما محاكمات سرية أو علنية.ضحايا لا يعرف بعضهم الآخر وأكثرهم جيء به لوشاية أو لتشابه في الاسم لا غير.وأحيانا يسمع هؤلاء الضحايا خبر موتهم من جهاز الراديو المعلق في أعلى الزاوية قبل إصدار الحكم عليهم أو حتى محاكمتهم. جالسون في زوايا الزنازين يشعرون أن الموت قادم، بل أنه سبقهم وأسمعهم صوته.وكان يهزهم من الأعماق وقع أقدام الحارس الليلي وقهقهته بعد إعدام كل وجبة من الضحايا المجهولين.أربعة وعشرون ساعة جرى فيها تكثيف للزمن على إيقاع صوت التلفون حين يتم تبليغ الجلاد بصفة الأسماء التي جاء دورها في ملاقاة الموت.عمد المؤلف في هذا الكتيب إلى اختصار

المكـان في جـدران رماديـة فارغـة ومـن دون فتحـات أو شـبابيك إلا مـن أبـواب موصدة بقوة وبطانيات لم يستخدمها من سبقوهم أكثر من سويعات، فالمكان ليـست للإقامـة والـداخل إليـه لا يخـرج منـه واختـصرت وظيفتـه علـى احتـضان الحوادث العابرة والمؤلمة والمنسية والغير موثقة في سجلات الدولة الرسمية.سـرعة الحوادث وكثافتها جعلت من الضحايا لا ينتمون لـزمن.فهـم دون مـاض مـشترك ولا يعرف أحدهم الآخر، التقوا بمصادفة الحظ على مائدة الموت المجاني في زمن لا ينتهي ولا يقطعه غير جرس التلفون عند المنـاداة علـى وجبة جديـدة.الكتيـب الـذي لم يخـضعه المؤلـف للحبكـة والتزويـق يـروي فيـه حادثـة مهيمنـة سـائرون كلهم في ركابها، حادثة واحدة متصلة يرويها الجميع، ترابطت كل عناصـرها في فكرة الموت.إن بلاغة الحوادث الصغيرة والمهلكة هنا مرتبطة بقلتهـا وقـصر زمنها وفقر مكانها وعجـز أبطالهـا أمـام المـوت.بلاغـة حولـت الحادثـة إلى واقعـة ووثيقـة مهمـة للـسياسيين والمـؤرخين والمعنـيين بتـأريخ فـترة صـعود المـد القـومي بالعراق وأساليب التعامل مع القـوى الوطنيـة المختلفـة، على الـرغم مـن أن المؤلـف لم يتعمد مفردات الصنعة، جاعلا منها شريط مسجل وآلة تصوير كما يقول.

وعلى الجهة الأخرى من ليلة الحبوبي الوحيدة والباردة، تقف ذكريات شـاعر العراق محمد مهدي الجواهري(ذكرياتي)١٧ في مجلدين كبيرين وقد تمددت حوادثهـا علـى مـا يقـارب المائـة عـام مـن الحـب والـشعر والنـضال والمنفى، أشـبه بجدارية واسعة وغنية بالتفاصيل عن بدايات الدولة العراقيـة وملوكها، سـاسـتها وشعرائها، سادتها ومواطنيها وموزائيك طوائفها وأعراقها، وما اكتـف ذلك مـن صراعات ومعاناة.ذكريات رويت بلغة عالية قوية ومتعددة المستويات فيها الشعر والنثر والصورة، تكاد تجعل من الصحراء التي ولد الجواهري قريبـا منهـا نـورا وتأريخـا عـن الخورنـق والـسدير، يقف بينهمـا النعمـان سـاهما بـين يـومي بؤسـه ونعيمـه.وعلـى الـرغم مـن ان هـذين الكتـابين صـدرا في المنفـى، إلا أن لكـلا المؤلفين (الحبـوبي والجـواهري) موضـوعه وعالمـه وخـصوصيته وقرائـه وأسـلوب

استعادته، ولا نستطيع التفضيل وإن كنا نستطيع تحديد الفوارق بينهما في أسلوب السرد وطبيعة المواضيع وغير ذلك.

كنا قد تعودنا ظهور كتابات الأدب الشخصي بمبنى تقليدي تتلاحق فيه الحوادث من البداية إلى النهاية بأسلوب التتابع الزمني للأحداث، بخط مستقيم متصاعد يشكل عمود الكتابة.إلا أن تطور الكتابة وتنوع تقنيات السرد وطبيعة ثقافة المؤلف وعمق تجربته واتجاه أغراضه قد وضع حدا لتلك المسلمات. واليوم نجد منهم من يبني سيرته على ترابط الحوادث وتراكمها حسب الأهمية وينتقل من حادثة إلى أخرى، وقفة هنا وأخرى هناك أشبه بكاميرا كما عند رفعت السعيد.ومنهم من يروي الأقرب إلى رؤيته وأفكاره كما عند هاني الفكيكي، ومنهم من ينتقي الحوادث دونما تسلسل أو ترابط كما عند إبراهيم الزبيدي.ولغرض الوصول إلى المفيد غالبا ما يتم العبور بسرعة من الطفولة إلى مرحلة عمرية أكثر ارتباطا بالنشاط الاجتماعي، تاركين الصبا والمراهقة وكل ما يتصل فيهما من الأماكن والتناقضات الوردية كما يحدث في أغلب مذكرات السياسيين.ومنهم من يقف فقط عند الطفولة وحماقاتها ومغامراتها تاركا الخشونة والنضج كما فعل إدوارد سعيد. هنالك حوادث في الطفولة بمثابة ميلاد قضية الإنسان كما يذهب خالد محمد خالد، والتي فيها يتعرف على مفردات جديدة ووجوه وحيوات مختلفة.وبسبب اختلاف الأغراض والمرجعيات الفكرية والثقافية، ستختلف أهمية الحوادث وانتقائها وبنائها وروايتها.

بما إن الكتابة السيرذاتية تتحدث عن الحوادث التي وقعت في الماضي فإن نسيج الترابط الزمني - أو قفزاته أحيانا - الذي يتطور في وقت الكتابة لا ينبثق مصادفة. فهو يأتي كزمن مستعاد في "الذاكرة" ومستمر على "الأرض" وإن اختلفت أساليب الروي عنها زمن وقوع الأمر؛أي أن زمن الحوادث يتحدد بالذاكرة في إطار الوقوع، معتمدا على بنية فكرية وسياسية ودينية تتعامل

والحادثة على أنها دوما جزء من الزمن المستمر.ولذلك لم تفكر ذاكراتنا عند الكتابة في فصل الماضي ـ زمان وقوع الأمر ـ عن كلية الزمن والتعامل معه كماض فقط في دائرة اجتماعية وثقافية وجغرافية محددة.إن وقوفنا المستأنس بمناخ الحادثة زمن وقوعها وعبق مكانها وظروفها وأبطالها، يستدعي أدوات للسرد قادرة على إيصال ذلك للقارئ، ولكن تزاحم الأفكار والأهواء والأغراض على بياض الورق لا يساعدنا على ذلك.فالنص له عالمه.

الزمن الذي ينتظم الحوادث في الكتابة السيرذاتية هو الماضي.وإن الكتابة عن الماضي في زمان آخر هي الكتابة عن المشروع كما أسلفنا. ولذلك يتم التعامل مع الماضي بما يضمن أغراض المشروع حتى وإن تم تهميشه وإلغائه أو شطره إلى مواض فردية أو اجتماعية، قريبة أو بعيدة.ومع أننا لا ننكر أن التلاعب بالزمن ضرورة من ضرورات السرد، إلا أننا في بعض كتابات الأدب الشخصي نجد عملية التنقل بين الأزمنة في رواية الحوادث لإيصال فكرة أو موقف أو دلالة تؤدي إلى كسر السرد في تسلسل الحوادث أو ترابطها وإلى تبرير الانتقاء والإلغاء عند تراكمها.وفي كل الأحوال لا يمكن الاستغناء عن الماضي وعن فعل الماضي في كتابات الأدب الشخصي، فهو الثابت والقوي كما يقول الناقد الفرنسي (فيليب لوجون).إن قدرة الماضي على البقاء والتجدد في ذاكرتنا وحياتنا لها أكثر من دلالة.ففعل الماضي يفيد تثبيت وتحديد الحادثة في مرحلة اجتماعية معينة، ويجعل منها أكثر إقناعا وقربا من مشاعر القارئ.

إن زمن وقوع الحادثة أو زمن روايتها (كتابتها) أو زمن سماعها (قراءتها) لا يقلل من حقيقة أن السيادة في هذا النوع من الكتابات هي للزمن وللفعل الماضي.صحيح ان كتابات الأدب الشخصي كثيرا ما تستهل بدايتها بجمل أسمية أو ضمائر أو أفعال مضارعة، إلا إن ذلك يأتي لإبراز الماضي الذي نحس بسطوته ووجوده في طبقات السرد حتى بغيابه.

وقوع الحوادث وتراكمها يصنع منذ البداية موضوعا مترابطا ومتسلسلا في

تلافيف الذاكرة.وهذه الأخيرة لا تستحضر الحوادث فقط بل وكذلك الظروف والمواقف والتحليلات التي رافقتها.وهذه الوظيفة التي تعتمد التجربة الواقعية نجدها غالبا ما ترتبط بالشرح والتحليل والنتائج والمقارنة بتجارب سابقة، لغرض التفاؤل واستشراف المستقبل.وهو ما دفع بالمعنيين إلى إلباسها وظيفة - إضافة إلى الوظائف الأخر - استشراف المستقبل.فهل هنالك كتابات مستقبلية تندرج ضمن كتابات الأدب الشخصي؟

إن التفاؤل لوحده لا يغير في مستقبل الأشياء كثيرا كون الحوادث في السيرة الذاتية وقعت وأمست ماض، إلا أن طبيعة المؤلف الفارقة في الصراعات والمرتبطة بالشرح والتحليل تستعد نفسيا لتصنيع الأمل وتوقع الخير في المستقبل على الرغم من معاناة الماضي.فالماضي المحزن والحاضر الصعب يوفران الحالة النفسية لتوقع الخير في المستقبل.ناهيك عن أن العودة إلى زمن الحوادث والصعود به في نسيج العلاقات والصراعات يحمل في طبيعته فكرة المستقبل.فكلنا يعلم أن الماضي ليس مفرحا على الدوام ولن يعود كما هو،وأمسى مشغلا للوقائع والوثائق والتحليلات، إلا أن استرجاعه ورواية حوادثه ينتجان متعة وحنينا يوصلان المؤلف إلى أبواب الأمل والتفاؤل.ولذلك نجد المؤلفين أصحاب التجارب المؤلمة حتى وهم يروون تفاصيل السجن والمنفى لا يتخلون في النهاية عن تفاؤلهم لمستقبل لأجيال القادمة.ليس لأنهم لم يتخلصوا بعد من منفاهم وسجنهم الداخلي، بل وكذلك لأنهم لا يريدوا لأولادهم أن يعيشون ذلك، وهو ما يدعوهم إلى استخراج فكرة الأمل بالمستقبل من كومة أحزانهم ومعاناتهم.بيد أننا لم نشهد بعد مذكرات عن المستقبل.وحتى الرأي القائل بأن قيمة الحادثة ستحدده النتائج المستقبلية عندما تهدأ الصراعات فهو لا يعني كتابة سيرة المستقبل.لأن الحادثة وقعت في الماضي واكتملت عناصرها وما تأخر ظهورها ونتائجها إلا عاملا تقنيا تحدده الأغراض وليست طبيعة الحادثة.فالذات الساردة حين تصفو وهي تحاور نفسها ستفترش مساحة التأمل

والأمنيات بعيدا عن الواقع وقريبا من الأمنيات.ولذلك فأن استباق الحوادث والتبو بنتائجها غالبا ما يورط المؤلف (السياسي) مع نتائج لم تكن في الحسبان.لأن التفاؤل المبني على التحليلات والتوقعات والتمنيات للمستقبل، ليس بالضرورة مرتبطا بسياقات الأزمنة والحوادث التي سبقتها.أي أن الحوادث تسبق الأفكار.ولذلك فإن كتابات الأدب الشخصي التي تتحدث عن المستقبل ضربا من المجاز والأفكار والأمنيات والتوقعات في رأس الراوي وليس لها ما يسندها على أرض الواقع، لأن الكتابة المستقبلية ببساطة تخلو من الحوادث المعلومة التي لا تستقيم الكتابة السيرذاتية من دونها.وحتى الشعوب التي ورثت حضارة مستقبلية كما في وادي الرافدين المعروفة بتكهنها للمستقبل والتي لم تقف عند الماضي فقط في تناولها للحوادث، ولجأت إلى حاضرها تستشرف به المستقبل.فهذه الرؤية المستقبلية لكتابة التاريخ والتي قد تتكهن وتصنع أساطير وحكايات، هي الأخرى لم تكتب سيرة المستقبل وكانت تهدف نقوشها وقصائدها إلى إبراز الهوية التاريخية لثقافة وادي الرافدين وتحديد خصوصيتها.وهذا نجده في حياتهم اليومية فكثير منهم شيد قبره قبل مماته واختار شاهدة قبره وكتب عليها القصائد والسير لتعبر عنه في قادم الأيام حين يكون هو بصحبة الموت.ولكن هل هذا هو المستقبل على الأرض ؟.

إن وقوع الأمر المحدد زمانيا هو كذلك مناسبة تأتي بالمكان وتستدعيه. فالزمان تحدده هندسة المكان وطبيعة الأفراد في ظروف معينة يوضحها وقوع الأمر.المكان متحقق ماديا على الأرض قبل وقوع الأمر، وأثناء وبعد وقوعه أحيانا، ويحيطه بوعائه التاريخي الحامل أبعادا اجتماعية وثقافية غائرة في النفوس. ولذلك لا نجد غرابة في تسمية الحادثة (بنت المكان) فمن دون المكان ستبقى الحادثة قلقة ومعلقة ودون نسب.صحيح أن المكان متحقق على الأرض قبل وأثناء وبعد الحادثة إلا أنه لوحده لا ينتج الحادثة مباشرة على الرغم من احتضانه لها وتأثيره بمجرياتها وتركه خطوطا في ملامح أبطالها.

فالبيوت والجدران والشوارع ليست حجارة وحديد وخشب فقط بل وكذلك نشاطا إنسانيا مرتبطا بحياة الناس الثقافية والاجتماعية، وحاملا لحركية صراعاتهم .

إن ضعف خطوط المكان أو غيابه أحيانا في كتابات الأدب الشخصي لا تعود أسبابه فقط إلى ضعف التقاليد الثقافية أو غيابه في التاريخ العربي الإسلامي، بل وكذلك إلى خلل في ثقافة المؤلف وتجربته وطبيعة الصراعات الداخلية والخارجية التي تؤدي إلى إضعافه.فاستمرار القمع والاعتقال سيؤدي إلى ضيق الأمكنة وقلتها /السجن، المنفى، الوكر/ كما نجده في تجربة زكي خيري ورفعت السعيد وغيرهم من السياسيين اللذين امتلأت حياتهم بالنضال والسجن والمنفى.أما الاحتلال والإلغاء الذي تمارسه الدول الاستعمارية جعل من بعض البلدان الأفريقية وكأنها دونما ذاكرة مكانية بعد أن نهبت آثارها ومخطوطاتها وغيرت في عمران مدنها ومجرى أنهارها ، وهجرت قرى وأحلت غيرها.وفي الوقت الذي يغيب فيه الماضي والتراث والتاريخ وتسرق الآثار وتقل الحوادث المهمة التي تميز الأقوام ،نجد الوطنيين ورجال الفكر والسياسة غائبين أو منكبين في تكيات ومساجد يبحثون ويتأملون في الخلق والخالق وينتظرون موتهم "في دار جدي اكتشفت أن المجتمع في ثلاثينات القرن العشرين فقد ذاكرته ولم يعرف شيئا عن دخول العرب والدول العربية الأمازيغية، وعن حروبه ضد الغزو الاستعماري. وكل ما بقي في الذاكرة هو المتعلق بعالم الآخرة، يوم القيامة، الصلاة، الصوم ومكة المكرمة "١٨ .

إن الحروب والصراعات السياسية والقبلية التي غالبا ما تؤدي إلى هجرات جماعية وقلق إنساني وتغيير متكرر لأنماط العيش، تضعف ذاكرة المكان الأول.وليس مصادفة أن الكثير من الكتابات أنجزها مؤلفوها وهم بعيدون عن أوطانهم، جاءت متواضعة في عرضها للمكان التخطيطي للحوادث.رغم إن المنفى ساهم في نجاة هذه الكتابات من القراءة التي توجهها المؤسسات الحزبية

والرسمية والقمعية، لكنه لم ينجها من الرقابة الداخلية والانحيازات الفكرية والأيدولوجية والدينية، ولم يعوضها عن غياب الاستقرار الذي اضعف بدوره من إحساسهم بالمكان، يكون البيت البعيد أو المكان الأول امتداد للشارع والمدينة، تتداخل فيه الظلال بالتفاصيل بالأمنيات ولم تبق واضحة سوى الأهداف والأغراض من استذكاره.وغالبا ما تلخص الكتابة المكان الأول بواسطة تحديده في بداية المذكرات والمرور عليه بسرعة بقصد الاختصار والتحول إلى المفيد.ما يعني استهلاك المكان دون أعطائه واغنائه بما يدعم خصوصيته وسيرته ودوره في بناء الحوادث.

إن المكان المألوف عند العامة من الناس يجري رفده وتطوير وظيفته ببطء غير محسوس ليكون جزء من بساطة حياتهم ونشاطهم، ولكن الأغراض هي التي تفقده بساطته وتمحي خطوطه وتهمش وظيفته الاجتماعية.فهو قد يكون محايدا عند السياسي ومقدسا عند الإسلامي وغنيا متفجرا عند الروائي. تفصيلات المكان لم تكن من اهتمامات السياسي المشغول بالتغيرات الكلية، ولا يشكل عنصرا أساسيا وموازيا لعناصر الحادثة الأخرى التي يتم ترسيمها بأدوات ومصطلحات سياسة، لذلك يجري الاستدعاء هنا لأغراض وظيفية لا جمالية، وخصوصا تلك الأمكنة المرتبطة بأسلوب حياة السياسي كالمقهى والسجن والوكر.ومن هنا لا نستبعد أن تكون خرائب الفقراء أكثر ألفة من قصور الأغنياء، والسجون المثيرة للخوف والرعب والغموض والانقطاع عن العالم الخارجي، مدرسة لتقوية المواقف وفسحة لاسترداد الأنفاس وتجديد الأدوات، على عكس ما هو مألوف.وقد تصل المبالغة أحيانا إلى جعل الحزب وطنا ،كواقع وسلوك وأهداف، والتعامل معه حسيا ونظريا على أنه المكان الأول الذي تتفرع منه باقي الأمكنة.وقد تذهب المبالغة إلى جعل المكان هو كل شيء إلى حد تغييبه وتحويله إلى مفهوم سياسي كما ذهب إلى ذلك القادة السياسيين الأكراد اللذين يقاتلون في جبال كردستان العراق قرن من الزمن

وبعد أن خانهم الجيران والأصدقاء باتوا يرددون شعارا مفاده أنهم لا يملكون صديقا وسلاحا وملاذ غير الجبل.وكل ذلك يتم بلغة ومصطلحات سياسية لا تغني السرد ولا تبرز المكان التخطيطي للجبل والقرى التي تغفو على سفحه وتوقفت فقط عند وظيفته ودوره في الحوادث العسكرية والسياسية وإقامة المعسكرات.

لا نأتي بجديد في قولنا أن كتابات الأدب الشخصي من أكثر الأنواع الأدبية جلبا للمشاكل وتورطا بالسياسة وملحقاتها، إلا أنها كذلك ممارسة أدبية متنوعة لها جمهورها وكتابها ودورها في رفد الثقافة الوطنية.إن رواية الحادثة نشاط لغوي - شفاها أو كتابة - مختلف الغايات، تتنوع فيه أساليب السرد وطبقاته، ويتم فيه استخدام الفصحى وشبه الفصحى والعامية أحيانا. فالحادثة المكتوبة أو المنقولة شفاها حتى لو حاولت جاهدة تأكيد حيادها في ضوء النزاعات والتجاذبات، فإن اللغة التي لها تاريخها الخاص تسرب بين مفرداتها دلالات تعكس تجارب الإنسان ومعاناته وثقافته، ستنتج بالنهاية رواية تتسق وذلك.اللغة تخبئ أساليب التذكر والاسترجاع والتوصيل، وتبعث الحياة والتجديد في الحوارات التي جرت وتجعلنا نعيشها عن قرب.وهو ما يدفع بالمؤلف إلى انتهاج هذا الأسلوب اللغوي دون غيره ولكن ليس إلى الحد الذي يقرر فيه صحة المعلومة وأفضلية الأداة.فالتدفق الممتع للأفكار والمفردات يحل أحيانا مكان الحوادث كما نلاحظه في السير الروائية التي يستغرق فيها مؤلفوها مساحات واسعة في الوصف والتحليق بعيدا عن الحوادث.وهذه اللغة المحلقة والممتعة ستجعل من الحادثة غير حادثة، بعد أن تتعامل معها كبنية سردية لا تعطي إجابات أو توصل إلى حقائق.مؤدية في النهاية إلى تحطيم البنية الحقيقية للحادثة.

بعضهم أراد للحادثة أن تقرأ كحكاية شعبية من واقع الحياة فتحولت الكتابة إلى الملل والسطحية.فرواية ما هو معروف للمتلقي بلغة يومية ومألوفة

غالبا ما يوقع الكتابة في الرتابة وعدم الإتيان بالجديد.فمذكرات السياسيين المرتبطة بالمشروع غالبا ما تكتب بأسلوب الصحافة الذي يميل إلى المبالغة والتعميم ومحاولات الإقناع من خلال إعادة الأمور ومناقشتها بتكرار وأسئلة وطنية وعاطفية تتشد الانحياز.إن ترهل الخيال المرتبط بترهل الأداة (اللغة)سيؤدي لا محالة إلى إتضاع الكتابة.إلا أن ذلك لا يلعب دورا حاسما في شيوع الكتابة أو انحسارها.فاللغة المستخدمة في الخطاب السيري تحدده ثقافة المؤلف ولا تتحدد (اللغة) دائما بطبيعة الحوادث إن كانت مهمة أو عادية،وبالتالي فإن تقييم الكتابة وتسويقها تحدده ظروف ثقافية وسياسية يكون من آخر همومها أداة التوصيل.فمذكرات الشيوعي العراقي صالح دكلة (من الذاكرة- سيرة حياة)١٩ التي انتشرت بين الساسة العراقيين روى حوادثها المؤلف بلغة يومية بسيطة وبعيدة عن انشغالات الإبداع والتحليل،واقتربت من التوثيق بقدر ابتعادها عن الأدب.وابتعد المؤلف عن إشغال القارئ بأساليب السرد وغريب اللغة، قربه ذلك من دائرة الأغراض التي تتطلب وسائل توصيل معروفة لدى القارئ، وهو ما يراه بعضهم ايجابية وليست نقيصة "عدم موهبة السياسي في فن السرد يجعل من الحادثة قريبة من الواقع وهي نقطة تحسب إلى السياسي وتقربه من التاريخ "٢٠ .

افتقار الكتابة عند المرحوم صالح دكلة إلى أبسط أساليب السرد غلف الحوادث بتقريرية مملة لا تساعد على التواصل،وأعطى الانطباع بضعف البناء الداخلي للحوادث على الرغم من المواقف الصعبة والأسماء الكبيرة التي يضج فيهم الكتاب لرجالات السياسة بالعراق والبلدان المجاورة.لكن المذكرات كرسالة وصلت إلى كثيرين وتحولت إلى وثيقة عند مجموعات سياسية عراقية.فقد يكون السبب في انتشارها طبيعة الحوادث التي تناولها المؤلف وقربها من حياة الناس اليومية،أو بسبب صراعات سياسية في المنطقة انتهت باحتلال العراق كان المؤلف فاعلا فيها،أو تعاطف القارئ مع الضحية

والأبطال الذين يسمع أو يقرأ عنهم في الأساطير.فالمؤلف عاش تجربة حقيقية ومؤلمة قبل أن يفكر بكتابتها، وقضاها بين السجن والنضال والمنفى.وكلنا يعرف أن قيمة التجربة الذاتية في كتابات الأدب الشخصي وفي بلدان تضج بقيم البداوة والسياسة، تعد عاملا أساسيا في حقيقة ما يروى من جهة، وأخرى في حجم انتشارها.وهذا ما يفسر ظهور كثير من كتابات الأدب الشخصي التي رافقها الضجيج، هي في واقع الحال لم تكن مقنعة وتغني بموال غير الذي يشغل الآخرين وكل ذلك بسبب غياب التجربة الحقيقية.لأن القارئ الإنسان ليس بحاجة إلى ذاكرة بديلة أو صحيحة فهي في رأسه وتذكره بمحتوياتها الأشياء التي يعيشها يوميا ولكنه يبحث عن ما يدعم تلك الذاكرة من أسماء وتجارب حقيقية.وعلى الجهة الأخرى ظهرت كتابات مشغولة بحوادث عادية تم التعبير عنها بأسلوب وخبرة كبيرين أديا إلى متعة القارئ، لكنها لم تعمر طويلا في ذاكرته.فالعلاقة بين النص والقارئ تحدده عوامل ونوايا سابقة على النص ومختلفة بين قارئ وآخر، قد يكون من بينها أداة التوصيل.إلا إن أداة التوصيل ليست قادرة على الدوام في أن تفرض على الحادثة الواقعية والمعروفة ما تفتقر إليه وتخلو منه، أو تمنح المؤلف ما يفتقر إليه ويخلو منه.

المؤلف حين يضطلع بدور الراوي عن نفسه ورفاقه، مهنته ومؤسسته، فإنه سيسوق الحادثة في أسيقة متنوعة تستدعي طبقات للسرد وتراكيب لغوية فيها الفصحى والوسطى والعامية، كما فعل الأستاذ المرحوم "زكي خيري" في مذكراته القيمة (صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم)٢١ فالوصف والتحليل والنقد والروي في هذا النوع من الكتابات السياسية غالبا ما يكون بحاجة إلى وسيلة غير محايدة، لا تكتفي بالوصف فقط بل تميل إلى حركة الشارع وتشتد نبرتها وتنخفض حسب الاقتراب والابتعاد عن طبيعة الحوادث وتنوع أبطالها وحقيقة المعلومة التي تحملها، يتم فيه استخدام مصطلحات ودلالات في جملة البنية النصية سبق وإن تأسست على طبيعة

العلاقة بين قناعات السياسي وبين الحادثة.فكتاب الأدب الشخصي فاعلون في مجتمعاتهم ولا يمكن أن يروون ما حدث بعيدا عن دورهم فيه أيا كانوا "سياسيين أو عسكريين أو قضاة" .

على الرغم من أن الاستهلال يلعب دورا مؤثرا وصادما أحيانا في عملية استقبال النص، إلا أن الكتابة السيرذاتية قد تبدأ بأسلوب وتنتهي بأخر ومنفتحة في الوقت نفسه على عدة أساليب أخر في الروي أثناء جريان الحوادث.مرد ذلك جنس الكتابة وطبيعة الحوادث وثقافة السارد وتنوع المراحل في تجربته.فالبدايات مثلا نص مفتوح على كل الاحتمالات المحاطة بأحلام وظلال لطفولة مستعادة، تتميز بأسلوب الوصف والشفافية لمرحلة الطفولة والصبا والمراهقة والأماكن الأولى للنشئة، لكنها سرعان ما تفقد هذه الصفات كلما اقترب المؤلف من صراعات الواقع الاجتماعي.بمعنى أخر تبدأ المذكرات بضمير (الأنا) والريف والطبيعة وتنتهي بضمير(نحن) وصراعات المدينة وأزقتها وتناقضاتها.ولذلك يشعر القارئ بالفصول الأولى وكأنها قصص قصيرة مكثفة وآسرة، في حين أن الفصول الأخيرة تقارير سياسية واجتماعية رتيبة مشغولة بالأهداف والنتائج .

إن اختلاف مستويات اللغة يعود كذلك إلى التجارب التي يقف خلفها أصحاب الكتابات / سياسية، روائية، شعرية/.فعند السياسي تكون اللغة وأساليب السرد من حيث الأهمية تأتي من حيث الأهمية بعد الحوادث والمواقف السياسية، وغالبا ما تأتي سهلة التراكيب ومباشرة (اللغة الوسطى) وتعاني من ضعف في عنصر الخيال ولا تميل إلى الاختزال ولا تحفر في أعماق اللغة لاختراق بنيتها الشكلية واستنباط جديدها وتبتعد باستمرار عن الجمل الطويلة والمعقدة والاعتراضية، بسبب الانشغال الدائم بتوصيل الأفكار وإقناع الآخرين.فبعضهم كتب مذكراته بنفس الكلمات التي يستعملها في حياته اليومية والمفردات التي كانت شائعة تلك الأيام، ظنا منهم أن المفردة الشعبية أو

اللهجة التي يتكلمها المؤلف تساعد أكثر في التأثير على القارئ وفي تقصي الخلفية الشعبية ومدلولاتها كما نجده عند صالح دكلة. وآخرون كتبوا مذكراتهم بأسلوب الصحافة السرية وظروفها الصعبة المرتبطة بالنضال والشعارات السياسية، بلغة منحازة تبحث عن قارئ منحاز، رمادية تفتقر إلى المكان ويسودها التكرار والتقريرية لتبدو أحيانا وكأنها لغة خارج تفصيلات وحقائق ما يجري من حوادث.عند الإسلامي يختلف الاهتمام باللغة ويأتي قبل الاهتمام بالأفكار والحوادث أحيانا، باعتبار الحوادث المعاصرة تنويعا لحقائق سبقتها وأفكارا منجزة ومستنده إلى نصوص وحوادث وأماكن وأسماء مقدسة لا يرقى إليها الشك.ونادرا ما يتم اللجوء إلى إضعاف اللغة بقصد الاقتراب من الشفاهية وأفضلياتها، ولكن على العموم تأتي اللغة عند الإسلام فصحى قديمة تميل إلى السجع الذي لا يتعدى الفقرتين أو الثلاث، مفتقدة إلى الخيال والأساليب العصرية في الكتابة. وعلى الرغم من حضور الماضي وتراثه وأبطاله وأماكنه إلا أن النص يفتقد إلى تنوع المستويات اللغوية، بسبب التكرار وضعف مساحة التأمل والإبداع وعدم إفساح المجال للتأثر بالمناهج الجديدة .

عند الشاعر أو الروائي اللغة تكون مستمرة التفجر في مفاهيم الصياغات اللغوية التي ترافق سرد الحوادث المتضمن النقل والحوار والتأمل.فمثلا كتب الجواهري الكبير ذكرياته بلغة تبتعد عن السرد النقي أو الرتيب المتسلسل لجريان الحوادث، وأعتمد مستويات متعددة قد يكون أكثرها كثافة الحوارية الفلسفية بين الشريد وبين رفيق الدرب في مقدمة الذكريات، أو شبه الحوارية بين الأم وابنها التي كتبت بجمل قصيرة ذات إيقاع شعري تبدو وكأنها مقطعة شكليا، لكنها من ناحية المفاهيم مترابطة ومنسجمة في توصيل الدلالات التي تذكرنا بأسلوب الشاعر، لكنها لم تتخلص من الارتباك والاختلاف في إيقاعات السرد بسبب كثرة المساهمين في صياغة الذكريات، إضافة إلى صحة الجواهري وعمره الذي قارب المائة عام آنئذ.

اللذين حالا معا دون قدرته على كتابة ذكرياته بنفسه.

إن تراكم الكتابات وتنوع أساليبها في التوصيل يدلل على أن هذه الكتابة لا تمتلك سياقات موحدة على الرغم من اشتراكها في رواية الذي وقع في الماضي.فوقوع الحوادث المتنوعة في أمكنة مختلفة وأزمنة لا تتكرر سيرويها أفراد مختلفو التجارب والثقافات، سينتج ذلك بالضرورة كتابات عامة الملامح، متنوعة ومختلفة، لا تلتزم بتعريف محدد أو بقالب معين، ولا تكف عن رفد الأدب والتاريخ.

مذكرات المجموعة

أغلب الذين تناولوا كتابات الأدب الشخصي، عرضا وتعريفا، توقفوا عند معلومة أساسية مفادها أنها جنس أدبي في طور التشكل والتكوين ولا تحتمل الجمود والتعريفات المطلقة، وكذلك نوهوا إلى دورها في رفد التاريخ والسياسة وثقافة المجتمع لما تمتلكه من حوادث ومعلومات وتجارب.ولو وضعنا هذه المسلمات في طبق واحد هل نستطيع الحديث افتراضا عن كتابة (مذكرات مثلا) ترويها مجموعة سياسية أو طائفة معزولة ؟ .

افتراضنا في البداية سيذهب باتجاه ينسجم وموضوعنا، نتوقف فيه عند طبيعة الحوادث في حياة مجموعة سياسية لجأت إلى الجبال هربا من الموت، كونت لها بعد أعوام من عزلتها ومقاومتها على البقاء، تجربة وحياة خاصتين توقف عندها المؤرخون والسياسيون والحقوقيون. ونقصد بذلك حركة الأنصار الشيوعيين بكردستان العراق التي بدأت منتصف القرن الماضي وزادت حدتها في العقدين الأخيرين منه، صاحبتها معارك ومجازر وهجرات انتهت بالاحتلال الأمريكي للعراق.

وإن كانت تجربة الأنصار بكردستان العراق سياسية بالدرجة الأولى، إلا أن تداعياتها في الذاكرات الفردية والمجتمعية، الشفاهية والكتابية" حولتها

بمرور الأعوام إلى أبعد من ذلك.وهذا قد يتلمسه القارئ للوهلة الأولى في إطلاق التسميات المتنوعة على التجربة والمرتبطة بدلالاتها الصراعية /تجربة الأنصار الشيوعيين، تجربة الجبل، تجربة كردستان، العصاة، المخربين ../ وقد تتخذ تلك الدلالات منحا آخرا في تتبع وجوداتها في الأشكال الأدبية والتاريخية /قصة، رواية، دراسة بحثية، مؤتمر سياسي/ على أننا سنبتعد عن ذلك قليلا باحثين في تمظهرات الحادثة المعزولة على ألسنة صناعها ورواتها وموثقيها المعزولين في الجبال والثلج، ومتأنين عند بنيتها وعناصرها في الزمان والمكان والأفراد والظروف المحيطة بوقوعها.لكننا لا نستطيع الابتعاد عن (السياسي) إلى الأبد في تجربة من هذا النوع لكون العامل السياسي هو الدافع والحاضن والمنظم الأول الذي قد يأخذ بيد الحادثة إلى تخوم الواقعة التاريخية أو يختصرها في موقف أو وجهة نظر أو عبرة، وكذلك لا نستطيع الابتعاد عن حقيقة أن الحادثة ليست نقية بالمطلق، فهي حتى وإن وقعت معزولة لأسباب سياسية وعسكرية إلا أنها ستكون مشبعة بالاجتماعي والديني والاقتصادي.

إن وقوع الحادثة على الأرض محكوم بعلاقات الحراك الاجتماعي التي تنتج تأثيرها على وترابطها مع جاراتها من الحوادث، وان تحويل الحراك الاجتماعي - في رؤوسنا - إلى حوادث منفصلة ومحتفظة بعلاقات الترابط، يجعله أكثر وضوحا وينصف الصناع الذين رحلوا والرواة الذين يتناقصون مع الأيام.الحادثة الأنصارية كغيرها عندما تقع تكتمل وتنتهي كحادثة لها حدودها في المكان والزمان والأبطال ولا يمكن التلاعب بعناصرها دون أن يؤدي ذلك إلى خلل في بنيتها.الحادثة تقع وسرعان ما يعلن الحزب الشيوعي العراقي في إذاعته أو يوثق في صحافته وأدبياته نتائجها ودروسها وتأثيراتها.وهذه الحادثة "العملية العسكرية مثلا" الثابتة على الأرض والتي تم توثيقها والإعلان عنها ستتغير تفاصيلها من قرية إلى أخرى متوسلة الذاكرة الشفاهية المعبرة عن طبيعة الفلاحين الميالة للمبالغة والتكرار، وحتى تصل الأخبار إلى القرية الأخيرة

المتاخمة للمدينة ستكون فيه الحادثة الأصلية غير حادثة.من جهة أخرى فإن صناع الحادثة ،رواتها الأوائل، وبسبب من اختلاف المواقع والثقافات سيروون أكثر من حادثة بسبب اختلاف مواقعهم وثقافاتهم؛ أي أن الحادثة وإن كانت معزولة فإنها ثابتة على الأرض ومتغيرة على ألسنة صناعها ورواتها المعدودين.

المعنيون بالسياسية يعرفون جيدا إن الحزب الشيوعي العراقي على مدى تاريخه الطويل يناضل بجماهيره وأنصاره ورفاقه ولكنه بسبب الهجمة الشرسة التي تعرض لها في الربع الأخير من القرن الماضي ولجوئه إلى الجبال والقصبات حتمت عليه النضال والقتال بكوادره وأعضائه؛أي بنخبته السياسية وما تمتلكه من تجارب وكفاءات علمية وثقافية تمتلك أرثا من مفاهيم الجدل والتحليل والتأويل انعكس في قدراتهم على توثيق التجربة وتنوع الروايات واختلاف المواقف.

الحادثة هي مادة الأفكار.تكتسب أهميتها من طبيعة المعلومة التي تقدمها ومن دورها في التأثر والتأثير بغيرها من الحوادث،ولكن كيف بتلك الحوادث التي تقع بعيدا عن الحواضر المدنية في الجبال أو الطوائف المعزولة أو القرى البعيدة،فهل تمتلك الحادثة بنية طبيعية كجاراتها،وهل هي قادرة على البقاء في الذاكرات وأن تكون لبنة في تاريخ المجموعة والبلد ؟.

الحادثة الأنصارية تعاني لحظة وقوعها من عزلة مركبة ،جغرافية واجتماعية وسياسية، ستؤدي إلى انحسارها بمكان محدد واقتصارها على مجموعة معينة.وهذه العزلة لا تعني خللا في بنيتها أو ضعفا في عناصرها الداخلية في الزمان والمكان والأفراد بقدر ما تعني عزلة مفروضة عليها من الخارج بسبب الظروف الصعبة التي يعيشها الحزب ورفاقه التي أوصلتهم للجبال والثلوج.فالحادثة المعزولة قصدا بسبب الاضطهاد السياسي والحصار العسكري تعاني من تدخلات في عناصرها وأسرار معلوماتها،على العكس من تلك التي تقع منعزلة في الأمكنة النائية والطوائف المتماسكة

داخليا.فالثانية منعزلة بشكل طبيعي لحظة وقوعها وتعيش حياتها اليومية وتمتلك وجودا طبيعيا ووقوعا تلقائيا ومنسجما أو مترابطا مع الحادثات القليلات التي تتشكل منها حياة المجموعة أو الطائفة.ولكن لا يوجد ما يؤكد أن الحوادث المعزولة أو المنعزلة أو تلك التي لا تخدم الأغراض على أنها ثانوية وضعيفة وغير قادرة على البقاء في ذاكرة المجموعة وثقافتها، والتاريخ يضج بالأدلة والشواهد على ذلك. ومن رافق التجربة عن قرب يدرك أن ذاكرة أصحاب القضية لم تحتفظ فقط بالحوادث المهمة "المؤلمة والدرامية والدموية" التي حفرت بالذاكرة، بل وحتى تلك الحوادث اليومية والعابرة المتمثلة بالأكل والشرب والتحيات والرسائل ووسائل النقل التي بقيت في ذاكرة الأنصار ومعاناتهم وكتاباتهم ومراسلاتهم الشخصية بعد أعوام على مغادرتهم الجبل.

كثير من الحوادث المؤلمة والمعزولة التي حدثت في جبال كردستان تحولت، أكثر من تلك التي تقع عند الطوائف أو القرى الحدودية، إلى وقائع تاريخية ظهرت متأخرة واحتلت مكانها في أول انعطافة سياسية بدخول الأمريكان إلى بغداد.وهذا بالطبع ليس بسبب عزلتها ولكن بسبب طبيعة المعلومة التي تقدمها. فهنالك حوادث غيرت من سياسة الحزب الذي يرعى التجربة كما حدث بمعركة (بشت ئاشان) في الثمانينيات بين القوى السياسية العراقية وأدت إلى أن يغير الحزب من سياسته الداخلية وتحالفاته السياسية مع القوى المتواجدة معه بالجبال، وهنالك حادثة الأنفال الشهيرة التي هجر فيها مئات الألوف من المدنيين الأكراد والذين بقي أغلبهم دون قبور حتى اليوم، وهنالك حادثة مدينة (حلبجة) التي قصفت بالسلاح الكيميائي وخمدت مكانها مغيبة خمسة آلاف ضحية من الأطفال والنساء والشيوخ.وهذه الأخيرة التي أذهلت المجتمع الدولي لقسوتها وكثر ضحاياها، غيبت عشرات الضربات الكيميائية لقواعد الأحزاب المعارضة للنظام وللقرى المجاورة لها في باليسان وزيوه وغيرها.إن أغلب الأنصار الذين عاشوا التجربة ورووا عن مأساة استخدام

السلاح الكيميائي كانت رواياتهم تلتقي بالغضب والاستنكار مصحوبا بالمواقف النضالية والتحليلات السياسية ولكن الذين استنشقوا الغازات السامة وحملوا معهم عاهات تلهيهم طوال حياتهم نجدهم يروون المأساة بحرقة وعداء للديكتاتور، ومختلفة في التفاصيل الصغيرة عن البعيدين عنها. فهي عند (عدنان سليم)٢٢ مؤلمة ومباشرة ومتأثرة بمهنته كمهندس كيميائي ومشغولة بالمصطلحات العلمية لأنواع الغازات وتأثيراتها الصحية وطرق الوقاية ومن ثم ختمها بإدانة الضربة وتساءل عن أسباب عدم الاستعداد لذلك.وهي رواية قليلة التفاصيل ولكنها وثيقة جيدة عن السلاح الكيميائي والشهداء والحالة السياسية للقوى السياسية العراقية المعارضة للحكم في نهاية القرن الماضي.وكذلك نجد القاص والروائي (سلام إبراهيم)٢٣ تناول حادثة السلاح الكيميائي وكان هو من ضحاياها وجاءت عنده الرواية مختلفة في التفاصيل وأدوات التوصيل والرؤية وهو ما دعا محكمة العدل الدولية بلاهاي إلى استدعائه والاستفادة من شهادته المطولة والفنية بالتفاصيل المكانية والزمانية وأسماء الضحايا.وهي رواية مشوقة توحي بالمبالغة، تتقاسمها الذاكرة والمخيلة ولكنها لم تذهب بعيدا عن حقيقة وقوع الأمر.وهنالك آخرون تناولوا حادثة السلاح الكيميائي بأساليب مختلفة،وآخرون تناولوا حادثات مختلفات فيها المؤلم والإنساني والمفرح.فالتجربة لم تكن على خط مستقيم واحد من النضال والقتال والشهداء،بل كان لها مجنونها وأخرسها،مثقفها وأميها،شجاعها وجبانها،وهذا دليل حيوية التجربة ليس إلا.

بسبب ما للحادثة الأنصارية من خصوصية التجربة فإن (السياسي) له حصة الأسد من امتلاكها شفاها أو كتابة ولكن ليس إلى الحد الذي يلغي فيه أدوات التعبير الأخريات،باعتبار ان الإخبار عن الحوادث نشاطا إنسانيا رافق البشرية منذ البدايات ولم يتوقف عند أسلوب للتوصيل واحد ودائم.ونعني بـ(السياسي) هنا تقديم الحادثة من وجهة نظر الذات الملتزمة بشروط المؤسسة

أو بتوجيهات الحزب التي تستدعي أسلوبا قادرا على الإقناع والدفاع وشحذ الهمم والتحريض بعيدا عن رواية التفاصيل التي تخبئها عناصر الحادثة.فالمكان في بيانات السياسي غائبة خطوطه وأثاثه إلا من أسمه العام والمعروف به بين الجبال والقرى، وصناع الحادثة مجموعة هلامية بأسماء سرية لا يعرفها غيرهم، وأحيانا أرقاما تختصر القتلى والجرحى والشهداء، والزمان ثبت على عجل في أعلى الصفحة أو في مقدمة البيان. والظروف المحيطة بالحادثة عامة وغامضة تعكس ظروف وحياة الحزب الداخلية والتزاماته، وكل ذلك محاط بالشعارات والتحليلات السياسيين.صحيح أن قسوة التجربة تدفع ترف التأمل بالأشياء إلى أضعف مستوياته ولكن أسلوب التعامل مع الحادثة على أنها وسيلة وبالتالي اختصارها إلى وجهة نظر أو فكرة أو إعلان سياسي، سيؤدي لا محالة إلى إحداث خلل في بنيتها وإهدار لعناصرها.بكلام آخر فإن عبور السياسي على التفاصيل وإغراق الحادثة بالتحليلات والشعارات أمر تستدعيه الأغراض وليست الحادثة.إن الأهداف العظيمة للسياسي تخوله التعامل مع الحادثة كسبب ونتيجة أو اختصارها إلى موقف أو فكرة، وبالتالي تعميمها على أمكنة جغرافية متباعدة للوصول إلى نتائج عامة متقاربة يلتزم فيها الآخرون دفاعا عن القضية المركزية.

كما مر بنا فإن الحزب اعتمد النخبة في تجربته المسلحة بكردستان العراق، وكان أغلبهم يدرك ويردد أن التاريخ أحداث تصنع بمعزل عن إرادتهم وتتضمن نشاطهم ومعاناتهم وثقافتهم، ولكن خصوصية حرب العصابات وظروف النضال دفعتهم إلى صنع حوادثهم بإرادتهم والجلوس طويلا للإعداد والتلاعب بعناصر الحادثة القادمة ويجلسون يحددون مكان العملية (الحادثة)القتالية أو التموينية أو التثقيفية.وكذلك يحددون زمنها وأبطالها وكيفية أدارة تحركات المجموعة في ظروف يصنعونها بخبرتهم وتفانيهم؛ أي أن الحادثة الأنصارية ليست على الدوام تلقائية مثل الحوادث الأخر وقد لا

تمتلك علاقة ترابط أو تسلسل مع تلك التي تقع في عموم العراق.ناهيك عن إن التحديد المسبق لأهمية عناصر الحادثة سيؤدي إلى التلاعب في وتفضيل أحدهم على الآخر وهو ما يؤدي بالتالي إلى حدوث خلل في طبيعتها وتلقائيتها.صحيح أن تحويل الحادثة إلى فكرة أو موقف أو رؤية سياسية قادر بالنتيجة على ربط تلك المفاهيم والحوادث في كل منسجم يعبر عن سياسة الحزب وأفكاره، إلا أن ذلك سيكون على حساب حقيقة وقوع الأمر وتفاصيله الصغيرة، على الرغم من الوجود الواضح لعناصر الحادثة في المكان والزمان والأبطال والظروف المحيطة .

السياسي بسبب طبيعته وقسوة ظروفه وعبوره المباشر صوب الأغراض نجده هو الأكثر انتهاكا لبنية الحادثة من بين رواتها الآخرين.وهذا الرأي المتسرع يتأكد وجوده عند أول مقارنة مع المدونات التي تركها الشهداء والقصص والمسرحيات والشهادات والمقالات التي كتبها الأنصار في الجبال ساعة احتدام المعارك أو تلك التي دونت في المنفى بعد أعوام على ذلك، والتي يتلمس فيها القارئ ألفة المكان وأشيائه القليلة والبسيطة وكذلك أسماء الأفراد وظروف استشهادهم المحددة زمنيا. وأغلب هذه الكتابات جاء قصيرا من ورقة أو اثنتين أشبه بمذكرة تروي عن حادثة معينة أو عن شهيد أو عن تأسيس قاعدة أنصارية جديدة أو رحلة طويلة لجلب السلاح. وكل مذكرة من هذه المذكرات وثيقة من لحم ودم ومعاناة. فهنالك مذكرة تتحدث عن موضوعة واحدة تتضمن مجموعة حوادث متفرقة في الزمان والمكان تروي عن الأعياد الدينية أو المناسبات الوطنية (٢٤) وأخرى شهادة نثرية ممتعة ومحملة بمعاناة وأشجان حقيقية (٢٥) وثالثة تروي عن حادثة الأنفال الشهيرة التي راح ضحيتها مئات الألوف من المدنيين الأكراد.وكل مذكرة تضمنت حادثة لا ترتبط مع صاحباتها من المذكرات الأخريات على أرض الواقع فكل حادثة وقعت بمكان مختلف وموضوع مختلف ولها أبطال مختلفون أحيانا ولكن الذي

يجمعها ويصل الخيوط بينها هو المناخ العام الذي عاشه المقاتلون والأفكار السياسية المشتركة التي تبنوها والرقعة الجغرافية المتشابهة التي نشطوا عليها والفترة الزمنية المحددة التي وقعت فيها الحوادث، إضافة إلى قوة العلاقات الاجتماعية والسياسية بين المقاتلين اللذين يعيشون حالة تنقل ولقاء مستمرين.وهو ما يترك عند القارئ انطباعا بالتسلسل والاستمرار والانسجام وبالتالي وحدة المعلومة التي تريد الكتابات إيصالها.

إذا كانت المذكرات تتحدث عن دور الفرد وسط المجموع في الحراك الاجتماعي فإننا في كتابات المقاتلين الأنصار نشهد غيابا واضحا لضمير المتكلم في أساليب السرد، يقابله حضورا كثيفا لدور الحزب والشهداء.
المقاتلون الأنصار نادرا ما يتذكرون ماضي طفولتهم وعائلتهم وأعوام دراستهم الأولى في مذكراتهم، فلقد كان التواضع ونكران الذات والتضحية والمبادرة من الأعمدة الأساسية التي استندت إليها تجربة الأنصار في بقائها أعوام طوال في العزلة، إضافة إلى أن الثقافة الحزبية غالبا ما تؤكد في نشاطها على دور المجموعة وليس الفرد. والملفت إن أغلب المذكرات التي اعتمدنا عليها هنا مذيلة بأسماء /سرية، حزبية، حركية/ يعرفها أصحاب التجربة فقط، وسبق أن نشرت على موقع الحزب الذي رعى التجربة.

إن كاتب المذكرة يروي لكي يحمي تجربته وتاريخه من النسيان والتشوه في وقت كثرت فيه المزايدات وتصنيع التواريخ الفردية؛ أي أنه يعلن عن وجوده وأن حوادثه المعزولات ليس بالضرورة مصيرهن النسيان والفناء.ومع إن بعض المقاتلين لا يمتلك المخيلة الواسعة وأدوات التعبير الجيدة وهو ما عطي الانطباع بأنها كتبت بلهجة مفصحة، إلا أن ذلك جاء لصالح المذكرات فنتلمس الحوادث طازجة والأبطال حقيقيون ويتحركون من موقع إلى أخر بلغة بسيطة وموثقة أدق التفاصيل، على الرغم من أن أحدا لا يصدق ما حدث إلا الذين رأوا.إن مذكرات المقاتلين بكردستان العراق حكي إستعادي لمجموعة

سياسية روت فيها حوادث معزولة، كون الكثير منها لبنات تاريخية للمجموعة وللوطن على حد سواء .

الهوامش

١. د. محمد الباردي. عندما تتكلم السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث . منشورات

اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥ . الخاتمة.

٢ . فيليب لوجون . السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي . ترجمة على الحلي المركز الثقافي العربي . بيروت ص ٢٢.

٣. والآس مارتن . نظريات السرد الحديثة . ترجمة حياة جاسم محمد . المجلس الأعلى للثقافة . ص ٢٤.

٤ . علي الوردي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث . الجزء السادس ص٤.

٥ . خالد محمد خالد . قصتي مع الحياة . المقطم للنشر والتوزيع . القاهرة٢٠٠٢ . ص ٨.

٦ . الأدب والأنواع الأدبية . ترجمة ظاهر باقر . دار طلس للدراسات والنشر . ١٩٨٥ . ج١ صـ ٢٣٩.

٧ . تيتز رووكي . في طفولتي . المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢ . ترجمة طلعت الشايب . ص ١٣١.

٨ . مذكرات وريثة العروش . فائق الشيخ علي . دار الحكمة . لندن ٢٠٠٤ ص١٦.

٩. توفيق السويدي . مذكراتي . دار الحكمة ١٩٩٩. المقدمة بقلم قدري الكيلاني.

١٠. عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري . السيرة الذاتية في الأدب السعودي . دار طريق . ص ٤٤٠.

١١ ـ رفعت السعيد ـ مجرد ذكريات ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ ـ ص ١١.

١٢ ـ إحسان عباس ـ فن السيرة ـ دار الشروق ـ ص١٠٦.

١٣ـ لقد أملى سليمان فيضي في أيامه الأخيرة مذكراته على أبنته التي تراعي حاجاته في انتظار أن يعود الابن الأكبر من العمل ليبادر هو الآخر إلى لملمة الصفحات وإعادة صياغتها بطريقة قصصية لغرض التزويق والتشويق لا كما رواه الأب أو دونته الأخت. والقارئ لا بد وأن يتساءل هنا عن طبيعة المعلومة المتنقلة عبر ثلاثة أشخاص مختلفي العمر والتجربة والثقافة . وعن كمية الصدق الذي تحتويه, وعن قدرتها في تكون وثيقة يستدل بها الآخرون؟

١٤ ـ مذكرات سليمان فيضي ـ دار الساقي ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الثالثة ١٩٩٨ ـ المقدمة.

١٥ـ محمد حسنين هيكل ـ سنوات الغليان ـ ١٩٨٨ ص ١٢ .

١٦ ـ أحمد الحبوبي - ليلة الهرير في قصر النهاية - دار البراق . لندن ١٩٩٩.

١٧ ـ محمد مهدي الجواهري ـ ذكرياتي ـ دار الرافدين ـ دمشق ـ ١٩٨٨.

١٨ـ الطاهر وطار ـ جريدة الشرق الأوسط ـ العدد ١٠١٥١ ـ سنة ٢٠٠٦.

١٩ ـ صالح دكلة ـ من الذاكرة "سيرة حياة" ـ دار المدى ٢٠٠١.

٢٠ـ شوقي العاملي ـ السيرة الذاتية ـ ص ٢٣.

٢١ـ زكي خيري ـ صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم ـ مركز الحرف العربي ـ السويد ـ الطبعة الثانية ١٩٩٦.

٢٢ ـ عدنان سليم ـ هجوم بالأسلحة الكيميائية على مقر الحزب الشيوعي العراقي ـ موقع الطريق webmaster@tareekalshaab.com

٢٣ ـ سلام إبراهيم ـ شهادة ـ موقع الكاتب العراقي ـ وكذلك الموقع الخاص بالمؤلف.

٢٤ ـ أبو صمود "محمد الكحط" أعياد رأس السنة في دفاتر نصير ـ موقع

الطريق.

٢٥ـ حمودي عبد محسن ـ حب كردستان ـ صفحات من دفتر ذكريات بيشمركه ـ موقع الطريق.

الفصل الثالث

الحادثة.. رواة وأثواب

رفعت السـعيد

الذاكرة الانتقائية وتهميش التفاصيل

إن كل ما حدث في التاريخ باق،

ولا شيء يفقد..

جورج لوكاتش

إذا كان لكل إنسان كتابه في نهاية الرحلة،فالسيرة الذاتية هي ذلك الكتاب الأكثر صدقا وقربا من صاحبه.كتاب كلما أقترب من الذات غرق في الأدب،وكلما حلق في فضاء الآخرين تاخم التاريخ.وبين الأنا والآخر،وبين الأدب والتاريخ تفترش نفسها التجربة مجموعا متناقضا وممتعا من الوجوه والأسماء والأمكنة والحوادث،بما تمتلكه من عناصر ثقافية واجتماعية وسياسية لتروي حكاية الرحلة.

في كتابه(مجرد ذكريات)١يروي الدكتور رفعت السعيد باختصار حكاية السياسي العربي في القرن العشرين.وهي للأسف معروفة للجميع.مؤلمة ومشابهة لتجارب محلية وعربية كثيرة ومتنوعة،ولا يميز الراوي هنا سوى أدواته في التوصيل والزاوية التي يقف عندها مشبعة بخصوصية المكان والزمان والأفراد والظروف.ومع إن المؤلف روى تجربته السياسية والمهنية بما فيهما من أسرار وخصوصيات، إلا أن أغلب الحوادث التي تناولها عامة سبق وأن تطرق إليها كثير من السياسيين والمؤرخين وقسم كبير منها محفوظ في أرشيف الدولة الرسمية ومؤسساتها القانونية والبوليسية؛أي أنه أعاد إنتاج الحوادث من زاويته

ورؤيته بما يضمن الرد على الروايات الرسمية وغير الرسمية، وتقليل التشوهات التي طالت حوادث ومواقف كان هو شاهدا على تفاصيلها.

إن تنوع روايات الحادثة الواحدة من قبل صناعها ورواتها، ظاهرة طبيعية في اختلاف التجارب والأغراض والثقافات وليس بالضرورة مسا بالحادثة أو راويها.وهذا التنوع تؤسس له طبيعة الحادثة وأهميتها في حياة الناس ودلالة عناصرها في المكان والزمان والأبطال، وفي قدرتها على أن تشكل حلقة من منظومة فكرية لمعرفة الواقع، وبالتالي لبنة في تاريخ المجموعة.ولكن هذا الذي نقول يأتي بعد وقوع الأمر ونسميه مجازا (المابعديات).فالحادثة أولا تقع على الأرض وتكتمل عناصرها، وقد ترتبط مؤثرة أو متأثرة بغيرها، ولكننا لا نستطيع الذهاب بعيدا في الإضافة إليها من عندياتنا أو تصنيع الترابط أو التلاعب بعناصرها بعد وقوعها دون أن يترك ذلك خللا في بنيتها سيؤدي إلى إعادة إنتاجها من الآخرين لتصبح في النهاية ملكا للجميع.ولذلك فإن تعدد الرواة الموصل إلى تعدد الحادثة قد يغني المعلومة ولكن لا يوصلنا بالضرورة إلى حقيقة وقوع الأمر واكتماله، لأن الحادثة التي تقع على الأرض تنتهي، ثم تستمر في ذاكرة الناس منفتحة على ثقافاتهم وأغراضهم.

إن تحديد الكتابة السيرذاتية في تعريف معين أو قالب محدد، سيبطله أول كتاب يظهر في المكتبات.وهذه الحقيقة المتكررة تواجه المؤلفين بكل مشاربهم بمن فيهم أولئك المعنيين بالكتابة السيرذاتية والتاريخ عندما يقررون هم أيضا أن يرووا رحلتهم، من مثل الراحل ادوارد سعيد والدكتور رفعت السعيد "إن الإشكاليات المتعلقة بطبيعة هذا الجنس الأدبي لم تحسم حسما نهائيا وتظل السيرة الذاتية جنسا أدبيا في طور الإنجاز"[٢] ومن الصفحات الأولى نتلمس الأسئلة المقلقة التي تتناوش رفعت السعيد في تحريكه لمياه البحيرة الراكدة، وبأية أداة يمكن ذلك بالذكريات أم المذكرات " فإنني لا أنوي أن أسكب على الصفحات القادمة ... مذكراتي ... فلا أنا أرغب، ولا أنا قادر، ولا

أنا بمستحق أن أفعلها إزاء القارئ.هي فقط بعض ذكريات.والمساحة شاسعة بين المذكرات والذكريات.وتزداد اتساعا إذا ما أخضعت لعملية انتقاء صارمة بأمل أن تتجاوب مع ما هو جدير بالمعرفة بالنسبة للقارئ "[٣]. كلمات السعيد لا تخلو من ذكاء في تحديد الكتابة وهو المؤرخ العارف بمناهج البحث وبأهمية التجنيس ودوره في تأسيس علاقة وثيقة بعملية التلقي عند القارئ.فالذكريات والمذكرات كلاهما من مرادفات السيرة الذاتية وبينهما نقاط من الالتقاء والتقاطع. وكلاهما يروي الماضي الفردي والاجتماعي للبطل، ويهتم بتصوير البيئة والمجتمع أكثر من اهتمامهما بذات المؤلف، إلا أن هنالك اختلافات في التركيز على شخصية المؤلف وفي بنية الحوادث وأسلوب توصيلها.لأنها ـ الحادثة ـ لم تكن سردا إخباريا متشابها في أنواع الكتابة السيرذاتية.وهو ما دفع بالمؤلف منذ البداية إلى التأكيد على إخضاعه الحوادث لعملية الانتقاء الصارم الذي يجعل من الكتابة أقرب للذكريات، منها للمذكرات. وهذا الانتقاء سيصاحبنا في كافة المراحل العمرية والدراسية، وفي التجارب الاجتماعية والسياسية والمهنية التي عاشها المؤلف.

أسلوب الانتقاء الذي يهدر تسلسل الحوادث وترابطها، هو في الحقيقة أسلوبا صاحب كثيرا من السياسيين في كتابة مذكراتهم وذكرياتهم.فهم لا يقفون عند الحادثة كحادثة معززة بالزمان والمكان والأفراد بقدر وقوفهم عند أغراضهم وتحليلاتهم السياسية، متأنيين عند تلك التي تدعم مواقفهم وتحليلاتهم ويعملون على ربطها بغيرها من الحوادث خارج مفردات الزمان والمكان.والوقوف عند الأغراض أدى بكثيرين إلى الانشغال بالظروف المحيطة بالحادثة أو تلك التي أنتجتها أكثر من وقوفهم عند الحادثة نفسها.الانتقاء هنا أسلوب يخدم رؤية المؤلف ومشروعه على حساب حقيقة وقوع الحوادث على الأرض. فعندما ينتقي المؤلف فهذا يعني أنه يروي حوادثه هو أو تلك التي وقعت ولكن من وجهة نظره هو، وهذا يتطلب جهدا توثيقيا وقدرة على التوصيل

والإقناع من المؤلف، وكذلك جهدا من القارئ للمقارنة والبحث للتعرف على حقيقة التفاصيل "وهكذا تتحدد ملامح ما أنا مقدم عليه من كتابة ... فهي لوحات غير متلاحقة وهي تحمل أو تحتمل فقط رؤيتي أنا ...للواقعة، وعلى القارئ - إن وجد ذلك ضروريا - أن يبذل بعضا من الجهد، إذا ما أراد التعرف على الكاتب، أن يعمل خياله حتى يضم الصور إلى بعضها ويكمل من عنده ما يكمل الصورة"٤.هذا يعني أن المؤلف ينتقي الحادثة ويحدد طبيعة القارئ في آن واحد للإعلان عن هوية الكتابة.

كغيره من السياسيين فإن تجربة السعيد بين السجن والوكر والمنفى ساهمت في افتقاده الوثائق والأوراق التي تسنده عند استعادة الحوادث،أدى ذلك إلى إهمال كثير من الحوادث وانشغل في الوقوف عند المهم منها أو ما يراه هو كذلك، باعتبار أن "البشر كالمجتمعات، والفرد كالجماعة؛ في حياته ما هو جدير بالاستدعاء، وما هو غير ذلك "٥.صحيح ان ليست كل الحوادث مهمة وجديرة بالتوثيق، وهنالك حواديث الأكل والشرب والنوم والمواصلات وغيرها من يوميات الحياة المكررة والمألوفة.ولكن هذا ليس دليلا على موت تلك التي لا تدخل ضمن أولويات هذا الراوي أو ذاك.ولا تنتهي بانتهاء الحديث عنها.فالحادثة تقع في حراك اجتماعي مستمر ومتنوع الأهداف من دون أن تكون ملزمة بالإجابة على أسئلة ومشاكل كافة شرائحه.وإذا تم عزلها قصدا لسبب ما فسوف لن تنتهي وستبحث عن راو يتحدث فيها وعنها أو تتحول إلى مكون في ثقافة المجموعة التي شهدتها أو تستقر كمعلومة تخزنها وتتناقلها الذاكرات.ولذلك فإن مفهوم الحوادث غير الجديرة بالاستدعاء يخبئ في تلافيف الدماغ نية مسبقة في إعطاء مساحة لحادثة دون أخرى، ويؤدي إلى خلل في مفهوم الحياد الذي تحدث عنه المؤلف في مقدمته، وهذا سيفسح في المجال للجالسين على الضفة الأخرى من عامة ومتعلمين، ضحايا وجلادين، خطباء ومؤرخين، في إعادة إنتاجها.

أسلوب الانتقاء رافق ذكريات السعيد بجزئيها، حسب طبعة مكتبة الآسرة.ففي الفصل الأول يسوق المؤلف كرنفالا من الحوادث المتوعة والممتعة التي لا رابط بينها سوى طفولته، وكأنها لوحة خلفية لموضوع سيأتي.وهذا الانتقاء لم يستطع حجب حركة الشارع المصري المشحونة بالقديم والجديد، وتصادفنا رموز وحوادث تحتضن كثير من المعلومات والمواقف والمهن بداية القرن الماضي، كمهنة (الطحن) التي تميز عائلة المؤلف عن غيرها من العائلات، والتي سيورثها الابن البكر.وهنالك (عزرا دويك) الحلواني اليهودي المشهور بصنع الحلاوة القولية والسمسمية وكيف يقسمها ويلفها بمهارة فائقة ومن ثم يوزعها في المدينة باسم الصانع الماهر"عزرا دويك" ولكن دكان الحلويات هذا يغلق في المناسبات الوطنية والسياسية لا حبا أو تضامنا ولكن خوفا من العامة التي تعتبره تجسيدا للعدو الصهيوني، وتجنبا للحجارة التي تنطلق نحوه صحبة شعارات وهتافات أشد إفزاعا.وهذا لا يمنع هذه التيارات السياسية من العودة في اليوم الثاني لتأكل من يديه طيب الحلاوة.ولكننا لا نجد وصفا كافيا لتفاصيل الطفولة.وبسبب انشغال السعيد بأحوال المجتمع نجده يتوقف عند تلك التي سبقت ولادته أكثر من تلك التي عاشها في طفولته.الحادثة المنتقاة عنده تتضمن، على الرغم من انقطاعها عن السلسلة، فهرسا بمفردات الحراك الاجتماعي والسياسي ومحملة بضلال أزمنة ابتعدت تاركة أثرا في المعيش.نشهد في الحوادث حياة الطلبة ونوعية والمدارس، الموزاييك الديني والاجتماعي وسط الدعوات إلى الوحدة واحترام الآخر.وفي واحدة من تلك الحوادث المنفصلة يضئ المؤلف وبسرعة طبيعة الإسلام السياسي في بدايات القرن العشرين وقدرته على تجييش العامة من الفلاحين الفقراء بمناسبة زيارة قائد الأخوان المسلمين (حسن البنا) إلى مدينة المنصورة(ص٣٤).وفي حادثة ثانية منفصلة هي الأخرى، في الصفحة المقابلة، يشير المؤلف بالأسماء إلى بدايات انتشار الأفكار الشيوعية بين عمال المنصورة

ومثقفيها وفلاحيها (ص٣٥).وبسبب الانتقاء الصارم فإننا في الحادثتين المتجاورتين على الأرض وفي الكتاب، لا نلمس العلاقات الداخلية المترابطة في النسيج الاجتماعي لمدينة صغيرة كالمنصورة،وكأن الحوادث منفصلة ومتباعدة كالأفكار. الحادثة ليست نقية بالمطلق.فلا الأولى دينية خالصة ولا الثانية سياسية مصفاة. وكلاهما مشبع بعناصر اجتماعية وثقافية وبيئية متشابهة توشي بأن الدين على الدوام كان في علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالسياسة.هنالك بعض الحوادث يتداخل فيها السياسي بالاجتماعي يوضح فيها المؤلف طبيعة المواطن المصري البسيط،ونقصد هنا حادثة الاعتقال الأولى بتهمة الشيوعية عندما كان فيها البوليس متعاطفا مع المعتقلين وجديدا على مثل هذه الحوادث "لأن رجال البوليس لم يكونوا قد تعلموا بعد فن التعامل في قضايا كهذه،فقد جرى ترصيصنا إلى جدار بعضنا إلى جوار بعض في ردهة الدور الثاني "٦ وبساطة المصري تجاوزت البوليس و وصلت إلى رئيس النيابة الأكثر ارتباكا من الجميع فهو لا يعرف شيئا عن التهمة ولا أركان توافرها ولا الأدلة ولا كيف يسأل المتهمين.وهو ما ليس له علاقة بالواقع المصري اليوم.

لقد روى السعيد تجارب اجتماعية ونضالية متنوعة /السجن.العمل السري، الطباعة،المنفى/ محاولا تجميع الحوادث المرتبطة بطبيعة التجربة وليس بالضرورة أن تكون مترابطة أو متسلسلة على أرض الواقع من الأسفل إلى الأعلى،وهو ما ينسجم مع جنس الذكريات أكثر من أي نوع آخر.كما نرى ذلك مع الحوادث التي جرت أثناء عمله في حركة السلام العالمية، وتجربة المطبعة السرية التي تضم الكثير من الحوادث المثيرة للقلق والتي تكشف هي الأخرى عن بساطة المصريين وفضولهم الذي كان يهدد حياة الطالب المختبئ،والذي أصبح فيما بعد مادة خام لروايته الممتعة (السكن في الأدوار العليا).

أسلوب الانتقاء الذي طبع الذكريات وأدى إلى ضعف علاقة الحادثة

بصاحباتها على أرض الواقع - ترابطا وتسلسلا - لم يضعف الترابط الفكري بين الحوادث لإيصال المحتوى الخبري للذكريات، أو على الأقل لم يشعر القارئ المنحاز بذلك.فعندما يتعلق الأمر بالموقف والانحياز السياسيين فإن الذاكرة المشحونة بالأمنيات والمعاناة تبعثر الحوادث وتعيد ترتيبها أفكارا منسجمة لتعبر عن شريحة معينة.ولكن السؤال هل أدى أسلوب الانتقاء إلى تقوية الحادثة المنتقاة، أو أسهم في توضيح عناصرها الداخلية؟.

باعتبارها شكلا للحراك الاجتماعي فإن الحادثة التي تقع بين حادثتين ستكون مادة خام للأساليب والأفكار والتحليلات التي تعنى بالصراعات الاجتماعية والسياسية.وانتقاء الحوادث من بين الأساليب التي لا تأخذ بالحسبان تلك التي لا تخدم الأغراض.فالوظيفة المضمونية التي أوصلت المؤلف إلى انتقاء الحوادث خولته تجميعها أو تفريقها، قطعها أو ربطها بجاراتها خارج حدود الزمان والمكان وبما يخدم أغراضه أولا.وهنالك حوادث غير مترابطة وأسماء وكتب ومواقف تجمعت لتوصيل فكرة معينة، من مثل تجميعه للحجارة المتبقية من قبر جده الوطني القديم، وبعد ذلك حيرته في إخفاء الكتاب الصغير (لينين... رسائل إلى الشباب) على الرغم من وسع البيت، ومن ثم حيرته وتردده في اختيار أسم حركي ،سري، يتسمى به داخل التنظيم.وهذه الحوادث المتناثرة على أرض الواقع تراكمت في ذاكرة السعيد لتؤسس إلى فكرة انحيازه السياسي منذ الصغر ومن ثم تعلقه بالأفكار الاشتراكية.بالطبع هذه الحوادث الصغيرة عندما وقعت لم تدخل ذاكرة فارغة بل هنالك حوادث وأفكار وأمنيات ومعاناة سبقت ذلك وانتظمت في ذاكرة الراوي ستؤثر في القادم الجديد حين يأخذ مكانه في سلسلة التراكم.وهذه (الماقبليات)التي تؤثر في الحادثة ستنتج كذلك وعي ذاكرة قصدية تميل بدورها إلى الانتقاء .

أحيانا نجد الانتقاء يجمع الحوادث لتصب في موضوع واحد ليس لأنها مترابطة أو متزامنة ولكنها المهنة (الصحافة) أو المكان (السجن) الذي يحتضن

الحوادث ويرتبها في موضوع واحد، أو هكذا يرتبها عقل القارئ في تحليله للحوادث ينهج المؤلف أسلوب البحث في الأسباب والنتائج والظروف التي أدت إلى ذلك، وهو ما يتبعه كثير من مؤلفي المذكرات.إلا إننا نصادف أحيانا نتائج منتقاة فقط لحوادث مهمة مقطوعة الجذور والأسباب، وهو ما يذكرنا بتداخل أنواع الكتابة السيرذاتية.وفي الحالين نجد السعيد يتعامل مع تلك الحوادث التي تنسجم وأفكاره أو تدعم تحليلاته، وتعامل معها على هذا الأساس وليست كما هي في الواقع وبين صاحباتها من الحوادث.فزيارة الرئيس جمال عبد الناصر للحرم الجامعي بصحبة خالد محي الدين وسير مظاهرة عارمة للإخوان المسلمين دعما له، ومن ثم تحرك الطلاب الشيوعيين بتظاهرة دعما لخالد محي الدين، في فترة مضطربة من حياة الشعب المصري وصراعا حادا في هرم الدولة.هذه الحادثة على الرغم من وضوح عناصرها إلا أنها ضعيفة التفاصيل بسبب تركيز المؤلف على النتائج التي أدت إليها الحادثة من مثل دعم موقف خالد محي الدين السياسي، واثبات قوة التنظيم واستمرا ر نشاطه على الرغم من وجود كوادره في السجن؛أي إن المؤلف يتوقف عند الحادثة " عادية أو مهمة " للكشف عن أفكاره وقناعاته السياسية وليس العكس.وكأن لديه قناعات مسبقة وأفكارا جاهزة تدفعه للبحث عن حوادث تناسبها وتدعمها.قد يريد المؤلف بذلك إيصال رسالة إلى القارئ عن عبد الناصر؟وقد وصلت، ولكن الخلل أصاب الحادثة لا الغرض.

إن رواية زيارة عبد الناصر الحرم الجامعي بأسلوب تحويل الحوادث إلى أفكار تمثل شريحة معينة في المجتمع، سيؤدي لا محالة إلى إعادة إنتاجها من زوايا مختلفة خصوصا وإن هنالك شرائح وقوى سياسية أخرى شاركت في صنع الحادثة، وأخرى شاهدتها أو سمعت بتفاصيلها.فمثل هكذا حوادث وقعت في مكان عام وأبطالها مشهورون ستكون ملكا للجميع، السياسي والطالب والصحفي، وسيطولها الكثير من المبالغة والتشويه.وقد تكون رواية السعيد لها

هنا ردا على رواة آخرين ومواقف أخرى لم يتطلب تفاصيل كثيرة.وبكلام آخر فإن التناقض الذي سيصيب الحادثة بعد وقوعها لا يعني خللا في بنيتها بقدر ما يعكس تنوعا في الأغراض وأدوات التوصيل.فالحادثة تكتمل حال وقوعها ولا يمكن التغيير في تفاصيلها أو قطع علاقتها مع ما سبقها أو أعقبها من الحوادث،دون أن يؤدي ذلك إلى تشويه حقيقة وقوع الأمر " ما سأرويه هو رؤيتي الشخصية للحدث ... في حدود ما رأيت وعلمت وسمعت وفهمت،أو حتى في حدود ما توهمت أنا أنه حقيقة ... وربما يكون ذلك كله ناقصا ... أو غير محكم،أو حتى غير صحيح "٧ .

إن اهتمامات السعيد بالأدب والتاريخ والسياسة وقفت بوضوح خلف روايته للحوادث،وهما أو حقيقة،عزز ذلك الانتقاء وغياب الترابط الذي أعطى لكل حادثة مناخا مختلفا " لقد عانيت في حياتي ثلاثة أنواع من الكتابة: كتابة التاريخ،والكتابة السياسية ـ ومحاولتين يتيمتين لكتابة الرواية "٨.فمرة نجد السياسة وقد هيمنت على الذكريات بسجونها ومنافيها،وأخرى يتبدى الأدب كملح الطعام على حادثة صغيرة وعابرة إلا أنها تشكل حلقة مهمة في تكوين شخصية الطفل كتلك التي حدثت في طابور الصباح عندما مر القس على الأجساد البريئة مرددا جملته المقدسة (أنت خاطئ .. وأنت خاطئ) حتى أجابه سعيد الطفل في صباح مشمس بـ(لا) لينقطع بعدها ذلك التقليد.وثالثة نجد المنهج التاريخي لا يخلي مكانه بسهولة في البحث عن الوقائع الجديرة بالمعرفة، نتلمس ذلك في تكرار مفردات الحياد والموضوعية وبعد النظر في التعامل مع الوقائع التي تستدعي موقفا مسؤولا كما في واقعة حل تنظيم الحزب الشيوعي المصري عندما طلب من قادته وكوادره البت في ذلك والانضمام إلى التنظيم الطليعي ولم يذهب سعيد إلى ذلك الاجتماع ولكنه يستدرك "ولكي أكون منصفا فأنا لا أزعم أنني كنت ضد الحل. بل كان الحل يتجسد أمام عيني كحالة تفرض نفسها.ولكنني ـ ربما بحس من دراسة

التاريخ دراسة متأنية - أردت أن لا يذكر أسمي ضمن من اتخذوا القرار"[9].

إن الانتقاء الصارم للحوادث القريبة من تطلعات المؤلف انحسرت في بضعة مفردات، قليلة ومحتدمة، توزعت السجن والحزب والصحافة وحركة السلام العالمية.وهذه المفردات على الرغم من حيويتها ارتبطت بالمواقف والنصوص والأفكار الجاهزة، أدت إلى التعامل مع الحادثة المنتقاة كسبب ونتيجة في الحراك اليومي من دون الوقوف عند عناصرها الداخلية في الزمان والمكان والأفراد.وهذا التعامل هو الخطوة الأولى باتجاه لي عنق الحادثة والاستحواذ عليها على الرغم من إنكار المؤلف ذلك على نفسه وعلى الآخر.

إن العبور السريع على مرحلة الطفولة وتحول المؤلف إلى المفيد من تجربته، جاء بسبب دخول الصبي المبكر عالم السياسة والسجن وهو في السادسة عشرة من عمره.هذه التجربة ميزته لاحقا عن غيره من السياسيين في عدم تزيينه صورة السجن والابتعاد عن المبالغة بدور السجن في صناعة الرجال والأفكار.المؤلف ما أن يأتي على ذكره حتى يتلمس القارئ الظلم والاستلاب والعزلة في مفرداته.ففترات السجن المبكرة والطويلة التي عاشها المؤلف تركت إحساسا بالانقطاع لم يستطع التخلص منه طيلة حياته. وكانت رؤية شرطي بالشارع المصري أو برلين أو فلندة قادرة على استحضار خمسة أعوام من العزلة والأكل الرديء والفراش الخشن.لقد أورثه السجن عادات وأفكار صاحبته طويلا في حياته من بينها حفظه مسودة كتاباته في رأسه بعد أن منعت عنهم الأوراق والأقلام.وعادة وقوفه عند العابر واليومي والتفاصيل الصغيرة التي أكتسبها بعد كل خروج من السجن.نجده يتوقف عند إيقاع الحياة الذي أسرع قليلا وروّاد المقهى الذين تغيرت أسمائهم وملابسهم وتجمع رهط منهم حول المذياع لسماع المعلق وهو يصرخ عن مجريات كرة القدم بعد أن كان الصراخ حكرا وتأييدا لجمال عبد الناصر، واختفى صوت المؤذن الشجي المتعبد والروحاني ليحل محله الميكرفون وصراخه المدوي، ولكن المتبقي الوحيد في

كل ذلك هو قبضة الدولة والاعتقالات والمطاردات البوليسية المستمرة وكأن الدولة لم توجد لغير ذلك. إن واقع دوام الظلم زود السعيد بعادة احتمال العودة إلى هناك.وكأنه خرج من السجن إلا أنه لم يستطع إخراج السجن من داخله.ونجد خوفا عند المؤلف قد ورثه عن السجون والتعذيب والنضال السري تحول هو الآخر إلى عادة جعلته يتحدث أينما ذهب عن أدوات التنصت المنتشرة في المؤسسات الرسمية للبلد ، ويتحدث أينما سافر عن (المكتوبجي) الذي سينقل الأخبار إلى أجهزة الأمن.إن إدمان عادة الخوف تحولت إلى كائن يأكل ويشرب وينام مع المؤلف.

حوادث السجن لا تنسى إذ لا يمكن نسيانها ولا يمكن تزيينها حتى بأرق المفردات. فالعالم السفلي لا يتحمل الفرح وسرعان ما يتحول كل شيء فيه إلى صراعات وعذابات في عزلة لا تنتهي.وحتى سجن(ليمان طرة)الرومانسي بمسائه الصحراوي، شروق الشمس وغروبها ، غياب الجدران الإسمنتية وضعف الرقابة المشددة ، يكاد يكون نقطة سوداء في حياة المؤلف وحياة كثير من المصريين.إنهم في السجن يصنعون حوادثهم ويتوهمون أنهم قد نسوها ولكن سرعان ما تستعيدها العزلة لتتحول مناسبة للضحك والسهر.فهم معزولون في الصحراء التي لا تأخذ أو تجيب خبرا ، ويتدربون على سلاح من خشب عند سماعهم بالعدوان الثلاثي على مصر ، ويتنادون للاجتماع عندما يسرب لهم حراس السجن خبرا عن زيارة وزير أمريكي أو روسي إلى القاهرة.وهذه حوادث معزولة لحظة وقوعها بسبب قوة الدولة والقانون وليس لخلل في بنيتها.فهي لا تعيش حياتها الطبيعية مع جاراتها من الحوادث إلا عبر تسريب ورقة صغيرة أو أيام زيارة أمهات السجناء أو فترة إجازة شرطي يعمل حارسا في السجن.وبغير ذلك ستبقى معزولة غير قادرة على الترابط مع أو التأثير بغيرها من الحوادث ، لتتحول مع الأيام إلى خامة للذاكرة والأدب.

إن الانقطاع الذي يصنعه السجن يؤدي إلى حوادث منعزلة كما مر ، نمطية

ومتكررة من مثل الأكل والشرب والنوم والعلاقات التي لا يجد الراوي كبير فائدة من تناولها، وبالتالي تكون الصفة الغالب على حوادث السجن أنها قليلة وضعيفة العناصر.فالرتابة والتكرار نتلمسها في عنصر المكان الذي لا يتغير لسنوات والمفتقر لأبسط أنواع الأثاث.وصناع الحادثة هم أنفسهم أبطالها ورواتها ونادرا ما يتغيرون، وتزداد ملامحهم وضوحا بفعل المعاناة والتكرار.والزمان ثقيل وبطيء وكأنه في حالة توقف. إن قلة الحوادث في السجن ومنهج الراوي في الانتقاء الصارم المؤدي كذلك إلى قلة الحوادث دفعا بالمؤلف إلى الاسترسال طويلا في تلك التي يود هو إيصالها إلى حد أنه أفرد فصلا كاملا لرواية حادثة واحدة عندما زارهم فيها مدير السجون ومارس ضدهم إذلالا عربيا خالصا فيه كل أنواع السلطة والاحتقار والعنف وإلغاء الآخر، حيث كان الحوار من لونين فقط ابيض وأسود (أنت مع جمال عبد الناصر أم ضده ؟، أنت مع الاتحاد السوفيتي أم ضده ؟) لينتهي ذلك الحوار كالعادة بالضرب والركل والسجن الانفرادي ومضاعفة المضايقات على السجناء الذين هم أصل في ضائقة.إن هذه اللوحة التي يرسمها سعيد عن سجن (ليمان طره) بمصر ليست بعيدة بمناخاتها عن تلك التي رسمها الشيوعي العراقي زكي خيري في كتابه (مذكرات شيوعي عراقي مخضرم) التي روى فيها ظروفه في سجن (نقرة السلمان). وسجن نقرة السلمان هذا مثل صاحبه (لقمان طرة) قد شيد في الصحراء المترامية التي لا تساعد في وصول الأخبار أو بنجاة الفارين.

في (مجرد ذكريات) لم يتناول السعيد الحوادث التي لم تأت بفائدة واكتفى في الوقوف عند تلك القادرة على إيصال معلومة الكتاب الأساسية وهي تجربته السياسية مع حدتو - الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني - ولذلك لا يمكننا الحديث عن كمية الصدق والأمانة والحياد في روايته للحوادث من دون العودة إلى مجايليه ووثائق الحزب الذي انتمى إليه وأرشيف مؤسسات الدولة.فالسياسي بطبعه لا يستطيع التعامل مع الحادثة كما هي بعيدا عن

مواقفه وأغراضه، أو منفصلة عن أساليبه في التحليل والتأويل. صفحات الذكريات تشهد أن المؤلف لم يبحث في الحادثة وعناصرها بقدر بحثه عن تجربته السياسية فيها، أدى ذلك إلى تحويل الحوادث إلى مواقف سياسية وتحليلات وتأويلات أضعفت عناصرها الداخلية في المكان والزمان والأبطال.ومع أننا نشهد انسجاما وتلقائية ومتعة في رواية الذكريات إلا أن ذلك تم بأدوات سياسية وسردية بعيدا عن حقيقة ترابط الحوادث على الأرض.فهو انتقى الحوادث بصرامة بعد أن كانت قد وقعت في أمكنة وأزمنة وظروف مختلفة، وأغلب صناعها مختلفون وإن انتموا إلى حزب أو تجربة.

إن الحوادث الواقعية والمهمة والمعروفة كالتي رواها رفعت السعيد لا يمكن معها تناول عنصر الزمان دونما وحدات تحدده /اليوم والشهر والسنة/.ولكن أسلوب الانتقاء لحوادث غير مترابطة أو متسلسلة أنتج تعاملا مع الزمان ينسجم وذلك.زمان لا ينتظم الحوادث ولا نشعر بكثافته على الرغم من قسوة الحوادث وأهميتها.ونحن هنا نتكلم عن زمان وقوع الأمر لا زمان كتابته.فإن الأخير كان حاضرا ومستندا إلى خبرة الروائي والمؤرخ اللتان يتمتع فيهما السعيد " كيف يمكن للوقت أن يتململ؟ وكيف يمكن لك أن تدفعه كي يتحرك، فيل ضخم، ممل وبطيء، لا أمل في تحريك عقاربه " ١٠، " وتمضي الدقائق ببطء لا ينقطع، وتظلم الدنيا مبكرا "١١.تجربة السجن أضعفت أحساس المؤلف بالزمن وحولته من وحدات تمثله إلى مفردات حسية وصور أدبية ممتعة.ففي السجن كل شيء يسير ببطء، والزمن شبه متوقف في زنزانة انفرادية يتساوى في عزلتها الليل والنهار، يصبح فيها ضوء الشمس أو الهواء النقي آخر أمنيات السجين.الزمن ضعيف التأثير في (مجرد ذكريات) ولا نشعر بوجوده إلا مع الوقائع المهمة والكبيرة من مثل العدوان الثلاثي على مصر أو تاريخ الدخول والخروج من السجن. وأحيانا نشعر بالزمن عندما يريد السعيد توصيل فكرة أو موقفا كما في الفصل الثامن (الرفيق .. رئيس النيابة

العسكرية) عندما روى فيه المؤلف حوادث مشوقة عن تلك الخلية الحزبية المتناقضة التي جل أعضائها من كبار السن والمسؤولين الحكوميين، إلا أنه في الفصل التاسع (مشاغبون في غمرة النضال) عاد المؤلف إلى حوادث سبقت وأعقبت زمان الخلية الحزبية المتناقضة لغرض الحديث عن الانقسامات الحزبية الداخلية وتهريب الرفاق من السجن.وهذا التنقل بين الأزمنة لتجميع الحوادث أو تفريقها منسجم وأسلوب السعيد في تحويل الحوادث إلى أفكار ومواقف.فليست من أولويات المؤلف تحديد الزمان في رواية الحوادث ونادرا ما يتذكره كما نلمس ذلك في تنقلاته بين روسيا وكوبا وألمانيا حيث يستدرك الزمان مؤخرا ويمر عليه سريعا " نسيت أن أقول أننا كنا في يوليو عام ١٩٦٨ "١٢ .

إن ضعف تحديدات الزمان دفعنا للبحث والتأمل في خطوط المكان وأثاثه وأشيائه الصغيرة في رحلة عمر توزعت الخوف والسجن والمنفى وعدم الاستقرار.ومن الصفحة الأولى تستهل الذكريات بدايتها بالمكان (وكانت المدينة جميلة) ثم ننسل مع السعيد إلى الشوارع والأحياء والدكاكين وهو يملؤها بالبشر والحيوانات والأزياء والأعراس والمناسبات الدينية وفتوات الحي الجالسين بوداعة عند باب المقهى.استهلال عام وحوادث عامة موزعة على الخارطة الاجتماعية التي تتميز فيها مدينة المنصورة في النصف الأول من القرن العشرين.وهذا الاستهلال الذي يرسم حياة المصريين ويذكرنا بخبرة الروائي رفعت السعيد، لم يستمر طويلا في رواية الحوادث وارتبط تراجعه باقتراب الصبي من جدية التجربة ومعاناتها في السجن.فهذا الأخير من الأمكنة الموحشة والمعادية للطبيعة الإنسانية ستلقي بظلالها على تجربة السعيد برمتها.السجن يدفع نزلائه دفعا للتعايش مع عزلته ورتابته وفراغه من الأثاث، ويحفر خطوطه بقسوة في ذاكرتهم،وحين يريدون تذكره يملئون فراغه بالكلام والمعاناة لا غير.فسجن مثل (ليمان طره) عبارة عن خيمة بالصحراء ماذا يمكن أن يقدم من مفردات مكانية لإنسان أجبر على الجلوس هناك عدة أعوام،ومع ذلك فهم

يلوذون بتلك الخيام من البرد والحر والخلافات السياسية "عشنا وتعايشنا مع المكان..وليس مع الجيران،فجيراننا كانوا من سجناء جماعة الأخوان. ومنذ البداية قرروا أن الصحراء أقرب إليهم منا "١٣.لقد وزع السعيد فصول الجزء الثاني على عدد رحلاته وأحيانا أطلق عليها أسماء الأمكنة التي زارها /هلسنكيات،بغداديات،يمنيات، فلسطينيات بيروتية/ وهذا التقسيم حتم على المؤلف حصر الحوادث والأفكار المرتبطة بهذا المكان دون غيره.وهو تقسيما لا يؤدي بالضرورة إلى التسلسل الزمني أو الترابط بين الحوادث،وحتى أبطاله اللذين يلتقي فهم بالمنفى في تغير مستمر.

الحادثة لابد لها من زمان ومكان وأبطال وظروف تحدد موقعها ودورها في الحراك الاجتماعي.ولجوء الراوي إلى تلك العناصر يحدد،أكثر من أي شيء آخر،خصوصية الزاوية التي يقف عندها كي يتلو حكايته.ومع أنه لا يمكن التلاعب بتلك العناصر دون أن يترك أثرا في بنيتها كما مر،إلا أن ثقافة الراوي ومرجعيته وأغراضه قد تدفع إلى إبراز عنصر دون غيره كما نجده في دور الأفراد كصناع وأبطال.فطابع النضال السياسي لا يمكن الحديث عنه بعيدا عن الجماهير ومصالحها،ومنذ البداية تصطبغ الذكريات بكثافة الأسماء السرية والعلنية تتسجم والوضع السياسي والاجتماعي والنفسي لهم في السجن والجامعة والخلية الحزبية.أبطال يكنون بأسمائهم وألقابهم ومناطق سكناهم وكأن لكل اسم حكاية.منهم أحياء أو أموات وآخرون مشهورون في دنيا السياسة والثقافة والفكر، أعطى الذكريات طابعا حيويا ومتدفقا من جهة،ومن أخرى أعطى القارئ الفرصة في العودة إلى تلك الأسماء لمقارنة الروايات والحوادث.مع إن الذكريات تركز على دور الآخرين في حراكهم الاجتماعي أكثر من تركيزها على(أنا) المؤلف إلا أن البدايات التي تروي الطفولة لم تستطع ذلك.أستخدم فيها السعيد ضمائر المتكلم والمخاطب "طالب في السنة التوجيهية في الثامنة عشرة من عمره... هو أنا"(ص٨٨)وتحدث عن

مدينة المنصورة بلسان أبن الطحان رفعت السعيد. السعيد غالبا ما يورد اسمه في نهاية قائمة الأسماء تواضعا أو تذليلا لصوت الأنا، إلا أنه يروي الحوادث بما يضمن إبراز دوره وأفكاره هو أولا " ولكن ها أنا أقع فيما حاولت أن أتباعد عنه، وها أنا أضطر للكتابة عن نفسي، فماذا افعل بها..بالقارئ... وبالكتابة ذاتها "١٤ وبما أن الذكريات جاءت كنوع من رد الفعل غير المعلن على تشوهات لحوادث وقعت كان السعيد فاعلا فيها فإن دور الراوي والبطل لا يمكن إلغائه نهائيا.

إن تجربة المؤلف ارتبطت بعد انتقاله من الريف إلى المدينة واشتغاله في صحيفة أخبار اليوم، بأسماء عالية الرنين لرؤساء دول ووزارات ومؤسسات إعلامية ومنظمات دولية وقادة أحزاب في داخل مصر وخارجها، صاحب ذلك الكثير من المواقف المحرجة والحوادث الخطرة التي كانت تهدد على الدوام مستقبل السعيد وحياته.إن عمل المؤلف في صحيفة أخبار اليوم بحد ذاته يعد حادثة فارقة في حياة السعيد وحياة آخرين في تاريخ الصحافة المصرية يومذاك، فالجريدة كانت معقلا للرجعية المصرية عبر سنين من صراع الأفكار والمصالح السياسية وهاهي تمتلئ بعشرات السياسيين اليساريين القادمين من السجون لإشغال مراكز ومواقع كانت في اتجاه آخر تسير.إن من أعقد الحوادث في حياة السعيد الصحفية استقالة "خالد محي الدين" التي حملها المؤلف بنفسه إلى الرئيس جمال عبد الناصر ليتسلم مكانه (محمد حسنين هيكل).عقدة الحادثة تتجلى في الصراعات غير المعلنة بين الأقوياء والتي غالبا ما يذهب ضحيتها الضعفاء أو كما يقول المؤلف"الأفيال تتصارع والعشب يتكسر" والأقوياء في صراعهم يتركون لتابعيهم بركة من النفاق والأحقاد والإخلاص يسبحون فيها في أخطر مهنة عرفتها الدول المتمترسة خلف الأحزاب ألا وهي الصحافة.حتى لقائه المتأخر بنائب الرئيس "أنور السادات" والخلاف الذي نشب بينهما حول صيغة بطاقة الدعوة لمهرجان التضامن مع الشعوب

العربية، وهي حادثة مهمة وخطرة أربكت صيغة البلاغ الختامي للمؤتمر عندما يتم الاعتراض على قرار الأمم المتحدة "٢٢٤" من أحدى الدول العربية وسفيرها الموجود بالقاهرة. ومع أننا لا نعرف من هو السفير ولا دولته إلا أن المؤلف كان مشغولا بتوصيل فكرة عن أسلوب الدولة المصرية في تعاملها مع المهرجانات الدولية والمؤتمرات الصحفية.وهذا سبق وأن مارسه المؤلف مع حوادث رسمية تعمد الدولة إلى تسفيه مضمونها كما حدث مع الضيف الهندي(كريشنا مينون) صديق جمال عبد الناصر عندما أراد أن يعقد مؤتمرا صحافيا قبل سفره بساعة واحدة أي في الخامسة صباحا ولم يجد المعنيون صحافيا واحدا يعمل في هذا الوقت المبكر، فجرى تجميع العاملين بالمطار ورجال الحماية وبعض الموظفين وإعطائهم أقلام وأوراق وجعلهم يستمعون إلى الهندي المسافر وكأنهم منشغلين بما يقول.ولكن الحوادث التي ارتبطت بتلك الأسماء، رغم أهميتها، جاءت غير مترابطة وتشهد عناصرها الداخلية ضعفا واضحا لتنتهي إلى مواقف وأفكار وشهادات سياسية على مرحلة مهمة من تاريخ مصر والعالم في النصف الثاني من القرن العشرين.أحيانا يفرد المؤلف فصولا /بصمات باقية، مثيرون للدهشة/ للوقوف عند قامات كبيرة يحاول إضاءتها وإنصافها بعد رحيلها كالصحفي حسين فهمي وعبد الرحمن الخميسي والفلسطيني عبد الله الحوراني.بل إن المؤلف أنهي ذكرياته بفصل عن رجالات مصر - وخارج مصر - الذين أثروا بحياته وتجربته من مثل يوسف صديق والسوري فاروج سلاطيان وخالد محي الدين وكلهم ترك أثرا على رمال ثابتة ظنها الآخرون متحركة.

إذا كان الجزء الأول من الذكريات انشغل بالسجن والجزب والصحافة وقد تجسدت في حوادث يومية نشطة أبطالها فلاحون وعمال في بلد الغالبية فيه أميون لا يعرفون الكهرباء.فإن الجزء الثاني أستهله المؤلف بمشاريعه الثقافية ورحلاته التي لا تنتهي بين الشعوب والقارات كوجه بارز في حركة السلام

العالمية يتعرف فيها القارئ على برود الفنلنديين وحرارة الكوبيين وثوريتهم وفقر البكلاديشيين اللذين يعيشون ويتناسلون على الأرصفة.على العكس من أدب الرحلات الضاج بحياة الشعوب وتقاليدها وخصوصياتها فإن السعيد امتلأت رحلاته بالصراعات والبيانات السياسية والتقارير التحليلية، والتي نعرف عن زمانها ومكانها غير عموميات العواصم والثلج.وإن صادف سوقا أو ملمحا فإن المؤلف سرعان ما يربطه بالمصادفات التي تعزز أفكاره ورؤيته كما حدث مع اللبناني الماروني الذي يبيع المصاحف المزورة لمسلمي غينيا بيساو..ولكن هذه الرحلات ساعدته على معرفة اللغات وحضارات الشعوب واللقاء بكثير من الأسماء اللامعة في ألمانيا وفنلندة والعراق ولبنان وغيرها. وهنالك حادثات عابرات يرويها السعيد بسطور قليلة أثناء تجواله، إلا أنها عميقة وتعبر عن أزمة وعي متأصلة في ثقافتنا السياسية كما في لقائه السريع مع (توفيق طوبي) الشيوعي البارز في الحزب الشيوعي الإسرائيلي والذي أدى إلى خلافات بين الوفود الرسمية العربية التي تحتقر الفلسطينيين الذين يحملون جواز سفر إسرائيلي من عرب الثماني وأربعين.وهي تجربة عاشها السعيد وعشناها نحن من بعده ربع قرن وقد يعيشها أبنائنا من بعدنا.

في (مجرد ذكريات) لم يعمد المؤلف إلى دعم أرائه وحوادثه بالوثائق والمستندات التي يملكها، وهو المؤرخ العارف قيمة ذلك، بل لجأ إلى تجربته كإنسان يملك دورا في الحركة السياسية المصرية ويروي من زاويته القابلة للتوسع والانحسار، للخطأ والصواب " فما سأرويه هو رؤيتي الشخصية للحدث..في حدود ما رأيت وعلمت وسمعت وفهمت، أو حتى في حدود ما توهمت أن أنه حقيقة...وربما يكون ذلك كله ناقصا...أو غير محكم، أو حتى غير صحيح.ولكن ما أعد به هو أنني أروي ما كان...فعلا...دون تحيز أو إضافة أو تزوير "١٥.إن تحكم السعيد في حوادثه برر له وسهل عليه إخفاء الأسماء أو التفاصيل التي يريد، وهو ما أثر سلبا على حقيقة وقوع الأمر وأثار الأسئلة من

جديد حول الأمانة والصدق والحياد في الذكريات " وأود أن أقرر، وأن ألح، وأن أكرر، أنني لا أريد إيذاء أحد، والوشاية بأحد همسا في إذن التاريخ، أو علنا على الورق"١٦ وهذا الحرص على الآخرين - رفاق أو أعداء - لا يحمي الحادثة من التشوهات التي تطولها نتيجة ذلك، وسيؤدي إلى إعادة إنتاجها من الآخرين. الفضائح لوحدها ليس دليلا على الصدق والأمانة ولكن غياب الأسماء والأخطاء التي يمارسها صناع الحادثة سيضعف عنصرا مهما في وحدة الحادثة.الحادثة لها ذاتها وذاكرتها وخصوصيتها قبل أن تكون مناسبة للتبرئة والتجريم.

إن تجربة النضال السري والمطاردات أورثت السعيد من بين ما أورثته، عادة حفظ الأسرار، انسحب ذلك من الحزب على حياة المؤلف العائلية حيث تشهد الذكريات غيابا لافتا للتفاصيل في حياة العائلة باستثناء بعض المصادفات عند خروجه من السجن وطلبه الغريب في استئجار شقة سكنية قرب مركز الشرطة ليجد هناك الأم والأخوات الثلاث (وتقبلت الأسرة هذا المطلب الغريب مثلما تقبلت أشياء وأوضاع غريبة أخرى) ولكن ما هي هذه الأوضاع الغريبة التي واجهتها العائلة وكيف ومن تقبلها؟ لا نعرف شيئا.لقد فرغت الذكريات من حوادث الجنس اللطيف، ونرى المؤلف حين يصل المرأة ككائن جميل، متناقض وعاطفي، فأنه لن يتوقف بأكثر من جملة أو سطر يتيم يرمز فيه إلى كثير من الدلالات السياسية والجنسية.وحتى (ليلى) التي كانت نزيلة في السجن المجاور فأن الذكريات - الجزء الأول - قد خلت من ذكرها، ويتعرف القارئ من بين السطور على أن المؤلف متزوج وقد اشترى فستانا لزوجته، ولكن من هي؟ من هم أولاده؟ كل ذلك تحول إلى ما يشبه أسراره الحزبية.

في الجزء الثاني عندما تتكرر رحلات السعيد وتزداد علاقاته وضيوفه نجد شخصية (ليلى) الزوجة قوية ومبدئية، عركتها الحياة وأنضجتها.فعند زيارة المسئول العراقي(البعثي) بيت السعيد لم تقم ليلى بواجب الضيافة ليذهب زوجها

يشتري الطعام جاهزا من أحد المطاعم والسبب هو أن ليلى لا تستطيع أن تطعم بعثيا عراقيا ملطخة يداه بدماء الشيوعيين العراقيين. ويتكرر ذلك الموقف في أحداث يناير عندما يأتي رجال الأمن لاعتقال السعيد من دون أذن رسمي ويرفض السعيد ذلك ويبقى رجال الأمن في البيت جالسين في انتظار أمر الاعتقال وعندما يطلب منها زوجها أن تعمل الشاي للجالسين، ترفض مرة أخرى.

بعد كل الذي قلناه نستطيع تحديد(مجرد ذكريات) للدكتور رفعت السعيد على أنها سرد متصل لحوادث منتقاة، مترابطة فكريا، تحقق فيها استعادة تجربة المجموع عبر الذات الفاعلة في صناعتها، وإضاءة الحوادث السرية التي رافقها الغموض، وإعادة إنتاج الحوادث العلنية التي ارتبطت بأغراض الرواة الآخرين ومواقعهم.

الهوامش

١ ـ د. رفعت السعيد ـ مجرد ذكريات ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ ـ القاهرة

٢ ـ د. محمد الباردي ـ عندما تتكلم السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ـ اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٥ ـ الفصل الثاني ـ ٢,٢

٣ ـ د. رفعت السعيد ـ مجرد ذكريات ـ ج١ . ص١١

٤ ـ المصدر نفسه ـ ص١٢

٥ ـ المصدر نفسه ـ ص ٧

٦ ـ المصدر نفسه ـ ص ٤٥

٧ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٢

٨ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٢

٩ ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٨٥

١٠ ـ المصدر نفسه ـ ج٢ . ص ٣١٢

١١ ـ المصدر نفسه ـ ج١ . ص ٢٢٨

١٢ ـ المصدر نفسه ـ ج٢ . ص ٤٦

١٣ ـ المصدر نفسه ـ ح١ . ص ١٧٩

١٤ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٣

١٥ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٢

١٦ ـ المصدر نفسه ـ ص ١١

إدوارد سعيد

حكاية المكان في ذاكرة الفلسطينيين

ما الذي أوصل الخطوات الصغيرات إلى خارج المكان؟ هل هو تنظيم المحبة الصارم للحفاظ على عقل الطفل نظيفا لينتج تغيرات قسرية في سلوكه وعاداته ومفرداته، أم هو ضعف الثقة بالنفس مصحوبا بكثرة العلل الجسدية المخجلة التي خلقت عنده الحزن الأكيد والخوف من الانقراض، أم هويته المركبة بسبب قدومه من الجهة الأخرى للنهر الصاخب والبدائي والذي أدى إلى توزعه بين أسمين ولغتين وثقافتين، أم بسبب رغبته الدائمة في أن يكون بمكان آخر وعدم رغبته في أن يكون سويا في غياب الكمال بعد ضياع كل شيء .. فلسطين، أم هي حفنة مفردات ملأت رأسه بعد أن عجز عن احتوائها المكان، أم هو القدر، أم هو على عجالة كل ذلك ؟

إن الخيوط الموصلة بين أشكال الكتابة السيرذاتية نجد الكثير من تعبيراتها الأدبية والتاريخية في(خارج المكان)١ لمؤلفه الراحل إدوارد سعيد، متأثرة بثقافته وخبراته الحياتية. وقد انعكست تلك التعبيرات على تناول العديد من المثقفين للكتاب على أنه سيرة ذاتية تارة وأخرى مذكرات وثالثة ترجمة.وهذا الترجرج ليس حكرا على الثقافة العربية فقط بل تعداه إلى الثقافات التي سبقتنا في الكتابة السيرذاتية والتي انشغلت بتعدد أشكالها وتداخل أنواعها واستمرار تأثرها بالمنجزات العلمية والثقافية.الكتابات الشخصية عموما /السير، المذكرات، الاعترافات، الذكريات، الرسائل، الشهادة / تشترك في اشتغالها على ماضي التجربة الذاتية وأهمية روايتها،

ولكل منها خصوصيته وأدواته التي لا يمكن على الدوام محوها أو خلطها "أحيانا يخلط القراء بين المذكرات والسيرة على أساس استخدام كل منهما للشخصية والأحداث المحيطة بها، فالمذكرات تركز أساسا على الشخصيات والأحداث في حين تلتزم شخصية الكاتب بالتسجيل والتوضيح لما يدور حولها، أما ما يدور داخلها فيظل في الظل ولذلك تبدو بعض المذكرات وكأنها تسجيل لأحداث تاريخية تصادف أن شهدها كاتبوها. أما السيرة الذاتية الحقيقية فعبارة عن سرد متماسك منطقي لحياة الكاتب مع التركيز على التأملات والانطباعات ذات الأبعاد المختلفة "٢. والواضح إن تأثر كتابات الأدب الشخصي بالمنجزات الثقافية والعلمية أعطاها بنية متحركة تسمح باستعارة أدوات الكتابة المتنوعة للتعبير عن التجربة.وإذا تذكرنا أن إدوارد سعيد كان قد بدء حياته الأكاديمية بكتاب عن السيرة الذاتية (جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية) سندرك أن الراحل لم يحفر في حقل بعيد أو جديد عليه من جهة، وأخرى ستدلنا الكتابة على تجربة المؤلف وثقافته في وقوفهما، أكثر من أي شيء آخر.خلف إعادة إنتاجه للحوادث بالأسلوب الذي وردت فيه ووقوفه عند تلك التي أشارت إلى التجربة عبر أهم محطاتها المتمثلة بالثلث الأول من حياته "الطفولة ومقتبل الشباب" رواها المؤلف في منحدر العد العكسي من رحلة الجسد بعد اكتشاف تسرب المرض القاتل إلى مصنع أفكاره وهو في قمة عطائه.

إن طبيعة الحوادث القليلة التي تناولها الراحل لا تقل أهمية عن أسلوبي التذكر والتوصيل اللذان أعتمدهما في بناء مذكراته.فعملية البحث المضني في الذاكرة الهرمة ورسائل الأصدقاء عن ما تبقى من تفاصيل الحادثة الغائبة والبعيدة غالبا ما ينتج كتابة تبدو فيها رواية الحوادث تأليفا أكثر منه استعادة، وهو ما نتلمسه في سرده للحوادث وتعامله مع عناصرها في الزمان والمكان والأشخاص والظروف التي أنتجتها.الكتابة التي تروي البدايات

وبسبب ما للطفولة من قدرة على الحرية والبحث والمغامرة نجد مناخ الحوادث يشي بالشكل الروائي ولا يتناقض مع وجود الميثاق السيرذاتي للكتاب وتطابق أسم المؤلف مع السارد.

بعد إن كان الراحل لا يطيق التفكير بماضيه قبل وقوفه على أبواب العقد السادس من عمره، تحولت فجأة الحوادث الماضية والمنسية إلى وسيلة للنوم ونسيان شبح الموت ليقف الأرق في النهاية خلف كتابته المذكرات على فترات متباعدة، لم يعتمد فيها على الحوادث الموثقة والمترابطة أو المتسلسلة زمنيا بل تحدث عن سيرته الذاتية في مرحلة عمرية محددة ووزعها على فصول عن البدايات العائلية والمدرسة والموسيقى والرياضة والأصدقاء والمنافي، بأسلوب شيق يجعل من الكتاب أقرب للسيرة الذاتية منه من أية كتابة أخرى.مع أن القارئ يصادف على امتداد الفصول الممتعة الشعر والموسيقى والفنون البصرية إلا أننا نجد الأسلوب السردي الروائي هو الأكثر كثافة في وصف الأحداث والأشخاص والأحاسيس والملابس وحتى الأبطال الثانويين والأمكنة العابرة ليكشف عن رغبة دفينة لدى المؤلف في ممارسة هذا النوع من الكتابة "عندما ذكر لي إدوارد مرة أن أمنيته هي الانسحاب من العالم من أجل أن يكتب رواية، بقيت بعدها سنوات أنتظر الرواية الموعودة.لكنني أدركت بعد طول انتظار أنه حول وجهة مشروعه "٣. لقد كانت ذاكرته من زمن حرمانه الأول في الطفولة وحتى لحظات استعادته المتأخرة للحوادث على فراش المرض، تساعده على التشكيل البصري لما قرأ من كتب وواجه من أحداث وشاهد من أعمال مسرحية وموسيقية، يتضح ذلك في عنصر الإطالة ووصف مظاهر الطبيعة وخبايا الذات الإنسانية، ويعكس الجهد الذي كان يبذله المؤلف لإعادة انطباعاته الغائرة في الزمن، وتجلى أيضا في استعانته بملكات الخيال والوصف والتحليل في سد ثغرات الذاكرة وإكمال المشاهد القادمة من النسيان، وإضاءة الحوادث من الداخل بنور التناقضات المكبوتة في ذات الطفل

ليروي بتدفق هائل كل ما يصادفه في حفلة عشاء أو رحلة على ظهر باخرة أو في بيت (العمة نبيهة) وغرفه الفارغات إلا من كرسي في غرفة الضيوف تتجمع حوله أجساد مترابطة بفعل المعاناة بعد أن خسر أصحابها كل شيء : فلسطين ! ويصف المؤلف ذلك بلغة مشحونة بالعواطف والمرارة تترك القارئ في حالة من التأمل والغضب لما حدث ويحدث حتى اليوم تحت ضوء الشمس.

من عناصر السيرة تطابق السارد مع المؤلف، وتركيز الأخير على ذاته وسرده للحوادث بضمير (الأنا) وإبحاره في اتجاهاتها المحرمة والمحرجة، المحزنة منها والمفرحة، مبتعدا عن التوثيق، ومتجها إلى تهميش الحوادث والأسماء البعيدة عن تجربته من دون الإخلال في تلقائية السرد، لتتكشف مرة أخرى موهبته في طرق السرد ووصف الأحاسيس فيما يصادفه من صعوبات عائلية واجتماعية بلغة مركبة وموحية بأكثر من دلالة، متدفقة، تميل إلى التحليل، ومتداخلة بين الاجتماعي والسياسي والثقافي. لغة قادمة من قاع المعاناة والفقد، ليس لاستثارة عطف القارئ بل لتهزه من الداخل بعنف وتضعه أمام أسئلة الوجود البريئة والمنهكة عن حصار الطفولة في برودة المنافي.

إن تراجع الحصارات الداخلية والخارجية في حياة المؤلف في منفاه الطويل أدى إلى توسيع مساحة الحرية والاعتراف بوقائع شخصية وعائلية أدت بالآخرين أن ينصحوا المؤلف بمراجعة الطبيب المختص يدله على أسباب كتابته روايات إباحية من عندياته ويحشوها بأحداث متخيلة عن نساء كبيرات في السن معظمهن صديقات وقريبات العائلة، ويدله على أسباب خوفه المزمن من بوحه للمحظورات الجسدية ومراقبة الأم لأولادها جسديا وفصل الإناث عن الذكور "فماذا لو حول أبي نظره إلي فمن يدري ما سوف يكتشفه من مشاعري اتجاه أمي أو من شبق سري أكنه لهذه أو تلك من نسيباتي "٤.

السيرة الذاتية بما تمتلكه من حميمية لا ترتب التزاما كاملا بالصدق أو تحفظا إزاء الذات عند استعادة الحوادث بسبب تطابق السارد مع المؤلف كما

يذهب جيرار جينيت، وهذا ساهم في جعلها من أكثر الكتابات تفريخا للعداوة والخلافات والشكوك والضغائن خصوصا وأن مرحلة التكوين التي تناولها الراحل تطلب فيها تسمية الأشياء بأسمائها وليس ملائما الحديث عنها بمفردات الحكمة والوقار. إن زمن الاستعادة هنا لم يفقد نهائيا تفاصيل الحوادث زمن وقوعها بعد أن حفرت بعمق في ذاكرة الطفل.حوادث الطفولة المتشعبة في اعترافات المؤلف لم تهدف فقط إلى تشويقنا بالبوح عن المحظورات أو إبراز العنصر الدرامي للحرمانات في الحوادث، وكذلك الإحساس بمعانات الطفل وهو يبحث عن عناصر القوة بداخله ويبقى حتى النهاية يحتقر دور الضعيف والعاجز واللاجئ، ويواجه مشاكلاته ويحلل أسبابها بفكر ثاقب يحفر بعيدا في الذات الإنسانية، مقللا بشكل واضح من أهمية الاسترجاع التفصيلية في سرد الحوادث الواقعية في دعم تلك الأفكار، وهذه بلا شك أجواء بعيدة عن المذكرات التي لا تستقيم كتابتها دون حوادث واقعية موثقة ومترابطة تعكس بنية الحراك الاجتماعي وتطوره.

قبل تحديد جنس الكتاب (خارج المكان)لابد من الإشارة إلى الترجمة الذاتية باعتبارها مصطلحا مرادفا للسيرة الذاتية وتسير على خطاها وتشتغل بأدواتها، إلا أنها ـ الترجمة الذاتية ـ تعني الإيجاز والاختصار في تناول الحوادث والمراحل على عكس السيرة الذاتية التي تنشد التوسع في ذلك.إن المذكرات التي تغطي حياة مؤلفها تمثل في نفس الوقت فترة معينة في تاريخ المجموعة، لكننا نجد الراحل في مؤلفه قد تناول ماضيا محددا ومرحلة معينة من حياته ،الطفولة ومقتبل الشباب، ولذلك نفضل تسميتها بـ (الترجمة الذاتية).



إن قـدرات الراحـل التقنيـة والمعرفيـة في الوصـول إلى الأمـاكن المظلمـة والعميقـة في الـذات الإنـسانية أقنعتنـا بالحكاية كاملة مع أنهـا لم تـرو حيـاة الراحل كاملة،وهذا لا يعني قوة ذاكرته أو امتلاكه الوثائق والشهود أو سرده لوقائع تاريخية مشهورة،ناهيك عن أن الفترة التي تناولها المؤلف.الثلث الأول من حياتـه . انشغلت بحادثـات قليلات ومحـصورات بـين البيـت والمدرسـة والمشاوير العائليـة،فيها الشخـصيات معروفـة والأمكنـة مكـررة.حادثـات مألوفـات وغـير بعيـدات عـن واقـع تـشكل المجتمعـات العربيـة تلـك الأيام،ووقفـت بوضـوح خلـف تجربـة المؤلـف ومنـابع ثقافتـه. القـارئ يـستطيع هنـا تلمـس حقيقـة أن الخيـال وقـدرات التعبير والمعانـاة قـادرين علـى الأخـذ بيـد العـادي إلى مـستويات أرحـب وأوسـع ويجعلـون مـن الحـوادث القليلـة الـتي وقعـت في الماضـي كـبيرة ومعقولـة القبول زمن روايتها،إلا أن ذلك لا يعني أن المعاناة والقدرات قـادرة لوحـدها علـى حمـاية حقيقة وقوع الحادثة،طبيعتها،عناصرها، موقعها بين جاراتهـا ترابطـا أو تسلـسلا.فالـسرد وإن بـدا متماسـكا ومنطقيـا وممتعـا في كتابـات الأدب الشخصي إلا أنه وبسبب الهوة التي تفصل زمن وقوع الحادثة عن زمـن روايتهـا أو كتابتهـا فـإن فقـدان التفاصـيل وضـعف خيـوط التسلـسل والترابـط بـين الحوادث،قدرا لا يمكن تجنبه.

إن أسلوب تناول الحادثة المرتبط بأدوات المؤلف وثقافته لعب دورا كـبيرا في تحديد شكل الكتابة.فالمؤلف لم يبني ترجمته الذاتية علـى تـرابط الحـوادث وتسلـسلها،بل عمـد إلى ترتيبهـا في فـصول عـن بـدايات العائلـة والطفولـة والمدرسة.القارئ يتلمس أجواء الحوادث التي تعيد نفسها عبر الفصول بأسلوب ولغة مختلفين خصوصا تلك الـتي تـروي عـن قـسوة الأب ونظـام العائلة وفقـدان الثقة عند الطفل.فبسبب عامل الزمن نجد رغبة المؤلف في تسجيل الوقائع كمـا هي،أحيانا،تـصطدم بطبيعـة التجربـة وعمقهـا وعـدم القـدرة علـى التقـاط التفاصيل الهاربـة. وهـو مـا يـدفع باتجـاه تـذكرها لغـرض نـسيانها أو دفعهـا مـن

حقيقة وقوعها إلى أطراف الخيال والأحلام ليعينه ذلك في الذهاب بعيدا في وصف الحادثة وشرح أسبابها وتقصي المعاناة والنتائج التي صاحبتها وأدت إليها ، أكثر من الحادثة نفسها وما تحتضنه من أبطال وأمكنة. النسيان في هذا النوع من الكتابات يزيد من نشاط المخيلة في إعادة تشكيل الحوادث ويكسوها دفئا ودراما.وأسباب ذلك ليست فقط ركض السنين وخلفية الراحل المعرفية وتحوله من بطل إلى راو ، بل طبيعة الحوادث التي تطرق إليها.حوادث لم تكن غائرة في القدم وغائبة عن الآخرين أو محل خلاف بين من عاصروها من الساسة والمؤرخين، بل هي معاناة عامة وحوادث واقعية عن هدم البيت الفلسطيني وتشويه نسيجه الاجتماعي، تحولت بعد نصف قرن من الاجترار والمزايدات إلى قضية أكثر غرابة من الواقع نفسه.والجديد في ذلك هو زاوية الأسرار والمعاناة التي وقف عندها الراحل في أعوام التكوين ليطل منها على ضجة المارة وتيههم، وكذلك أسلوب سرده الممتع لما حدث، وتعمقه في تفاصيل الذات الإنسانية.ارتبط ذلك بأدوات الاسترجاع المتكئة إلى ذاكرة المنفي المنهكة ، لتأت الحوادث مترابطة منطقيا أكثر من تسلسلها أو ترابطها زمنيا وأبطالها قليلون ومعزولون بين أبناء جلدتهم، تحولت الحوادث، بعد اشتغال العقل عليها وتفكيكها وإعادة إنتاجها ، إلى حالات ذهنية ووحدات مكونة للمشهد المرير في تجربة الراحل وثقافته، يعكس أغلبها الجانب المظلم في ذات الطفل.من هنا فإن قول ما ينسجم مع الأفكار ومع مناخ الكتابة بعيدا عن حقيقة وقوع الحوادث بالتفصيل، يعكس مساومة أخرى في حياة المنفيين بين الرغبة وبين الذاكرة ، بين أن يأخذ من الحادثة وبين أن يعطيها دونما توجيه لوم للذاكرة ، لتبقى الحوادث السيرية ممتعة، ضبابية وكأنها لم تقع، لكنها موجودة ومؤلمة للمؤلف وستصاحبه طويلا يتخطاها أحيانا من دون القدرة على إلغائها أو إلغاء ما أنتجته من معاناة الفقد للبيت والعائلة والأصدقاء في أواسط القرن العشرين.معاناة دفعته تكرارا إلى تسليم أمره إلى ذات أخرى أقل

عاطفية وأقل إعاقة، تتجدد عند كل منعطف صعب كمثل ذلك الذي صاحب إبلاغه بطبيعة مرضه بعد أربعين عام من المنفى، ليعود مرة أخرى إلى الانهماك بالأشياء الممتعة والدافئة كالكتابة والموسيقى ولقاء الأصدقاء بما يشبه إبعاد الذات ونسيانها إلى حين، تمر فيها مشاعر الفقد مكملة رحلتها في انتظار دورة قادمة.فالمنفي حين تحاصره المصائب يفكر أولا بصوت عال بعدها يلجأ إلى الشتائم البذيئة بعد تداولها مع الغرباء الجدد ثم يجلس وحيدا متأملا بين الغادين والرائحين يقلب أوراقا مصفرة وصورا عتيقة ليتذكر أنه في يوم ما كان سعيدا، وهو عزاء مجرب لإدامة جدار الأمل .



لقد عودنا الكثير من كتاب المذكرات والسير، خصوصا السياسيين، على الدخول مباشرة في المفيد عابرين على الطفولة وحماقاتها أو مختصرين بأسطر قليلة فترات التكوين التي تعقب ذلك باعتبارها ترفا لا يحتمل الإطالة في جدية التجربة وعمق دروسها.لكن إدوارد سعيد في(خارج المكان) أنتزع فصلا واحدا من حكايته يطلعنا عليه، توقف فيه على أطلال الثلث الأول فقط من حياته تاركا الثلثان الآخران، تاركا المكان مؤثثا بفوضى الكتب والدراسات وقصاصات ورق الجرائد والمواقف السياسية والصراعات الفكرية وخبرات التأمل والتأويل علّه يساعدنا على إكمال سيرته، كل على هواه.فلقد بقيت النهاية مفتوحة وكثير من الأسئلة دونما إجابات، ومن يدري لو امتدت الحياة بالراحل لروى لنا رحلة أخرى عن فترة عمرية لاحقة.

إن حكاية المؤلف التي بين أيدينا عبارة عن طفولة طويلة وصلت فترة المراهقة وتاخمت الدراسة الجامعية، مثلت مشهدا واسعا ومتنوعا عن اضطراب التاريخ في النصف الأول من القرن العشرين بعد أن شهد حربين مدمرتين.إذا كان الاحتضان المر للثلث الوحيد قد عمدته التناقضات والارغامات فإن ذلك

لم يضعف من عناد الطفل وردود أفعاله المكروهة على الدوام، وأول هذه التناقضات انشطار أسمه بين حضارتين (إدوارد ـ سعيد)الأمر الذي لم يكن مصادفة أو من اختراع العائلة البسيطة والصارمة كما يحلو للمؤلف أن يسميه بل هو انشطار سيصاحبه حتى نهاية الرحلة، ونتلمسه في الاسم واللغة (العربيةـ الإنجليزية) والثقافة (الشرقيةـ الغربية). إن الأعوام الأولى في ذاكرة الطفل لم تدرك بوضوح الحقائق المرعبة للحرب العالمية الثانية التي وصلت إلى أفريقيا إلا أن الطفل يتحسس ذلك في ترتيبات السفر المفاجئة إلى القاهرة وبيروت وفي أرتال الجيوش على الطريق الخارجية وفي مكبرات الصوت وأجهزة الإنذار المكهرية لأجواء العائلة البسيطة.طفولة مؤلمة بشكل مختلف على الرغم من الرخاء النسبي الذي كانت تتمتع فيه العائلة المتجسدة في توفير المأكل والملبس والمدرسة النموذجية، فلقد كان الطفل محاصرا على الدوام بتقاليد العائلة والتزاماتها ليشتغل خياله في تعويض كل ذلك "حياة وبيتا معزولين على نحو لا يصدق، بل يكادان أن يكونا أختباريين" ٥. لقد توقف المؤلف طويلا عند طفولة صارمة ومحكمة بين البيت والمدرسة والكنيسة وتلك المشاوير القليلة من أيام الآحاد للعب الاستغمائية وتمثيل دور طرزان مع أصدقاء الطفولة المتغيرين بتغير المكان، خصوصا أقربائه الذين جعلوه مستمعا دائما بسبب صغر سنه.

إن محبة الآباء المحاطة بالأسرار والممنوعات للحفاظ على نظافة عقل الابن، حققت للمرارة مكانة مهمة في حياة الطفل جعلته لا يستطع إنكار عزلته وجهله بما يحيط فيه من أحداث وصراعات أدت بالنهاية إلى ضياع كل شيء.. فلسطين، ويكون شاهدا على ذلك الضياع من دون أن يرى شيئا، لنشهد خوضا في التأثيرات التي خلفتها الحوادث وليست في الحوادث نفسها. الصمت الدائم عن أحداث فلسطين بين جدران البيت أسس إلى عجز الطفل عن فهم ما يجري حوله وزاد من عدم قدرته على الحوار مع أقرانه بخصوص أهم مسألة عند جاليته المهجرة، ولذلك ليس مفاجئا أن يتكرر انعدام الثقة بالنفس على

صفحات كثيرة في الترجمة، تجسدت في وقائع بيتية صغيرة وأخرى خارج البيت في ممارسة الرياضة والمسرح وهو ما أنتج عادة النظر إلى أنوف الآخرين بدل عيونهم وعدم القدرة على مجاراة الرجولة التي يمثلها أبيه ليجدد كل ذلك اكتشافه المستمر في عدم نضجه وتردده وتعدد شخصياته وبقاء مفردة "لو" خلف الكثير من مواقفه ومعاناته العاطفية والاجتماعية والثقافية ويستمر ذلك إلى نهاية المشوار متجسدا في عدم قدرته على رؤية شخصه في جهاز التلفاز أو قراءة ما يكتب عنه في الصحافة، ليعيش كل تلك المعاناة مرة أخرى على صعيد الذاكرة في فراش المرض وكتابة ترجمته الذاتية.

لقد كانت محبة الابن للأب مختلطة بمشاعر الذنب والرعب والعيب ومرتبطة بالممنوعات والأسئلة التي عجلت في انحدار المراهق إلى التهلكة وفقدان الثقة بالنفس، تحول فيها الفصل الرابع من الترجمة إلى دراسة نفسية عن عثرات المراهق مدعمة بالشروحات والشواهد والأسماء وكل ما من شأنه أن يزيد من سرعة انحدار الطفل.إذا لم تكن ترجمة الراحل حكاية عن طفولتنا المبتلاة بالفقر والصمت أمام كل أنواع النفاق فإنها بلا شك جرس إنذار لأبوتنا، فكثيرا ما تدلنا الأحداث على الزيف الذي كان يطبع حياة الوالد في تعكزه على أصل "أمريكي" غير موجود إلا في رأسه، صنع ذلك طفلا غير قادر على استدانة عكاز أبيه، طفلا شغوفا وخائفا من الآخر"قد يكون التلامذة إنجليز هم أيضا أن كانوا محظوظين وإن لم يكونوا محظوظين كما هو حالي فلن يكونوا من الإنجليز"٦.إن خيبة الأمل المتربعة بصدق وعافية وسط علاقة إدوارد بسعيد بالعائلة، تكاد تنشط وتتنوع تعبيراتها عند كل أزمة اجتماعية أو سياسية أو تجارية، لأن المشاكل التي تسم حياة العائلة القلقة كانت على الدوام تستدعي مكانا، وطنا يعينهم على مواجهتها في ظروف تدهور الأوضاع السياسية في الدول العربية أواسط القرن العشرين .

إن الفصول الخمس الأولى قد خلت تماما من السياسة والوطن وإدراك ما

يجري وانشغلت بحفريات التكوين، إلا أن الانهيار الكارثي لمفردات الوطن يتكدس في خلفية المشهد المتدهور للعائلة وازدياد أعداد الفلسطينيين المهاجرين والمهجرين إلى القاهرة المكتظة بالفقراء والعاطلين عن العمل، وهو ما دفع بالراحل إلى القول "أنا الشاهد الذي لم يشاهد شيئا في العام ١٩٤٨ "٧ أي أنه يروي تاريخ قضية كان مغيبا عنها.

إن المحتوى الخبري للكتابة يتمركز في معلومة عامة ومؤلمة ارتبطت بالمقدس أحيانا وتناولها ساسة ومؤرخون ومثقفون (احتلال فلسطين)على امتداد القرن العشرين؛ أي أن المعلومة هنا أوسع من كل رواتها.وعندما ينجح أحدهم في رواية الحادثة وفي وضعها إلى جانب صاحباتها في عربة المعلومات التاريخية فإن ذلك لا ينسينا أهمية الحادثة وطبيعة عناصرها وقدراتها الخفية على البقاء واختيار رواتها.ونحن هنا نتحدث عن حقيقة وقوع الأمر لا أهميته فقط في الحراك الاجتماعي، لأن الأهمية هنا نسبية ومرتبطة بتعدد الرواة، ناهيك عن أن التقادم في الزمن قد يزيد أو يضعف من تلك الأهمية.



عناصر الحادثة هي حدودها.وإن هشاشة الهوية والاقتلاع والمعاناة والنسيان، إن كل ذلك قد يساهم في توضيح الحدود أو محوها، وقد يدفع بها من الواقع إلى المتخيل، إلا أن ذلك غالبا ما يتم بأدوات سردية تخدم أغراضا بعيدة عن حقيقة وقوع الأمر.

إن كان لابد من عنصر أو بطل غائب في (خارج المكان) فهو على ما نرى المكان الذي كان المؤلف الرحال يضفي على ألفته بعدا مأساويا مملا وإحساسا بالانقطاع.غياب فطرت عليه طفولة الراحل بسبب الاقتلاع عن المكان الأول أرتبط "كذلك" بضعف الوظيفة المباشرة والمستقرة للأمكنة التي أعقبته.وهذا الغياب - التخطيطي - الذي أسهمت فيه ذاكرة المؤلف في غروبها

وهي تروي عن شروقه لم يؤدي إلى إضعاف الفضاء السردي للأحداث، وتحول المكان إلى أفكار مثل عناصر الحادثة الأخر، تعتمد على خيال القارئ وقدرته في تحسس الأمكنة النفسية وتأثيراتها، بعد أن أخفاها المؤلف بين ثنايا السرد المحتفي بمكونات الانتماء الأولى.

مثلما تتغير صور المكان على الجغرافيا/فلسطين ومصر ولبنان والولايات المتحدة/ في تنقلات مستمرة بين النخل والصحراء والبحر والجبل، تتغير كذلك علاقات المؤلف بالناس والأمكنة، مع نسبة من النسيان غالبا ما تؤدي إلى التعامل مع الأشكال العامة والخارجية للمكان بعيدا عن التحديد والتأثيث الداخليين له. التنقلات الدائمة دفعت بالمؤلف إلى أخذ المكان بطابعه الاجتماعي المقارن لنجد الطرقات المستقيمة والبنايات الشاهقة والمترو الضاج والسريع واللامبالات العميقة لمشاة نيويورك وطبعهم الجلف، يتناقض كل ذلك مع طابع القاهرة الإنساني اللاهي والأقل تنظيما والأكثر أمانا من نيويورك. مع إن المكان كثيرا ما أرتبط في ذاكرة المؤلف بالسياحة والعمل إلا أن معاناة الفقد والسفر ساهمت في تعميق مشاعره بغربته، تجلى ذلك في استحضار الأمكنة التي لا عودة إليها لتسكن الأحاديث والمخيلة، يفتقدها بصمت وبلوعة باعثة على الشفقة مثل أي غريب، وإلا فما الذي يربط بين ماضي المؤلف بين مدينتين مزدحمتين وكثيفتين بالآثار التاريخية هما القدس والقاهرة وبين مدينة أمريكية باردة وموحشة التلال والمقطوعة عن تاريخها مثل نيويورك .

إن تعقيد القضية الفلسطينية أنتج تعقيدات مزمنة في علاقة الفلسطيني بالمكان تحولت عندها علاقة الراحل بالمكان إلى علاقة بالهوية والوجود وصولا إلى خارج المكان وخارج الهوية. فضياع كل شيء زود الفلسطينيين بفقد الأمان في أي مكان آخر بمن فيها تلك الأكثر ألفة كمدينة "القاهرة" التي أصبحت تشعرهم بأنهم غرباء مع أول مواجهة في تفاصيل الحياة

اليومية،وهو ما جعلهم لا يثقون بالملكية العقارية في غير بلدهم ويمضون من بعد حياتهم خارج فلسطين في مساكن مستأجرة قليلة الأثاث وتوحي بالقلق والرحيل والنسيان، انعكس ذلك على إحساس المؤلف بالأمكنة العابرة ووصفها وأثاثها بالتفصيل والحب على العكس من تلك التي ارتبطت طويلا بحياته العائلية والتي يصفها بالملل الخانق والعزلة "وقد طاردنا ذلك الأثاث القشيب والبشع إلى البيوت التي استأجرناها والأسرة السبعة مزودة بإطارات معدنية متماثلة مدهونة على عجل بلون بني لا يني يتقشر، ونوابضها الضخمة تبدو وكأنها خارجة من قبو تعذيب قروسطي "٨.

إننا نشعر بالبيت الثابت والدائم نسبيا، كهفويا وغير مضياف على العكس من الباخرة المتنقلة في الفضاء الأزرق فهي تمتلك عند المؤلف حضورا أنثويا مضيافا وكريما إلى أبعد الحدود، ما يعني أن الراحل كان مستهلكا جيدا للأمكنة العابرة المرتبطة بوظائف متغيرة بسبب الترحال، وكانت رحلته على ظهر الباخرة (ساتورينا)على سبيل المثال قد أشعلت خياله وتأملاته لتتحول الباخرة إلى مكانا يحتضن ارتحالات إلى أزمنة مختلفة ومخيمات صيفية وأحداث وأسماء وأمكنة اندثرت، يعيدنا بعدها المؤلف إلى ظهر المركب على شاكلة (قلب الظلام) لجوزيف كونراد الرواية التي تناولها المؤلف كثيرا في كتبه؛أي أن حسابه المستمر للمهدور من الزمن يضعف عند الأمكنة العابرة كما في رحلة الباخرة البطيئة التي لا تشعرنا بوطأة الزمن بل بكثافته وسرعة تنقلاته في الذاكرة.إن انشغال المؤلف بالعابر والسريع من الأمكنة أكثر من انشغاله بالمستقر والمألوف نتلمسه أكثر في موهبة الراحل فعند تشكيل مواقع الأمكنة الخارجية من دون النفاذ إلى خطوطها الداخلية الممزوجة بألفة مادتها "أمضت عائلة الراسي صيف عام ١٩٤٧ في منزل وراء الفندق المدور إلى يسار الساحة الرئيسية على مسافة ميل أو أكثر من بيتنا "٩. لقد أرتبط الانشغال بالعابر بطبيعة حياة الترحال، فرحلة القطار إلى الإسكندرية احتوت معلومات

مكانية واجتماعية أكثر من تلك التي في بيت العائلة،ويصفها بالأمكنة الحالمة الرومانسية الأضواء والأخشاب والأسماء وأماكن النوم العلوية بطريقة روائية لا تغفل التفاصيل حتى تلك الأسرع غيابا كالمشاهد المتسارعة عبر نوافذ القطار،لنجد متعة المؤلف ليست في غابة الأرز المستقرة والمرتفعات الهادئة المحيطة فيها والتي سيقضون فيها وقتا طويلا،بل في تلك السويعات التي يقضيها المؤلف في الطريق إليها محدقا في الحقول الراكضة بخضرتها وقطعانها من دون الإحساس بأمان العودة.خوف سري من عدم العودة صاحب المنفيين الذين اقتلعوا عنوة من أماكنهم الأولى،تاركين في المحطات التي مروا بها بيوتات سريعة التأثيث وصداقات عابرة ومعذبة أحيانا ومكتبات قديمة ستشغل حيزا كبيرا في مخيلتهم وتحسرهم "في نظري أن ما من شيء يميز حياتي على نحو أشد إيلاما _المفارقة أنه هو ذاته من أتوق إليه توقا _ أكثر من تنقلاتي العديدة بين البلدان والمدن والمساكن واللغات والبيئات "١٠.المحطات العابرة المحركة لقدرات التأمل والتفكر تخبئ كذلك فعل الاقتلاع من الجذور تجلى في قدرة المنفيين على الاحتفاظ بأسماء الأمكنة في ذاكرتهم وعدم قدرتهم على تأسيس موقعا مؤثرا في ذاكرة الأمكنة والبلدان التي عاشوا فيها طويلا وعاشروا أهلها ليبقوا غرباء في حياتهم ومماتهم ويبقى كل شيء يوحي لهم بالغربة ويذكرهم بها،وهذا ما نجده في التناول السريع لتاريخ الأمكنة في(خارج المكان) من دون التوقف عند معايشة الناس لها في أزمنتها المتغيرة وما تنطوي عليه من تبدلات ديموغرافية ما أدى بالمؤلف للوقوف عند الشكل الخارجي المنسجم لطبيعة المكان من دون تحديد الحياة الداخلية له،أعطى الانطباع بأن الراحل عاش حياته بإحساس الأماكن العامة.

بسبب بطء الذاكرة أمام جريان الزمن والخوف من النسيان والاندثار لجأ المؤلف في أيامه الأخيرة إلى استثمار علاقاته القليلة في استعادة طفولته الموزعة بتنظيم،وإلى جمع المعلومات التاريخية كجزء من عمله في مجال الثقافة "في

تموز زرت القاهرة بمفردي متقصدا خلال تنفيذي إحدى المهمات الصحفية أن أزور مطارحي القديمة "١١، وكذلك أستثمر رحلاته المتأخرة إلى فلسطين ولبنان ومصر بهدف ترميم المكان المتهدم في ذاكرته "جاء إدوارد إلى القاهرة ليمضي شهرا بأكمله يسترجع خلاله طفولته ومقتبل الشباب "١٢ لكن السؤال المؤلم هو كم عدد الأشخاص اللذين يعرفون أو يتذكرون إدوارد سعيد الإنسان في تلك الأمكنة ؟.

إن تنظيم الممنوعات العائلية القاسية والمستمرة التي حدت من حركة الطفل ونشاطاته أدى بشكل عام إلى قلة الأمكنة في ترجمته.ومن الأمكنة (القليلة) الأكثر حضورا تتكرر المدرسة باعتبارها المتنفس الأكثر مساحة لحماقات الطفولة والصبا، أمكنة متنوعة دونما خطوط أو تفاصيل لكننا نشعر بالوجود النفسي لها سلبا أو إيجابا " فلم توفر لنا المدرسة أية إطار معنوي أو ثقافي "١٣ ونجد علاقات الطفل مؤسس لها فقط بالمدرسة ولم تبني علاقات عائلية أو سياسية أو مهنية لأنهم ببساطة لم يلتقوا خارج أسوارها إلا قليلا ما أدى في النتيجة إلى هشاشتها وسرعة نسيانها وكأنهم لم يكونوا مرتبطين بأكثر من اللباس الموحد والمناهج الدراسية الملزمة للجميع على الرغم من الأحداث والأسماء.المدرسة الوحيدة التي توقف عندها مكانيا هي (فكتوريا كولدج) واصفا إياها داخليا وخارجيا، طبيعة الصفوف، مخارجها وشبابيكها والمواقع التي شهدت معاركه وحماقاته مع أنه تعلم فيها أيامه الأخيرة فقط وكأن طبيعة الفقد هي التي أوحت ورسخت ملامح المكان الأخير في ذاكرته.

غياب المكان في تنقلات الراحل الدائمة نتيجة تورطه حتى آخر أيامه بوطن خارج حدود المسميات والأوراق الرسمية، أضعف من همته في إعادة ما مضى ولم يشعره بالحماس بعد ذلك في شراء بيت العائلة المعروض للبيع بالقاهرة بعد أربعين عاما من تركه له، من دون أن يعني ذلك نسيانه وتنازله.فلقد كانت طفولته وبيئته وانتمائه وأفعاله السابقة هي المصادر الحقيقية لمشاكله التي

بقيت تطارده من مكان إلى آخر من دون أن يستمد أي متعة من أي مكان.لذلك فإن الهامش اللانهائي الذي وجد فيه الطفل نفسه بسبب الاقتلاع زحف على المتن بعد أن ارتبطت الأمكنة القديمة في حياته بالاغتصاب والانقلابات العسكرية والحروب الأهلية بالقدس والقاهرة وبيروت على امتداد قرن من الزمن لتبقى تلك الأمكنة أحلام يقظة في حياته المتأخرة.أمكنة لا يتذكرها لكنه يتذكر علاقته فيها.

إن انشغال الفلسطينيين الأحياء بعيش يومهم بين مهن وأمكنة مختلفة، تسببت في تراجع مفردات الاستقرار إلى الخلف ومعها الأموات والمقابر التي تضم رفات الأجداد المؤسسة لدوام المكان.لتتوزع في النهاية قبورهم على مساحة الأمكنة التي وصلوها بمن فيها زرقة البحر.إن جلوس المنفي طويلا في الهامش أضعف المكان وصرنا ندركه بواسطة الأشياء المحيطة فيه وبالمعاناة التي يحتضنها في تعب طبيب العمة (نبيهة) في شارع فؤاد والبقال اليوناني الذي يمثل الطبقة الأرضية بكاملها حيث يزدحم محله دوما بالزبائن وصراخهم وسياراتهم، إلى جانب بيت العمة وزواره المرضى والعاطلين عن العمل يعرضوا حاجتهم بعد أن فقدوا كل شيء : فلسطين !



الأسئلة الكثيرة التي صاحبت الراحل عن الفقد والانقطاع في سني شبابه الأولى والتي عكست غيابا ثقافيا للموروث المحلي وابتعادا عن معاناة الوطن، هي في حقيقة الأمر ضغوطات زمكانية تبدت في تكوين وترميم شخصية الشاب القلقة قبل أن تكتمل أدواته الحياتية.هذه المعاناة تتكثف أحيانا في حالات إنسانية/الأمومة والأبوة مثلا/وتلملم الأزمنة والأمكنة وإن اختلفت تواريخها وأماكنها.لكن الراحل لم يحمل الزمن قيما إيجابية أو سلبية مبالغ فيها في سرده للحوادث كما فعل مع المكان وهذا ما نتلمسه في

تكرار أجواء القمع العائلي للطفل وهي تميل إلى إبراز القيمة الثابتة للاستبداد في تحولات الزمن "المحايد".رغم إن الحديث عن الزمن البعيد - زمن صناعة الحوادث - يتطلب الاستقرار والتوثيق وقوة الذاكرة .وهي أمور تفتقر إليها حياة الراحل، إلا أن سرد الحوادث القليلة التي تناولها المؤلف احتوى على مساحات محسوسة منه.إضافة إلى أن الترجمة الذاتية كرحلة قصيرة في الزمن تحدثت عن فترة معينة من عمر المؤلف (الثلث الأول) في مرحلة صعبة من حياة عائلته وجاليته، ارتبط ذلك باغتصاب الأرض واضطراب الحالة السياسية، أدى إلى شبه غياب للوحدات الزمانية المتعارف عليها كاليوم والشهر والسنة، وأمسك المؤلف بسياق الزمن الداخلي للترجمة في تنقله بين الحوادث في حالة من التلفت بين زمنين "الماضي والمستقبل" . ففي حديثه عن الأب الذي لا يستطيع مجاراته كان المؤلف يهاجر بعيدا إلى الماضي للبحث عن أصل العائلة واسمها ومهنتها ويستمر صعودا إلى المستقبل وعلاقة الابن بالأب ليعود بعد ذلك إلى النقطة التي انطلق عندها في سرد حياة الوالد.وهذا التنقل بين الأزمنة مألوفا في الكتابة السيرذاتية هدفه الفكرة وأساليب توصيلها ولكنه هنا أدى إلى غياب تسلسل الحوادث والقفز على أزمانها للوصول إلى الفكرة، فمقطع من قصيدة (هجوم فرقة الخيالة الخفيفة) الذي سمعه وحفظه عن ظهر قلب عند اشتداد الصراع العربي الصهيوني في الأربعينيات سيتذكره بعد ذلك قافزا على عشرين عام عندما يشاهد الجموع المصرية تحيي جمال عبد الناصر وتصفق له في حر الصيف، ليكتمل فهمه للقصيدة.وإذا كانت القصيدة تمتلك القدرة على التحليق خارج دائرة الزمن فإن الحوادث الواقعية المرتبطة بالأسباب والنتائج ليست كذلك، ومع ذلك تم جمعهما فكريا في نسق عقلي غير محايد يذكرنا بتداخل أشكال الكتابة السيرذاتية .

إن قدرة المؤلف التقنية في إنتاج الأفكار وتدفقها انعكس على إيقاع الزمن في الحوادث.وإضافة إلى القفز بين الحوادث والأعوام المار ذكره فأننا قد

نـصادف الـزمن محنطـا في حيـاة مرصـوفة ومرتبـة بأنظمـة الاسـتيقاظ والنـوم والأكـل والقـداس، وكـل انتهـاك صـغير سـيؤدي إلى إهـدار في طبيعتـه "ونمـت عنـدي عـادة سـوف تلازمـني مـدى الحيـاة هـي اختبـاري الوقـت بمـا هـو مهـدور "١٤وقـد نجـده ـ الـزمن ـ لا قـافزا ولا محنطـا بـل يـدبي في الظـل كمـرض قاتـل اجتاح العائلـة بعـد إن اجتـاح الـوطن،لتبقـى السـاعة الـتي أهـديت لـه في مراهقتـه وحملها معه للمنفى الذي سيموت فيه،تدعوه للرحيل "حملتها وأنا غافل آنذاك أنها ترمم فنـائيتي ترميمـا وتقـسمها إلى فواصـل تامـة وغـير متبدلـة مـن المواقيـت غير المتحققة إلى آبد الآبدين "١٥.

إلى جانـب كونهمـا مفهومـان عـن الزمـان والمكـان فـإن الفـراغ والانقطـاع اللذان عانى منهما الراحل ارتبطا كذلك بغياب الهوية والترحال والنسيان،تجلى في غياب أصدقاء الطفولة والوقوف بدل ذلك عنـد أسمـاء قليلـة في إطـار العائلـة المنفيـة ليـذكرنا مـرة أخـرى بالأسـلوب الروائـي الـذي تـأثر بـه المؤلـف في سـرد سيرته ووقوفه عند الأبطال الرئيسيين والثانويين.حياة الراحل المتنقلة لم تساهم كـثيرا في تحديـد ملامـح أبطالـه وسـط تفكـك العلاقـات الاجتماعيـة وتغيرها،الأمر الذي أنتج نوبات تذكر لكثير من أسماء الأصدقاء والمعارف دونما حوادث أشبه ببورتريه غائم الملامح نفذ بخطوط طواهـا النسيان.المؤلـف يسرد لنا عشرات الأسماء عن الأقارب والطلاب اللذين زاملوه في فترات الدراسة أو اللذين صادفهم ببيروت،وأحيانا يتذكر أسماء شركات وشوارع ومهن.وكل ذلك يجري غالبا من دون حوادث مترابطة إلا مـا يسـاعد علـى تـدعيم وتوضـيح صورة المؤلف أو إبراز وتأكيد فكرة معينة كما حدث في معرض تأكيده لعروبة القدس الغربية وأدراجه أسماء العائلات بعد أن بقي رنينها في أذنيه.وهذه الأسماء /عائلة خليل بيدس مثلا/ يحيطها المؤلف بالأخبار والأمكنة والمعلومات من دون حوادث لغرض إيصال فكرة معينة عن هول المعاناة جراء تفكك نسيج المجتمـع الفلسطيني وبيوتاتـه.وحـين يحـاول إنصـاف الكـثير مـن الفلسـطينيين

اللذين قدموا خدمات للجالية المنفية فهو يذكرهم بالاسم فقط من دون أحداث أو تفاصيل عن طبيعة تلك الخدمات باستثناء العمة (نبيهة) لقربها من العائلة.

وتبقى علاقاته خارج مقاعد الدراسة هي الأكثر تأثيرا خصوصا تلك التي تكونت في رحلاته الصيفية إلى(ضهور الشوير) بلبنان ولقاءاته مع أقرانه من المسيحيين اللذين مارسوا عليه تأثيرات فكرية وعاطفية بقيت عالقة بذاكرته،لكنها علاقات لم ترتبط بالمكان الأول ولم تستمر حتى النهاية لتأتي مقطوعة ومكتملة المعطيات بسبب ارتباطها بطبيعة المكان وأحداثه،وهو ما نجد له تبريرا في تناول الراحل فقط للثلث الأول من رحلته. إن الترجمة الذاتية التي بين أيدينا هي حكي استعادي توزع الذاكرة والمخيلة،روى فيه المفكر إدوارد سعيد حادثات قليلات وكثيفات احتوت معاناته وانطباعاته الذاتية والاجتماعية عن فترة عمرية محددة .

الهوامش

١- إدوارد سعيد - مذكرات خارج المكان - ترجمة فواز طرابلسي – دار الآداب - الطبعة الأولى ٢٠٠٠

٢- نبيل راغب - دليل الناقد الأدبي - القاهرة - دار غريب للطباعة - ص١٢٢

٣- محمد شاهين – إدوارد سعيد ذاكرة ليست للنسيان – مجلة الكرمل ص٧١ – العدد ٧٨ سنة ٢٠٠٤

٤- إدوارد سعيد – مذكرات (خارج المكان) ص٢٠٤

٥- المصدر السابق ص ٦٥

٦- المصدر السابق ص ٦٣

٧- المصدر السابق ص ١٥٣

٨- المصدر السابق ص ١٩٣

٩- المصدر السابق ص٢١٠

١٠- المصدر السابق ص ٢٧١

١١- المصدر السابق ص ٢٦٩

١٢- سامية محرز. ما لم يقله إدوارد – مجلة الآداب - ص٣٠ - العدد ١١ / ١٢ ديسمبر ٢٠٠٣

١٣- إدوارد سعيد (خارج المكان) ص ٢٥٣

١٤- المصدر السابق ص ١٤٢

١٥- المصدر السابق ص

يوسف القرضاوي

بين العبادات والمذكرات

المذكرات التي بين أيدينا(مذكرات ابن القرية والكتاب)١ لمؤلفها الدكتور العلامة يوسف القرضاوي دليل آخر على أن الدين كان ولا يزال على علاقة مباشرة، أو غير مباشرة، بحياة الشعوب.علاقة نتلمسها في طبيعة الحوادث وأسلوب روايتها وأغراض الكتابة، متضمنة عناصر الحادثة في الزمان والمكان والأبطال والظروف.

إن عدم اكتمال شكل وتعريف الكتابة السيرذاتية في تنوع التجارب والثقافات يجعل من الركون فقط إلى المقدمات النصية والأساليب السردية والآراء الحاسمة، جزء من عدم الاكتمال.فعلى الرغم من إن هذه الأدوات تضيء الكتابة ولكننا قد نصادف مقدمات تتناقض وجسد الكتابة أو استهلال مختلف عن خاتمة الحكاية كما مر علينا في الفصل الأول من أن الكتابة السيرذاتية تشبه قصيدة العمود الكلاسيكية التي تبدأ بالوصف والعشق وتنتهي بالدم والسيوف والرماح؛أي أن الكتابة السيرذاتية قد تبدأ بالوصف والطفولة والنشاط وتنتهي بالعزلة أو السجن أو المرض، أو تبدأ بأفكار وطموحات تتراجع في قادم الصفحات وتنتهي إلى الاستقرار والنسيان عند قاعدة الكتابة، إذ لا يكفي المؤلف تحديد الأغراض في مقدمة الكتاب إذا لم يرتبط ذلك بطبيعة الحوادث وإيقاعها وتراكمها وهو ما سنقف عنده طويلا.حتى نوضح أكثر فإن المقدمة التي أوردها القرضاوي ستتصدع أركانها في خضم التجربة والأغراض، وحتى الأسباب الثلاثة التي أوردها المؤلف في مقدمته والتي

وقفت عائقا في طريق كتابته سيرته " أولا كرهه الحديث عن النفس لأنه من المهلكات وثانيا أنه ليس زعيما سياسيا وفي حياته مواقف خطيرة أو أسرار رهيبة وثالثا ضعف ذاكرته وعدم تدوينه ما يساعده في كتابة سيرته" هذه الأسباب التي وقف خلفها التواضع على ما نظن،سيجد القارئ نقيضها في الصفحات المقبلة وفي توثيق الحوادث ومجريات الكتابة العامرة بضمير المتكلم وتوثيقه أنواع المديح الذي كاله له الآخرون في حلقات عدة،وبموقع الراوي العلمي والسياسي بين علية القوم من الرؤساء والملوك والعلماء وقادة الأحزاب،وبقوة ذاكرته وقدرتها على إيراد التفاصيل الصغيرة في رحلات ومواقف مضى عليها أكثر من نصف قرن.

قبل السياحة في تفاصيل الرحلة نتوقف عند المعلومة الأساسية التي تحرص مذكرات يوسف القرضاوي على إيصالها إلينا ألا وهي : الإسلام مقدساته، رجالاته، ثقافته، الدعوة إليه..الخ؛أي أن المؤلف رصد الحالة الأكثر عمقا واتساعا في التاريخ العربي والإسلامي،وهو الدين بكل ما فيه من عبادات ومعاملات تجسدت في أصغر تفاصيل الحياة وأكبرها.هذه المعلومة الواسعة والعامة سنجدها في خلفية المذكرات وطبيعة الحوادث وأساليب السرد وتقنيات التوصيل والإقناع ومعبرة عن رؤية المؤلف وزاويته التي يقف عندها مراقبا الأحداث.معلومة توجز حياة القرضاوي وتقف خلف الكثير من اللمسات والمواقف التي تميز رجل الدين عن أقرانه من السياسيين والعسكريين والمثقفين المنشغلين بالكتابة السيرذاتية، نلمس ذلك في تعامل القرضاوي مع الآخر في الحراك اليومي حيث يتذكر الجميع بخير ويترحم عليهم"أصدقاء كانوا أم أعداء" لكنه في روايته يميل إلى الانتقاء،ولديه أراء في التاريخ والعلوم الحديثة متأثرة بثقافته الدينية التي ترى في الثقافة التاريخية الإسلامية ليست سوى نتاج التصور الإسلامي "لكن عيب دراسة التاريخ في المعاهد أنها لم تجعل من الإسلام محور دراسته،بل سارت على المنهج المتبع في وزارة المعارف،حذو النعل

بالنعل، فجعل "مصر" هو محور التاريخ وليس رسالة الإسلام "٢ والقارئ يعلم أن التاريخ يتناول الشعوب والأوطان وإن تاريخ مصر قد سبق الإسلام بمئات الأعوام قبل الفراعنة والرومان والبطالمة، وهذا ليس انتقاصا من أحد إلا أن الثقافة التي ترى في الإسلام رسالة رحمة وهداية للعالم لا تستطيع هضم وروده كحدث تاريخي مهم "فقط" في حياة الإنسانية أو أنه يشكل فترة معينة من تاريخ البلد الفلاني.وهذه المذهبية الإسلامية ساهمت بصنع تصور عن (مصر) كمكان جغرافي وصلته الفتوحات الإسلامية وليست بعدا زمنيا يمتد لقرون قبل تلك الفتوحات كان لها فيها أحداث وملوك وعمران. هذه الرؤية في تقديس العلوم تذكرنا بتلك التي عند السياسي في تسييس العلوم والتاريخ،ونجدهما معا يبحثان في الأغراض والمصالح بعيدا عن حقيقة طبيعة العلوم.بل إن القرضاوي هنا أراد أن يعيدنا إلى نقطة البداية في تحديداته لطبيعة مناهج التاريخ "كما ينبغي أن يدرس تاريخ أوربا باختصار في إطار هذا الصراع التاريخي وكيف استفادت أوربا ما اقتبسته من المسلمين في الأندلس وصقلية،أو الاحتكاك بالحروب الصليبية،وغيرها من قنوات الاتصال "٣ وهذا الإسهاب في تناول المناهج قد وصل العلوم الحديثة في الفيزياء والكيمياء "لا غبار عن تدريس هذه العلوم في معاهد الأزهر،إلا أنها كانت ينقصها اللمسات الإيمانية"٤ معلنا عن الصراع القديم الجديد بين الدين والعلمانية.

إن مذكرات القرضاوي التي تضمنت التصور الإسلامي لحياة المصريين ومؤسساتهم بداية القران الماضي في مجتمع بسيط ومتدين،تعد بحق من المصادر المهمة لدراسة أوضاع الأزهر الشريف وأساليب الدراسة فيه ومناهجه ومواقفه مما كان يحصل في البلد وبلاد المسلمين،والصراعات الداخلية بين المشايخ والأفكار الجديدة التي تواجهها المؤسسة الدينية وأسماء العلماء والأساتذة ودورهم في الحياة الدينية والسياسية للبلد وعلاقة الأزهر بالأحداث ..الخ.بل إن سيرته لا تخلو من ملاحظات تفصيلية عن المواد والمقررات الدراسية

في كلية أصول الدين في علم التفسير والحديث والتوحيد وعلم مقارنة الأديان والفلسفة الإسلامية والتصوف، وهذا الإسهاب الذي نصادفه في جميع الحلقات والأجزاء متأثرا بمهنة الدعوة التي مارسها المؤلف طيلة حياته، وهو جزء من تقنية المؤلف في التوصيل بعد أن أعلن في مقدمته أنه يريد من مذكراته أن تكون درسا وتجربة وسيره حسنة للأجيال القادمة.

إن معلومة الكتاب الأساسية - الدعوة إلى الإسلام - كانت مخبأة في رأس القرضاوي صبيا عندما قرر التخصص في التدريس والعمل الدعوي، وأضاءت فيما بعد فكر ونشاط حركة الأخوان المسلمين الذي يعتبر المؤلف أحد رموزها وأبرز المرشحين لقيادتها بعد وفاة مرشدها (حسن الهصيبي) في فترة من فترات صراعها مع الدولة المصرية. ارتباط المؤلف بحركة الإخوان ساعده على توثيق الحوادث والأفراد في كتابة المذكرات بعد أن سبقه إلى ذلك كثيرون من داخل الحركة أو خارجها إضافة إلى أرشيف الدولة ومصلحة السجون الضاجة بالأسماء. المؤلف في روايته للحوادث يروي دوره في حركة الأخوان مدعمة بالرسائل السرية - رسالة الهضيبي مرشد الأخوان التي هربها من سجنه إلى الرئيس محمد نجيب تحدث فيها عن الوعود والمظالم التي حاقت بالمصريين - وكذلك ببيانات الأخوان ونشاطهم الديني والسياسي لتأتي الحوادث مؤرخة بزمن الوقوع وأسماء صناعها وشهدائها وأماكن وقوعها. المؤلف أحيانا يروي الحوادث المحتدمة بين الحركة وبين أجهزة الدولة دونما حضوره أو مشاركته فيها وهو ما يصنع حوادث مجاورة ينقصها عنصر المشاركة لكنها تعكس موقفا لرجل عاصر الأحداث ويرويها بعد نصف قرن على وقوعها في وقت اكتملت فيه أدواته ووضحت كثير من خفايا تلك الحوادث كما نرى ذلك مع حادثة المنشية لاغتيال جمال عبد الناصر الذي لم يكن المؤلف حاضرا تفاصيلها، وكذلك إشكالية جهاز النظام الخاص"الجهاز السري" داخل حركة الأخوان الذي كان، ولا يزال، موضوعا شائكا وقد التزم المؤلف فيه

جانب الأخوان.

مما لا شك فيه إن صناع الحادثة هم الأقرب إليها ومصدر معلوماتها، ولكن الراوي قد يكون له فهما غير ذلك، ورؤية في حالة تشكل قبل وقوع الأمر وبعده تدخل فيها المبالغة والتعميم والأغراض.على الرغم من الموضوعية التي وسمت أسلوب المؤلف في تناوله الحوادث التي وقعت من دون مشاركته أو حضوره إلا أنها كانت موضوعية ذات لون واحد فقط، كان المؤلف ملتزما فيها جانب الأخوان دون غيرهم، ومعنيا بأحداثهم وقادتهم ومعاناتهم هم فقط في واقع مصري شديد التعقيد والتنوع سياسيا ودينيا، وقد اختفى كل ذلك خلف حركة الأخوان.فتناوله للحوادث لا يرتبط بأهميتها للشارع المصري بقدر ارتباطها بأفكار المؤلف ومواقفه المعبرة عن مصالح مجموعة معينة، فمثلا حادثة مقتل رئيس الوزراء(محمد فهمي النقراشي) التي أدت إلى تعقيد الوضع السياسي المصري برمته يقف عندها المؤلف بسطور اقل من تلك التي يتوقف فيها عند صلاة التراويح أو لقاء مع خطيب أو شيخ وهذا سيؤدي لا محالة إلى توقف وتأمل القارئ ومقارنة المعلومة الناقصة مع رواة آخرون، وهو ما يعيدنا إلى موضوعة إعادة إنتاج الحادثة.

إن الحادثة تقع على الأرض مكتملة العناصر في الزمان والمكان والأفراد والظروف، وتنتهي.ومن ثم تستمر على ألسنة الرواة وتتغير حسب مواقفهم وثقافتهم، متجهة للماضي أو للمستقبل حسب أغراضهم.علما ان في اختلاف الاتجاه اختلافا في الأفكار وأدوات السرد والتأثيث.والمذكرات التي بين أيدينا توضح ذلك في اتجاهها للماضي وارتباطها بالأوائل، ولكن هذا لا يعني أن القرضاوي يرحل بالحادثة صوب الماضي لعدم قدرته في فهم الحادثة الراهنة وظروفها التي وقعت فيها بل على العكس كان الرجل في قلب الصراعات الاجتماعية والدينية والسياسية بمصر في القرن العشرين ويمتلك كغيره من المصريين فهما وموقفا شاخصين حتى اليوم، ولكن ثقافته والنور الذي

يستضيء به للمستقبل والأسماء التي يقتدي بها في حياته اليومية مرتبطة بالأوائل ونصوصهم ومواقفهم وتجاربهم، ولذلك فإن ربط الحادثة الجديدة بتلك القديمة (المقدسة) هو تزكية للأولى وتوضيحا لغوامضها، خصوصا وإن القيم والأفكار التي أنتجتها القديمة، ثابتة ولم تتغير سوى أثوابها وأساليب التعبير عنها.بكلام آخر فإن الحادثة المقدسة هي الأصل وغيرها هو الفرع، وهي من بين صاحباتها لا تكف عن الفعل والتأثير وإنتاج الدلالات حتى بعد مئات الأعوام على وقوعها واكتمال عناصرها، وتزداد حياة وتأثيرا كلما يبست ونأت في الزمن بسبب ارتباطها بحقيقة الإيمان التي لا تنتهي : الله.

إن فعل الاستعادة هنا مرتبط بالمعلومة الأساسية التي تعتمد عليها الكتابة، وكل حادثة تقع أو وقعت في الماضي القريب لها أصل في الماضي البعيد، فاليهود يقاتلوننا اليوم انتقاما لهزيمتهم في خيبر عندما غزاهم النبي(ص) وفرض الإتاوة عليهم، وليس فقط مصالح دولية وصراعات أفرزها عصر الامبريالية.وإن معاناة المصريين بكل أطيافهم السياسية ودخولهم السجون ليس فقط نتيجة المصالح والخلافات اليومية المحتدمة اليوم في الشارع المصري بل أن الضحايا مثل المؤمنين أصحاب (الأخدود) اللذين يعتبرون المحنة ظلم الآخرين لهم واستكبارهم في الأرض.وإذا تعذر استحضار حوادث الماضي البعيد لإضاءة الحادثة الجديدة فسوف يتم استبدال ذلك بالنصوص الدينية أو الأحاديث النبوية أو بالمقولات والمواقف التي تركها لنا الأوائل وتكاد لا تخلو حادثة أو صفحة أو حلقة من ذلك، خصوصا تلك الجمل المتداولة لتسهيل حياة الناس من مثل (إنما الدين يسر لا عسر) أو (الخير فيما اختاره الله) وغيرها من جمل البسملة والحوقلة والاسترجاع التي تكررت عشرات المرات وأصبح القارئ هو الآخر ينتظرها كخاتمة للحادثة، كنقطة في نهاية الجملة ولا تعلن عن تسلسل أو ارتباط لها بجاراتها من الحوادث.إن الحادثة الواقعية حلقة من سلسلة في حراك اجتماعي مستمر وليست إيقونة في معبد، إلا أن ثقافة الإسلامي

وأفكاره وطموحاته مؤسس لها هناك، على عتبة القرن الأول للهجرة المرتبط بحوادث انفصلت عن زمنها وأصبحت هي الزمن كله، وبأسماء ونصوص لا تحتمل الاختلاف والنسيان ولا تحتاج إلى دليل أو برهان بعد أن جعلتها الألسن كحصاة النهر مغسولة طول الدهر، ولذلك فإن أية حادثة تقع لا ينشغل المؤلف بتحليلها ارتباطا بجاراتها من الحوادث أو بظروفها التي أنتجتها، ويفضل العودة لأصلها في الماضي عبر النصوص المقدسة والأحاديث النبوية والمقاطع الشعرية الجميلة والدالة التي تمثل ثقافة المؤلف وموقفه دونما علاقة محددة بالحوادث الواقعية.فإن أراد الزواج وصاحب ذلك بعض التعقيدات الاجتماعية والمادية نجد المؤلف لا يناقش الأسباب والنتائج بالشارع والتقاليد المصريين بداية القرن العشرين وإنما يعود ويستشهد بزوجات النبي (ص)والصحابة وماذا قالوا في الزوجة الصالحة وما هي المواقف التي صادفتهم مع زوجاتهم.وفي أحايين كثيرة يتوقف المؤلف عند الحادثة الجديدة بسطرين أو ثلاثة ثم يملؤها بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وأقوال الصحابة وأبيات الشعر التي تأخذ بيد الحادثة الجديدة إلى مواقع لا يمكن معها الاختلاف على تفاصيلها ومن ثم تنسينا الحادثة التي تأسس عليها كل ذلك البناء، مثلما أراد الذهاب إلى دول الخليج لغرض العمل وتحسين مستوى المعيشة روى ذلك بسطرين فقط ثم استمر بعدها في سطور طويلة يبرر حب المال والغنى وتحسين الوضع المعيشي مستعينا بكل ما سمحت فيه الذاكرة من آيات وأحاديث ومقولات وقصائد تدعم ذلك.وحين تعطى هذه البعثات إلى من لا يستحقوها بواسطة الرشوة أو غيرها فإنه كذلك يسترسل طويلا في ذلك وبنفس الأسلوب الهادف إلى تنوير القارئ بعشرات الأسطر الضرورية لعملية القراءة وتشويق القارئ وتركيز المعلومة الخبرية التي تحملها الحادثة وأحيانا يصحح فيها مثلا أو حكمة أو جملة نسبت خطأ إلى السلف أو ظنها الناس حديثا وما هي بحديث أو أسماء إعلام شكك الناس بمواقفهم، ولكنه على مستوى حقيقة وقوع الأمر المتجسدة في التفاصيل لا يقدم

الكثير لأن الحادثة تقع في حيز معين وهي معروفة العناصر في الزمان والمكان والأبطال والظروف، ثم تنتهي، ولا يجدي نفعا كثيرا الإبحار فيها أربعة عشر قرنا لكشف غموضها أو تزكيتها عند الأوائل.فهي وقعت نتيجة لظروف ومصالح ومواقف متشابكة في الحراك الاجتماعي لا يعطيها القرن الأول للهجرة ما ليس فيها ولا يسلبها ما تمتلكه دون أن يترك ذلك أثرا في بنية الحادثة التي وقعت، ناهيك عن أن المذكرات نفسها مرتبطة بتجارب وتحديدات زمانية ومكانية معلومة.ولذلك فإن رتابة القص والجمل الجاهزة والمقاطع الشعرية المتكررة وكثافة الوعظ والنصح المتكتل في خلفية الكتابة لا يساعد على الدوام في إطلاق حرية السرد للكشف عن الحوادث، وبالتالي قد يؤدي إلى الترهل بين ثنايا الكتابة.الكتابة عن كل شيء، الرحلات والأسماء والأمكنة، أو سرد ما هو معروف للمتلقي من تاريخ وموقف دينية درامية هو الآخر يثقل كاهل النص خصوصا عند القارئ الذي لا يميل إلى الكتابة التربوية المحصورة بموضوع واحد، أو عند القارئ الباحث عن الحادثة المهمة والموثقة بالأسماء والتواريخ أكثر من بحثه عن تأثيث روايتها بالشعر والنثر. إن القارئ يتلمس في سياحته طبيعة المعلومة الدينية المفتقدة للخيال والتي لا تسمح باستدارة سريعة في تناول الموضوعات المتوعة، استدعى أسلوبا للسرد ينسجم مع ذلك وقد تم فيه رواية الحوادث بالتتابع والتكرار والتداخل حسب الأغراض التي تتطلبها الكتابات الدينية في التأثير الجماعي، بلغة الوعظ والنصح والشرح والتوضيح والترغيب والترهيب.

إن إشارة المؤلف في مقدمته إلى تواضع حياته وخلوها من الأشياء الخارقة والعظيمة نصادفها فقط في الجزء الأول من مذكراته المتضمنة قرية الولادة والسنين الأول من طفولته والفراغ الكبير في حياة القرية وبساطتها وفقرها حيث يكاد المسجد وشهر رمضان والعبادات هي المحاور الأساسية التي تدور في فلكها حلقات الجزء الأول.وبين هذه المحاور تجري حياة الناس وأعمالهم

وزواجهم وتعليمهم في ريف تستند ثقافته إلى حكايات جحا ومقالبه.رغم قلة الحوادث ونأيها في الزمن في الجزء الأول إلا أنه كان يضج بحراك الشارع وتقاليد المجتمع، وكل ذلك يتراجع بالتدريج كلما تقدم العمر والموقع بالمؤلف حيث نشهد في الجزء الثاني غياب ذلك لتحل محله أسماء العلماء ولقاءات الأزهر والرحلات الدراسية والسياحية.ومع إن مذكرات القرضاوي لم تهمل مرحلة عمرية لسبب أو غرض معين إلا أن نأي الحوادث في الزمن قد حول مرحلة الطفولة البعيدة إلى أفكار وانطباعات مسهبة عن الريف المصري بداية القرن العشرين متوقفا فيها عند الحالة الاقتصادية والقدرة الشرائية، أنواع الأطعمة وأساليب طبخها وبيعها، وسائط النقل البدائية، وأساليب التعليم البدائية وكذلك توقف عند الحالة السياسية المتردية بسبب انتشار الأمية وانشغال العامة بلقمة العيش.بكلام آخر فإن هذه اللوحة التي رسمها المؤلف لحياة المصرين جاءت دونما حوادث معينة مرتبطة بتلك الأفكار والانطباعات، وإن صادف أن روى المؤلف بعض حوادث الطفولة فإنها عادية ومكررة لا تخرج عن التعاليم الدينية وحفظ القرآن وكيفية التطهر بالمسجد، بعيدا عن حماقات ومفارقات والعاب الطفولة، بلغة قديمة عالية التراكيب والمفاهيم لا تنسجم وعالم الطفولة الصاخب والبريء.وبالتالي فإن قلة الحوادث المهمة وعدم ربطها بالأفكار يجعل من الرواية عادية عابرة في السرد وسريعا ما تنسى مثل الذهاب إلى المدينة على حمار والسكن عند ابن خالته، ومن ثم أعطى الحمال قرش لمساعدته في حمل الأغراض..إلى أخره من النشاطات والأفعال اليومية الرتيبة التي يتم تناولها دونما حوادث مهمة ومحددة وجديرة بالتوثيق.ولم يكسر رتابة السرد إلا الأعياد والمولد النبوي وهي الأخرى مناسبات أصبحت مألوفة بفعل التكرار والتعود.على الرغم من ان المؤلف يمتلك علاقات متنوعة في الطفولة والصبا والشباب وتنقلات مستمرة بين المدن والمساجد، لكننا لا نستطيع المبالغة بعنصر التشويق ولا نستطيع إلغائه.

إن الحياة الرتيبة والفقيرة التي شكلت طابع القرية المصرية (صفط تراب) بداية القرن الماضي، خلقت ثقافتها وفلسفتها في فهم الحياة والتعامل مع الآخرين.لكن المؤلف وقف عند الجانب الديني فقط، عند بدايات الكتاب وتعلم القرآن، ثم أجواء الأزهر الدينية والاجتماعية والسياسية وطبيعة الدروس وأنواع الفتاوى وتطورها وعلماء الأزهر واختلافاتهم، ومراحل الدراسة الدينية وصراعات الأخوان المسلمين الداخلية والخارجية وأخيرا رحلته في أرض الله الواسعة بحثا عن الرزق والعلم والدعوة إلى الدين.وفي كل هذا النشاط الطويل والمستمر لم نلمس الآخر في مذكرات المؤلف .غياب الآخر أتخذ عدة أشكال تجلت في غياب الحوادث والصراعات والأسماء.ففي الشارع المصري ، بداية القرن العشرين ، كانت الصراعات على أشدها بين الشعب المصري وبين الاحتلال ومن ثم مع الحكومات المتعاقبة، كان أبطالها من كافة الشرائح الاجتماعية والأحزاب السياسية والتوجهات الدينية، وأغلبهم ذاق السجن والتعذيب والمنفى.كان يومها نشاط الدكتور يوسف القرضاوي مرتبطا بالتجوال بين القرى والأرياف كداعية إسلامي يلقي خطبة الجمعة تارة وأخرى يحضر اجتماعا دينيا وسط العوز والجوع والصوم والسير الطويل المسافات، حاملا معه كتاب الله والعلماء الأوائل وأسماء المفكرين والدعاة الإسلاميين والمجلات والصحف الإسلامية.ولكن هذه الأمكنة التي زارها المؤلف والتي سيزورها في الحلقات الأخريات تمتلئ بالقوميين والشيوعيين والاشتراكيين وغيرهم من الديانات والقوى التي أهملتها المذكرات.فلقد كان السياسيون على تنوع مشاربهم وقناعاتهم قد عاشوا ظروف السجن في (الطور، الحربي، ليمان طره) ولكن المؤلف لم يقف على مسافة واحدة من الجميع واكتفى بمعاناته ورفاقه من الأخوان المسلمين وكذلك اختلافاته مع علماء وأساتذة مثل المودودي في فكرة الحاكمية ومع سيد قطب في تكفير المجتمع ولكنه لم يتطرق للآخر الذي سبقه إلى السجن أو النضال.بل إنه لا

يذكر الآخرين إلا في معرض الذم والتكفير دون حوادث أو مواقف أو أسماء وهل كانوا وطنيين أم عملاء، وكان لا يذكر الشيوعيين إلا وربطهم بالكفر واليهودية (الشيوعية بنت اليهودية).إن سلسلة كتاباته المعنونة (حتمية الحل الإسلامي) والتي جاءت كرد فعل على ما صدر في ميثاق مصر الذي ركز على حتمية الحل الاشتراكي حيث عارض القرضاوي الأفكار الواردة فيه بمفردات ومصطلحات تؤكد أن المؤلف جزء من الحالة السياسية المصرية العامة ولكنه في المذكرات لم يتوقف عند ذلك كثيرا وكأنه يريد تعقيمها من هؤلاء.وغالبا ما يختار مفردات الاستفزاز والاحتقار مع السياسيين المناوئين ويسميهم"عبيد الفكر الغربي"وكان كلما ذكر ثورة(١٩٥٢) يتهم جمال عبد الناصر ويحمله مسئولية ما حصل للإخوان وفشل الوحدة السورية المصرية وحرب الأيام الستة وكل ما من شأنه أن يسيء إلى الرجل.لقد أفسدت مواقفه السياسية تسامحه الديني.ويبدوا أن القوى السياسية الأخرى التي لا تقل تصلبا، تتذكر ذلك باستمرار وكأنها معتادة على عزلة الأخوان وعدم تحملهم الآخر "عشنا وتعايشنا مع المكان.. وليس مع الجيران فجيراننا كانوا من سجناء جماعة الأخوان.ومنذ البداية قرروا أن الصحراء أقرب إليهم منا "٥ لقد كانوا على الجانبين "الأخوان والشيوعيين" يقللون من شأن بعضهم بعض ويأخذون من تجارب بعضهم بعض.فمثلما حول الأخوان السجن إلى جامع وجامعة وجمعية فالشيوعيين حولوه كذلك إلى مدرسة لتثقيف الرفاق وتصليب عودهم وإعدادهم للمستقبل، على الرغم من أنهما معا يعرفان جيدا أن السجن يقتل أجمل الأشياء بالإنسان.إن غياب القوى الأخرى في عملية السرد عند القرضاوي صبغها بلون واحد أدى إلى إضعاف الحركة داخل النص وجعل من الأخوان المسلمين القوة الأساسية والوحيدة بالشارع المصري، مثلا عندما ألغى مصطفى النحاس باشا معاهدة (١٩٣٦) التي وقعها من أجل مصر ومن ثم طالب بإلغائها من أجل مصر عام(١٩٥١) وأصبحت قضية رأي عام تشغل الجميع لكننا في

الكتاب الذي بين أيدينا لا نجد غير الأخوان ضحايا.قادة للمسيرة وموقدين للشعلة،ولذلك نجد الغياب واضحا في مفردات الوطن والوطنية والنضال وقد حلت محلها مفردات التربية الإيمانية ودروس الجهاد والدفاع عن بيضة الإسلام وكل ما من شأنه إبراز دور الأزهر ومكانته.

مع إن المذكرات تتاخم التاريخ وتروي عن الآخرين أكثر من روايتها عن الذات إلا أن غياب الآخر في مذكرات الدكتور يوسف القرضاوي كان واضحا ولم يتوقف فيه عند العامل الديني _السياسي فقط والمتمثل في تجربته في حركة الأخوان بل نلمسه في الاجتماعي والثقافي كذلك.ففي الجزء الأول لم يستطع القارئ إيجاد مكانا لامرأة بين العشرات من الأسماء والمواقف التي تعرض لها،لا زوجة ولا حبيبة ولا صحافية ولا امرأة تشتغل في مجال الدعوة والفكر الإسلاميين.لقد كانت سيرة ذكورية بامتياز.حتى الحلقة اليتيمة المخصصة لهن في الجزء الأول (مع شقائق الدعاة والأخوات المسلمات) جاءت خالية من أية دور أو تأثير واختصر ذلك بكلمات قليلة تنهي الموضوع.إن دمج حياة الراوي الشخصية بالدين إلى حد فناء الأول في الثاني أدى إلى غياب الأنثى والحب والألوان والفنون على الرغم من قول الشعر وحفظه. المؤلف توقف في رحلته عند مئات الأسماء للمدن والقرى والمساجد والعلماء والخطباء لكنه لم يتوقف عند صالة مسرح أو سينما أو متحف باستثناء تلك التي تحوي آثار إسلامية،مع غياب واضح للأسماء المبدعة في مجال الثقافة والإبداع في زمن كانت فيه مصر في قلب التطورات الثقافية والسياسية أنتجت أعلام في الرواية والشعر والمسرح والسينما لم تزل آثارهم حتى اليوم بادية بالشارع العربي.

إن استعادة الحوادث عملية معقدة ومستمرة تشترك فيها الذاكرة والمخيلة والعقل،تسعى إلى بناء ثقافي لما وقع من أحداث عبر إعادة تنظيم للمعلومات تنسجم والعناصر الواقعية في سياق اجتماعي معين؛أي أن أسلوب الاستعادة مرتبط بطبيعة المعلومة التي تقدمها الكتابة،وبالتالي فهي ترتبط بعلاقة بنيوية

مع الحادثة التي وقعت، إذ لا يمكن الحديث عن أسلوب أو معلومة في كتابات الأدب الشخصي دونما حوادث توضح ذلك.ذاكرة القرضاوي المكتظة بالحوادث تستند إلى بنية فكرية تغرف من الماضي أكثر من أي نبع آخر.فالكمال خلفه على الدوام وإن استعادته وتذكره هو تقربا من الله والنبي(ص)والصحابة. القرضاوي - قياسا بالآخرين - وعلى الكتاب الذي بين أيدينا، يمتلك ذاكرة قوية ولماحة فيما يرويه من حوادث على عكس ما ذكر في مقدمته، ومذكراته تضج بالمعلومات التاريخية والسياحية التي زارها، بل أنه يتذكر مقالة له لم تنشر في مجلة(منبر الإسلام) قبل نصف قرن، ويتذكر في رحلة سريعة إلى العريش كل أسماء المساجد وأسماء أعيان المدينة ومضمون خطبة الجمعة التي ألقاها بعد نصف قرن على زيارته لها.وكان قد أورد كل أنواع المديح الذي قيل في كتابه الأول(الحلال والحرام في الإسلام) قبل نصف قرن ومن قاله وأين وكيف.ولكن القرضاوي تنطفئ ذاكرته عند المواضيع التي لا يحبها أو لا تمتلك علاقة بمشروعه الدعوي ولذلك ليس مصادفة أن يتحدث عن خطبة الجمعة في العريش وعن موضوعها وأهميتها أكثر مما يروي عن ثورة يوليو(١٩٥٢) وهو من معاصريها.

إن عناصر الحادثة الجديدة في الزمان والمكان والأفراد التي تبدأ بالتشكل لحظة وقوع الأمر تمتلك وجودات واقعية في حياة المجموعات وثقافتهم ومصالحهم؛أي أنها متحققة على الأرض وتبدأ في التشكل في رؤوسنا عند وقوع الأمر لتمييز هذه الحادثة عن تلك أو ربط هذه بتلك.إلا أن هذه العناصر سيطولها التهميش في حالة ربطها بالحادثات المقدسات والعتيقات. فالحادثة المقدسة كل عناصرها مقدسات.مفتوحة على بداية الخلق ونهايته ولا ترتبط بتحديدات لغوية كتلك التي يجري فيها الزمن العادي.وتحيط نفسها ببناء تاريخي تم أعادة ترميمه على مر العصور، أنتج ذلك وظيفة اجتماعية ودينية لا يمكن فصلها عن حياة الناس وجعلتها قادرة على الإجابة عن الأسئلة الراهنة

والمستقبلية.لذلك من السهل أن يبتز الزمن الأول ما عداه ويعلو المكان الأول على ما دونه وتسبق أسماء الأوائل من تبعها.وأي خلل أو شك أو نسيان لعنصر من عناصر الحادثة الجديدة سيدفع برجل الدين إلى مدها بضوء الحادثة المقدسة المتحررة عن زمنها الحقيقي والمحصنة بالنصوص القرآنية والأحاديث الشريفة وأقوال الصحابة، أكثر ما يدفعه للبحث والمقارنة في ظروفها التي وقعت فيها، خصوصا وإن التفاضل بين زمنين تقنية حاضرة على الدوام في حياة الدعاة وخطبهم.

الدكتور يوسف القرضاوي يروي من زاويته وموقعه الحوادث الخاصة والعامة، إلا أنه في تلك التي تتضمن دوره يطيل الوقوف فيها عند عناصر الحادثة أكثر من تلك العامة التي تتطلب المواقف والشروحات السياسية والحزبية التي تستدعي أحيانا القفز على الأزمنة والأمكنة لتوضيح الفكرة.إن طفولة المؤلف تنقلت بين البيت والمسجد كأمكنة حميمة لرجل الدين المشبعة أفكاره بالإيمان والتوحيد،وحتى لو تجاوزت سفراته حدود (صفط تراب) للقرى المجاورة في إطار الدعوة والعمل فإنها ستكون كذلك من مسجد إلى آخر في شهر رمضان وفي المناسبات الدينية المتكررة.ونظرا لتجربة المؤلف الواسعة والطويلة في حياة متحركة ونشاطات مكثفة فإن ذلك يستحضر أمكنة متعددة ومتباعدة، ونستطيع القول أن ذاكرة المؤلف خارطة تاريخية لمئات من المساجد والتكيات ودور العبادة في مصر وخارجها،يروي عن أهميتها الدينية والتاريخية والسياحية كونها أمكنة مرتبطة بكتب سماوية وأساطير وحكايات تكسبها بناء لغويا مختلفا وقد يكون مركبا من أكثر من كلمة،ومشتركا لأكثر من دين وقوم.القارئ يشعر،على الرغم من تنوع أمكنة العبادة بين التاريخي والحديث والمحلي،ببطء إيقاع السرد المؤدي إلى فقر هذه الأمكنة وغياب خطوطها وأثاثها بسبب تشابهها ورتابة وظيفتها.فهي أمكنة خططت من الداخل لوظيفة العبادة ولا تحتمل التغييرات والافتراضات

التي تتصادم وذلك، ومصممة بعناية وألفة لاحتضان المؤمنين اللذين يبنون علاقتهم بالمكان على أساس تأثيراته الرمزية والدلالية التي تجعل منه أجمل وأوسع وأطهر من الأمكنة الأخر.المكان المقدس بز غيره من الأمكنة والشواهد الحضارية كالأهرامات ونهر النيل وشواهد الإسكندرية وغيرها من الأمكنة التي سبقت الأديان ولا نلمس وجودها في المذكرات أو دورها في حياة المصريين.

وعلى عكس ما سبق نرى فترة مكوثه في السجن وصفها بتفصيل مذهل عن عدد الطوابق والزنازين وموقع كل سجين ودورات المياه،ونجدها أمكنة أكثر حضورا وتنوعا وقدرة على تجديد ضحاياها وجلاديها.فلقد خصص المؤلف خمس حلقات في الجزء الثاني عن فترة سجنه في السجن (الحربي) على أنه توقف في الجزء الأول من مذكراته عند فترات سجن متباعدة وأمكنة موحشة، كان فيها الأخوان معزولون عن بعضهم وعن الآخرين ودون جرائد أو وسائل اتصال أو زيارات وقد أنساهم الرعب وسائل العيش الطبيعية.إن حالة الاعتقال التي تعزل الفرد مكانيا وزمانيا أدت إلى إبعاد القرضاوي وأصحابه عن ما يجري خلف الأسوار وانكفائهم إلى الداخل في تكوين علاقات مثالية بين السجناء تقوم على المودة وتبادل الأفكار والمعلومات وتنظيم النشاطات السياسية والترفيهية والثقافية.القارئ يجد في هذه العزلة عشرات الحوادث الصغيرة تتجمع عند موضوعة واحدة هي إبراز دور السجن وما يمارسه من إذلال واحتقار بحق البشر بدأ من المراحيض والأوساخ وانتهاء بالبرد والحر والبق، بل إننا نجد الحوادث اليومية العابرة والمنسية كالأكل والشرب والصلاة ولقاء الأصدقاء قد بقيت في ذاكرة الراوي وزملائه بسبب غلق أبواب السجن وعدم السماح لهم باللقاء، وبعد أن سمحوا لهم بذلك وجدوا في اليومي والعادي مفعول السحر وقوة الحلاوة كما حدث في صلاة الجمعة بالسجن (الحربي) بعد أن حرموا منها أعوام طوال وعندما صلوا جماعة أحسوا بخشية وطعم وقرة عين لم

يتذوقوها من قبل وهطلت دموع فرح على خدود المصلين بقوا يتذكرونها بعد أعوام على خروجهم من سجن "الحربية".

إن تقسيم المؤلف مذكراته لأجزاء وحلقات كل منها يتناول مرحلة معينة من حياته، ساهم في توضيح خط سير الحوادث وترابطها زمنيا "وتشمل هذه المذكرات "الجزء الثالث " من سنة ١٩٦٥ إلى سنة١٩٧٨م .وقد وقعت فيها أحداث مهمة على المستوى الشخصي وأحداث جسام على مستوى الأمة "٦ وأحيانا يشعر القارئ بأن المؤلف يروي أحداثه عام بعد عام "لا أذكر في أشهر السنة الدراسية الأولى حدثا مهما يستحق التسجيل، وإنما وقعت الأحداث المهمة وبل والشديدة الأهمية في أواخر السنة الدراسية "٧.بتأثير من ثقافة المؤلف فإن الزمن من الحلقات الأول التي تروي عن الطفولة، يعلن انتسابه للمقدس حيث نجد الصلوات الخمس وخطبة الجمعة وشهر رمضان والأعياد والمناسبات الدينية هم اللذين يوضحون سير الزمن ويحددون النشاط والسفر وكثرة اللقاءات والأمسيات والخطب وقد وقف المؤلف عند ذلك مرات عديدة مكررا نفس الطقوس والمفردات في القرية والمدينة والمنفى.هذه العادة الإيمانية ارتبطت بحياة المؤلف إلى وقت صدور هذه المذكرات (مذكرات أبن القرية والكتاب)حيث نجد كل جزء منها جديد يصدر في شهر رمضان من كل عام. وضوح المقدس نلمسه كذلك في زمن السرد وأسلوبه المنفتح على الماضي أكثر من غيره، مصحوبا بالنصوص القديمة والأسماء والحوادث والقصائد الجاهلية والعباسية التي تشعر القارئ بان للحوادث أنسابا في الماضي وليس فقط مرتبطة بظروفها التي أنتجتها.حتى الهوامش التي ثبتها المؤلف تهدف إلى العودة بمخيلة القارئ إلى زمن الأجداد ومأثوراتهم وعملاتهم النقدية وأساليب تكاتفهم الاجتماعي والديني، وهي عودة تحدث في ذهن المؤلف والقارئ وليست على ارض الواقع.إن ربط الحادثة الجديدة زمنيا بالحادثة القديمة /المقدسة، الأصلية/ وانتسابها إليها مجازا خارج مفاهيم البحث والجدل، وبعيدا عن اتفاق أو

اختلاف الظروف التي أنتجتهما يعطينا الإحساس بأننا في زمن تراجعي، ديني لا تاريخي، زمن من مخلوقات الله لا ينتهي إلى يوم الدين، ثابت أصله ولا نستطيع إزائه الاختلاف والتشكيك.

القرضاوي في روايته للحوادث لا يخفي زمن السرد ولا يهمل - بسبب قوة ذاكرته واعتماده على من سبقوه وعلى أرشيف الدولة - التحديدات الزمنية كالشهر والسنة، لكننا لا نشهد أسلوبا واحدا لسرد الحوادث فنشعر أحيانا بالعبور السريع على غير المهم منها أو الاختصار لغرض في نفس الراوي وقد يتم القفز إلى المستقبل أو الماضي لتحديد فكرة معينة أو لتوضيح موقف أو شخصية معينة كما في حالة دخوله السجن أول يوم حيث يبحر بعدها للماضي صفحات عديدة ومن ثم يعود بالنهاية لليوم الثاني من سجنه.

إن وجود الأفراد والصناع في الحادثة المروية يعد عنصرا أساسيا فيها من ناحية التوثيق والتمييز على اعتبار أن الحادثة يمكن تسيبها إلى مكان وقوعها أو زمانها أو للأفراد اللذين صنعوها.والمذكرات التي بين أيدينا هي نموذج طيب على كثافة أسماء الأعلام التي ذاع صيتها القرن الماضي ومطلع القرن الجديد.فهي مذكرات طويلة وعديدة الصفحات وتتصف بالإسهاب والتنوع بسبب مهنة الراوي في مجال الدعوة وتجربته الحياتية الغنية التي لم تنقطع حتى اليوم بعد أن أوصلته إلى نادي مشاهير الإسلام ونخبتهم. مهنة المؤلف كداعية إسلامي تتطلب التنقل بين القرى والأرياف والتعرف على أحوال الناس، صنع ذلك علاقات وأسماء ومواقف شكلت جزء كبيرا من حياة المؤلف ولذلك ليس مصادفة أن تعنون أسماء كثير من الحلقات والفصول الداخلية بأسماء الأفراد (علماء ومشايخ وساسة) وأن يغطي لقائه وعلاقاته بالأمراء والعلماء على الحوادث أحيانا.الأسماء تحفز الذاكرة وتستدعي الحوادث المنسية كما في عودته إلى مصر بعد حجته الأولى ليفجع بموت صديقه (محمد الدمرداش) ليسترسل صفحات وأحداث ومواقف مختلفة الزمان والمكان أدت

إلى إبراز قيمة الرجل وأدبه وعلمه وتقواه؛أي أن الاسم هنا هو نقطة الضوء التي تتجمع حولها الأحداث وليس الوقوف عند خصوصية الأحداث وطبيعتها وتلقائيتها وترابطها مع جاراتها من الحوادث على أرض الواقع،وهو ما يحتم أسلوبا في الروي متذبذبا ومتفاوتا ومرتبطا بهدف إبراز دلالة الاسم أكثر من الحادثة نفسها.كثير من الأسماء التي يتذكرها المؤلف تأتي للأمانة التاريخية وإنصاف دور هؤلاء الرجال وعلمهم ولكن أغلب ذلك جرى دونما حوادث.في سيرة القرضاوي يصادف القارئ مئات الأسماء للأهل والأصدقاء والمشايخ والعلماء والأمراء يعكس ذلك تجربة المؤلف وذاكرته التي تحتفظ بكل ذلك،ولكنه لا يصادف أسما لامرأة بينهم وزيرة كانت أم عالمة أم داعية.فثقافة المؤلف التي تحرم رؤية ما أمر الله بستره تدفعه كذلك إلى إغفال الأسماء التي قد يمسسها الضرر لو اطلع الناس بعد نصف قرن على أسرارها ولذلك نجد كثير من النساء اللواتي تقدم القرضاوي شابا لخطبتهن كن دون أسماء.وحتى عندما كلفه الأزهر بتأليف كتاب "الحلال والحرام في الإسلام" والذي سبق وإن كلف به علماء آخرون غيره ولكنهم لم يفتح الله عليهم –حسب تعبيره- ولم يوفقوا في ذلك وكان أحدهم قد سحب كتابه من المطبعة عندما سمع عن كتاب القرضاوي,نجد المؤلف لا يذكر أسماء هؤلاء العلماء.وهذه الرؤية على قدر ما فيها من إيجابيات في الحياة الاجتماعية والعلمية والدعوية إلا أنها في مجال الكتابة السيرذاتية وبعد نصف قرن على وقوع حوادثها وانتفاء أسباب تأثيرها فإن ذلك سيترك انطباعا سلبيا عند القارئ المتشوق للتفاصيل الواقعية، ناهيك عن أن ذلك مؤلما للحادثة نفسها عندما تكون ناقصة التوثيق لأغراض في نفس الراوي.

وأخيرا فإن المذكرات التي بين أيدينا ليست دينية وإن غلب عليها ذلك لأنه لا توجد حادثة من تلك التي رواها المؤلف دينية خالصة ونقية من أية متعلقات ثقافية واجتماعية وسياسية لمجموعات أخر.أنها سرد منطقي لحوادث عامة

متتابعة زمنيا تروي تجربة الفرد في المجموعة، تم فيها التركيز على أسماء وأفعال معينة .

الهوامش

١- الدكتور يوسف القرضاوي – مذكرات أبن القرية والكتاب – موقع إسلام أون لاين – ٢٠٠١.الأجزاء الأول والثاني والثالث.

٢- المصدر نفسه – الجزء الأول – الحلقة السادسة عشر.

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه.

٥- الدكتور رفعت السعيد – مجرد ذكريات – مكتبة الأسرة٢٠٠٣ – القاهرة صـ ١٧٩.

٦- الدكتور يوسف القرضاوي – مذكرات أبن القرية والكتاب – مقدمة الجزء الثالث.

٧- المصدر نفسه – الجزء الثالث - الحلقة الخامسة.

وريثة العروش

مذكرات أم مذكرات

إن عادة الانبهار بتجارب السياسيين والمثقفين وبالأسماء الكبيرة التي تقف خلف تلك التجارب، ألهتنا عن السؤال المتداول بتردد عند قراءتنا سيرة لمؤلف مغمور، وهو هل كل التجارب والحيوات تستحق الكتابة والتوثيق أم هي حكرا على تلك الغنية بالدروس والعبر وعلو الكعب؟ وهل كان كوليدرج على حق بقوله (أية حياة مهما كانت تافهة، ستكون ممتعة إن رويت بصدق).إن اشتراطات الكتابة بالأسماء العالية الرنين في دنيا السياسة والثقافة هو نوع من الاحتكار المتوارث في سكون التجربة الإنسانية وضع الكثير من التجارب الإنسانية على هامش الفعل، ولكن هذه المرة خيبت آمالنا مذكرات(وريثة العروش)١ ولم تروى تفاصيلها من شخصية تشغل بال الإعلاميين والسياسيين بل جاءت من امرأة بسيطة ومنسية في ظل البيوت الأصيلة لكنها شهدت حادثات كبيرات ومأساويات شغلت المعنيين أكثر من نصف قرن، تحولت بعد ذلك بحق إلى لبنات من تاريخ المنطقة.إن بساطة التجربة هنا لا تلغي حق المساهمة في قول الحقيقة وإبداء الرأي والحد من التشوهات التي طالت حوادث ليس بمقدور الجميع أن تتاح لهم فرصة القرب والمعايشة اليومية لتفاصيلها من الداخل.هذه البساطة التي طبعت المذكرات جاءت إلى جانب الأميرة "بديعة" في روايتها الحوادث كما وقعت أو كما عاشتها دونما مبالغة معززة بالمكان والزمان والأسماء.فكثير من السياسيين والمثقفين والصحفيين تناولوا نفس الحوادث اعتمادا على شهادة الآخرين وكتاباتهم ورواياتهم دونما قرب أو معرفة

حقيقية أدى إلى رسم ملامح أبطال مشابهون وبعيدون عن حقيقة وجودهم وأحيانا أمكنة متناقضة ، أنتج كل ذلك حوادث موازية لتلك التي وقعت بقصر الرحاب وغيره من البيوتات الملكية.إن الكتاب الذي بين أيدينا روته شاهدة أخيرة على مجزرة مروعة راح ضحيتها جميع أفراد العائلية الملكية بالعراق، مجزرة أحاطت بها الشعارات الثورية والوطنية والقومية إلى درجة حولت قتل النساء والأبرياء فيها من مجزرة إنسانية بشعة إلى ضرورة تاريخية،وأحيانا إلى حقائق ثانوية تنتمي للماضي.

إن القارئ إذ يبحث عن وجوده وشكوكه في الكتابات السيرية المعاصرة فإنه في تلك البعيدة يبحث عن ما فعله الآباء والأجداد الذي قد يرفع من قيمة أصحابه أو يحدث العكس خادشا زجاج القداسة الاجتماعية والمطلقات السياسية وفاضحا القسوة والتخلف والقتل المجاني الذي مارسوه في وضح النهار.الأميرة بديعة شاهدة تذكرنا بالحوادث التي تقع في بيوت الملوك على أنها حوادث لا تحضر فقط لمعرفة أسرار حياة الملوك أو بصفتها مادة للتحليل السياسي الذي درج الآخرون على توريطها فيه،بل لها دلالتها عند المؤرخين وأسرارها عند المعنيين وموقعها عند الأحياء من سلالة الملوك،باعتبار أن التجربة المرتبطة بالصراعات والأزمات والملوك والقادة غالبا ما توفر مادة وثائقية غنية ومتنوعة عن طبيعة المجتمع ورجالاته وقادته،وهذا ما يجده القارئ على غلاف المذكرات الأول (أهم وثيقة عربية في القرن العشرين) .

الأميرة بديعة ابنة الملك علي وحفيدة الشريف حسين بن علي أمست الشاهدة الوحيدة مصادفة على المجزرة بعد أن كانت في زيارة وزوجها عند أقربائهم يوم وقوعها،اضطلعت بعدها بدور الراوي في المذكرات عنها وأهلها وأصدقائها والحوادث التي مرت بهم،لتروي لنا حياة العائلة المالكة الهاشمية التي أتعبها الترحال والأيدي الملوحة والحزينة من دون أن تدري إلى أين تتجه وأين تستقر بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي صاحبت نشوء الدول العربية في

بداية القرن العشرين ودخول الاستعمار الانكلو- فرنسي.إنها تروي الحوادث لا تبتكرها ،دون رتوش وقريبة من الواقع وقبل أن تطوقها التحليلات والنوايا.ليس لأننا نميل إلى رواية الضحية فهي ببساطة جزء من حياتها ،وتروي تفاصيل لا يستطيع غيرها روايتها .من هنا فإن الحياد والأمانة وحقيقة التفاصيل التي وردت يستطيع القارئ التأكد منها في أسلوب السرد وحرارة المعاناة والمقارنة مع ما كتبه الآخرون سلبا أو إيجابا.فالحوادث الاستراتيجية والمفصلية والمأساوية غالبا ما تتحول إلى ميدان صراع وتجاذب بعد أعوام على وقوعها تدفع بعضهم إلى تأكيد المعلومة وآخرين إلى دحضها ،مستخدمين أدوات التحليل والتأويل التي تقترب أو تبتعد عن حقيقة وقوع الأمر وتفاصيله الصغيرة.

الأميرة في (وريثة العروش) تروي عن البدايات التي تتداخل فيها الذات بالتاريخ والجغرافية ،وكيف كانت نجاتهم من الأخطار المستمرة التي جعلتهم يرون المدن التي يصلون إليها مضيئة وهي ليست كذلك،من الحجاز إلى الشام ثم عمان والعراق،ملوك دون تيجان لا يودون للآخرين أن يركعوا أمامهم فالركوع لله وحده وبغير ذلك يمس بكرامة الإنسان،فلقد كانت الأم المؤمنة . أم الأميرة بديعة . تعتقد بنهايتها في جنة الله ما عدا يدها اليمنى فإن وجهتها جهنم من كثر ما قبلها الرجال عند السلام عليها.على الرغم من أن العائلة المالكة ملكت وتملكت في الحجاز والشام وعمان وبغداد لكنها لم تعتد حياة البذخ والرخاء إذا ما قيست بملوك العرب والعجم يوم ذاك.فأين قصر الرحاب المتواضع ببغداد من قصر الملك فاروق بمصر أو الشاه بإيران.لقد كان ملوك العراق في أيامهم الأولى يستأجرون البيوت في مملكتهم لحين استكمال بناء قصورهم، لتبقى تلك القصور متواضعة وغير مبلطة الشوارع بدعوى أنها لم تقع ضمن نطاق مهمات أمانة العاصمة ويتطاير التراب إلى داخل البيت كلما مرت عربة مسرعة لتغطي أغراض البيت بطبقة من الغبار .

إن بساطة التجربة وتلقائية المذكرات دفعا بالمؤلفة إلى عدم الرد على ما

قيل وكتب ضد العائلة المالكة والابتعاد عن الشرح والتأويل في سرد الحوادث، ولقد ساعدها ذلك في تعين الزمان وبناء الأحداث عموديا في ترابط منسجم ومتواصل.إن سرد الوقائع ببساطة وعمق ملوكيين، وبأمانة معززة بالأسماء والأرقام والأمكنة لهو أفضل وأسهل من أسلوب الرد على الاتهامات والأكاذيب التي تطال الحادثة أو الشخص، خصوصا وأن موضوع العائلة المالكة تناوله كثيرون " أو أن تحكي الأميرة قصتها للتأريخ كمصدر وحيد وفريد لرواية الحدث، على أن أقوم أنا بصياغته.إذ من خلال هذا الطريق تستطيع أن تقول أشياء كثيرة، وأن ترد على الكثير من الإساءات والطعون التي قيلت بحق العائلة المالكة "٢ .

الأميرة لم تثقل كاهل الكتاب بالتحليلات التاريخية واستشراف المستقبل ولم تدعوا الأجيال القادمة للاستفادة من دروس وتجربة العائلة الهاشمية، بل عمدت إلى وظيفة للمذكرات أكثر تواضعا وهي تذكير الناس بحقيقة ما وقع وإزاحة الغموض عن حياة الملوك "لست هنا في مذكراتي زاعمة بأني سأوفيه حقه - أبيها ملك الحجاز علي بن الحسين - وحق أعمامي الملوك وسائر الأشراف، فهذه ليست مهمتي أو هدفي، بقدر ما أريد تذكير الناس ببعض سجايا أهلي وأخلاقهم "٣.أي إنها مذكرات (بفتح الكاف)ومذكرات(بكسر الكاف)لتذكير الناس بالجانب المشرق وبالتجربة المحزنة والمريرة للعائلة المالكة بالعراق والتي انتهت بمجزرة جماعية فظيعة قتل فيها كل أفراد العائلة الهاشمية بالعراق في أحداث الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨وهذه المأساة هي المعلومة الأساسية التي تستند إليها المذكرات وتغرف منها والتي ستؤدي إلى تشابه وتكرار ودعوة للمقارنة في التفاصيل والأسماء والعناوين والمعاناة والتأثيث الداخلي للحوادث بسبب كثرة تناولها من المؤرخين والساسة.المعلومة الأساسية هنا واقعة تاريخية بكل المواصفات وليست من السهولة بمكان التلاعب بعناصرها وتفاصيلها على الرغم من كثرة وتنوع رواتها.فالواقعة تغتني

بروايات الآخرين ووجهات نظرهم سلبا أو إيجابا من دون أن تتغير حقيقة وقوع الأمر في الزمان والمكان المعلومين وأسماء صناعها "القاتل والمقتول" والظروف التي صاحبتها.

الحادثة المفصلية والمأساوية في تاريخ الشعوب والمدعمة بالوثائق والشهود الأحياء والدراسات والمذكرات تشكل تقييما لحيثياتها ودعما لها في أن تكون معلومة تاريخية، ولكنها عند صانعيها وأبطالها تستدعي إلى جانب ذلك المعاناة الشخصية والعناصر الحقيقة في المكان والزمان والأفراد متخلية إلى حين عن دور المخيلة في رواية ما حدث.لكن ذلك لا يمنع من تعلق كثير من مفردات السياسة والتاريخ والأدب بأذيال الحادثة الإستراتيجية.فبعد وقوعها المدوي والمؤثر تكتمل الحادثة ولكنها سرعان ما تصبح ملكا للجميع، ضحايا ورواة ومؤرخين وجلادين، وتتسرب إلى الذاكرة الشفاهية التي تحولها بدورها إلى حكاية أو أغنية أو لوحة أو قصيدة شعر أو مثل شعبي.

إن مستهلكي الحادثة المستندين إلى خليط من الذاكرة والمخيلة والمواقف المسبقة نجدهم على العكس من صناعها لهم فهما ومصلحة بعيدة عن حقيقة وقوع الأمر،وهو ما أدى إلى الكثير من التشويهات والطعون بالعائلة المالكة بالعراق؛ أي إلى إعادة إنتاج الحادثة .

المعلومة الخبرية التي انشغلت المذكرات بتوصيلها احتوت كثيرا من الغرائب المأساوية،والأكثر غرابة في هذه المعلومة التي عرفت أكثر تفاصيلها داخل العراق وخارجه ويلوكها النساء والرجال والأطفال والشيوخ،أنها بقيت خافية أكثر من أربعين عاما عن الأميرة بديعة،الناجية الوحيدة من تلك المجزرة كي لا تعرف تفاصيل القتل وبشاعة التمثيل بجثث العائلة المالكة وحاشيتها.يبدو إن هذه المعرفة المتأخرة بالسر المعلن - إضافة إلى أسباب والحاحات أخرى - قد ساهمت في إخراج الأميرة عن صمتها بعد نصف قرن لتسرد لنا ما جرى "أستمر موتهم تباعا وكأنهم يقفون في طابور طويل في

انتظار دورهم المحتوم، فرغت بيوتنا من حماتنا ورعاتنا "٤ .إذا كانت المعرفة المتأخرة تنتج مرارة وأسى فإن الرواية المتأخرة لحقيقة وقوع الأمر غالبا ما تصحح معلومة أو تنصف شخصا أو تحدد مكانا.إن انتقاء الأحداث وطريقة توصيلها بعد نصف قرن على وقوعها يؤشر إلى التجربة عبر أهم محطاتها المتمثلة في المصير الذي انتهت إليه العائلة المالكة حرقا وقتلا وسحلا والذي لا زال الكثير من الخصوم السياسيين يعتزون ويحتفلون فيه كمناسبة وطنية.إن التطور العمودي والسريع للحضارة الإنسانية لم يخفي التدهور الأفقي للتاريخ البشري وتراجع القيم الاجتماعية والأخلاقية بل جعل من التدهور والتراجع أحيانا أسباب استمراره وسلم صعوده.

وريثة العروش مذكرات اجتماعية مأساوية ذات أبعاد سياسية نجحت في أزاحت الغموض الذي كان يلف تجربة العائلة الهاشمية في تأسيس الدولة العراقية بداية القرن العشرين، ولذلك من الطبيعي أن نجد المادة السردية للمذكرات قد توزعت على مستويين، داخلي وتناول الأبطال وتفاصيل حياتهم الاجتماعية والسياسية والأمكنة التي سكنوها أو تركوها وهواياتهم وحياتهم العاطفية والعائلية، وخارجي تجسد بالخطر المتربص بالعائلة الهاشمية وبالمؤامرات التي يحيكها الآخرون "السياسيون والعسكريون" في التخلص من العائلة المالكة.لذلك فإن المذكرات وهي تروي مأساة أحداث مضت، تحرك في القارئ حنينا وتعاطفا ومسؤولية في فهم الدرس.

نساء القصر لا يتدخلن بشكل مباشر بالسياسة " فنحن بنات القصر لم نكن نهتم بالسياسة، ولا نقرأ شيا مما يكتب فيها إلا ما ندر، فاهتماماتنا غالبا ما انحصرت بالقضايا النسائية ومجلات التفصيل والموديلات "٥ إلا أن الإطار الاجتماعي ـ السياسي الذي تدور فيه فلكه المذكرات يوفر لنا الأرضية التي نستند إليها في معرفة علاقة الراوية بالأحداث التي وقعت.نساء الملوك على امتداد التاريخ على اطلاع تام بما يحدث في القصر وجواره عن طريق الخدم

والحراس وأصدقائهم من المواطنين، وعن طريق الملوك حين يعودون إلى بيوتهم.لذلك نجدهن يعرفن الكثير عن أسرار الدولة ورجالاتها ولديهن وجهات نظر صائبة في كثير من الأحداث والشخصيات خصوصا تلك التي تؤدي إلى أخطاء قاتلة من مثل عدم انسحاب العراق من حلف بغداد بعد العدوان الثلاثي على مصر والذي تعده المؤلفة، إلى جانب كثير من المؤرخين والسياسيين، المؤشر الأخطر على بداية نهاية العائلة المالكة بالعراق .

المذكرات لا تكتفي بنقل الواقع جزئيا. فهي من بين أنواع الكتابة السيرذاتية الأخر تستأنس بالحادثة الواقعية والموثقة والمترابطة والتي تصلح - إلى جانب رصيفاتها - كلبنة في التاريخ.إن سرد الحوادث في "وريثة العروش" بهذا الوضوح والتفصيل بعيدا عن الاحتمالية ومدعمة بالزمان والمكان والأسماء والأرقام ليس بمقدور أيا كان.إنه سرد أرتبط بالمشاركة الفعلية والوجدانية في الحوادث، وبين إحساس الأميرة بالمرارة منذ البدايات التي طبعت بطابع الترحال والقتال وصولا إلى أرض العراق والتتويج ومن ثم الموت؛ أي أن رواية الحوادث هنا أرتبط بالمشاركة الفعلية والتفصيلية أكثر من ارتباطه بالتحليلات السياسية والتأويلات الفكرية والروايات الشفهية.

لقد كان رحيل العائلة المالكة من نجد والشام والعراق هروبا مستمرا إلى المجهول على دابة تارة، وأخرى في سيارة حمل مفروشة بالسجاد الخشن المولد للألم في معانات الرحلة إضافة إلى الحكة في جلد الطفولة الناعم. رحيل ارتبط بتغيير المكان والطعام والوجوه والعادات من مكة وأجوائها الدينية إلى القدس وصداقات المسيحيين وطعام اليهود ثم إلى العراق المرتبط بالعباءات السود وقسوة العيش.رحيل جعلها لم تتعرف على أبيها عند وصولها العراق وهي صغيرة.مفارقات غريبة وبعيدة عن ترف الملوك عززت البعد الاجتماعي للحوادث وواقعيتها وحقيقة وقوعها.

لقد بدأت ملامح الطفولة بالتشكل والوضوح مع الاستقرار الذي تسرب إلى

حياة العائلة المالكة بالعراق.طفولة ارتبطت بنهر دجلة وقواربه القديمة التي تتقل العائلات بصخب وغناء ودفوف في بدايات القرن العشرين، بالأطعمة التي تباع على الأرصفة وكيف ينادي عليها الباعة بالأغاني الشعبية القصيرة التي يرددونها وهم يبطئون من سيرهم في انتظار الأطفال، مشاهد تنبض بالحياة لم تستطع معاناة الترحال أن تلغيها من الذاكرة. في هذه الأجواء الشعبية نسجت الأميرة صداقات ستستمر معها إلى شيخوختها.فلقد كانت تردد بينهم الأغاني التي تسخر من الملك وهو عمها.وهو محصور بين مطرقة البرلمان وبين سندان الانكليز " كنت صغيرة أدخل للسلام على عمي وتقبيل يده الكريمة، وأسمع بعض الأحيان شكواهما من الانكليز وبعض رؤساء الوزراء العراقيين والمسئولين والمشاكل في البلد وإن كنت لا أفهم على وجه الدقة مغزى كلامهما ومراميه "٦.إن حقيقة وقوع الأمر وتلقائية الروي غطيا على ثغرات السرد والتوصيل لتتحول الحوادث إلى مادة خام للمؤرخ والأنثربولجي والسياسي والفنان.

في (وريثة العروش) اتسمت الحوادث بالترابط والوضوح الزمكاني وأسماء الأبطال خصوصا وان المؤلفة تناولت وقائع شهدتها بنفسها، ونادرا ما تتحدث عن حوادث سمعت عنها.فهي عاصرت حوادث كثر الحديث عنها وتناولتها بلغة اتسمت بالرمز والإيحاء والابتعاد عن التهكم والتكذيب والضجيج.وفي ردودها القليلة على الآخرين لم تلجأ إلى ذكر الأسماء أو الإنكار المباشر لكل ما قيل بحق الملوك وتراوحت ردودها بين التقليل من أهمية ما يقال ويكتب أو تبريره بلغة بعيدة عن ردود الأفعال السريعة باستثناء موقفها المتكرر من سيدة الغناء العربي " أم كلثوم " بعد أن غنت لجمال عبد الناصر الذي شمت بمقتل أهلها " لقد سئمت الاستماع لأم كلثوم "٧ ويبدو أن فائق الشيخ علي الذي كتبت المذكرات – موضوع حديثنا - بقلمه قد عمل كمصفاة خبيرة لتتوالى الصفحات سلسة ممتعة وخالية من القسوة.

إن الطبيعة المحافظة لصاحبة المذكرات أدخلتها في إحراجات لم تتوقع يوما بأنها ستواجهها وخصوصا تلك التي تتناول الحياة الداخلية لأسرار العائلة المالكة التي خلقت تشوهات إنسانية أوصلت بعضهم إلى الانتحار أو الهروب أو القتل.وستبقى هذه الأسرار، على الأغلب، حبيسة الصدور، فالمذكرات لا تكتب أكثر من مرة " لم أقل في الكتاب كل ما عندي.ولكن ما في الكتاب هو معظم ما قلته.وبعضه في صدري أو صدر كاتبه، وربما لا تسمح الظروف لكشفه ألان غير أن ما قلته يرضيني، وأحسبه سيرضي أهلي وأحبتي "٨.الأميرة لم تتحرر كاملة من مخاوفها في سرد الأحداث على الرغم من إعلانها المتكرر عن حيادها وأمانتها في نقل ما جرى.فهي لم تروي الحقيقة كاملة ولم تدعي ذلك وحتى مساحة الحرية المتوفرة في لندن التي عاشت فيها نصف قرن لم تخفف من سلطة الإرغامات الداخلية التي تطبعت عليها في بيت ملوكي محافظ.فهي أحيانا لا تستطيع البوح بتفاصيل زائدة وتقول ذلك بصراحة وأحيانا تبوح بحقائق معروفة للجميع لكنها تغفل الجهة التي وقفت خلف ذلك "إلا أنهم - السعوديين - وقفوا ذلك الموقف المشرف معنا بينما لم يقف مثلهم وموقفهم آخرون من أقرب الناس إلينا "٩.

في الحادثة هنالك على الدوام عنصرا غير مهتم فيه بسبب أولويات الراوي أو الزاوية التي يطل منها على الحادثة، وهو ما يخلق الإحساس بعدم اكتمال حقيقتها وبضرورة إعادة إنتاجها.الأميرة عموما لم تقتصر على الجانب المشرق في حياة العائلة الهاشمية وتأريخها ودورها في تشكيل الدول العربية الحديثة في الشام والعراق والأردن، بل كذلك توقفت بشكل مخفف عند الحوادث والأسرار التي بقيت أكثر من خمسين عاما طي الكتمان بعد أن جرى إعادة إنتاجها بالأساليب التي تخدم أصحابها من السياسيين والصحافيين والعامة، مثل مقتل الملك غازي في حادث سير مروع أمام داره وتحويل ذلك إلى حكايات ومؤامرات سياسية وخطط بريطانية. أما هروب الأميرة (عزة) مع خديعها

اليوناني الذي لاكه الجميع دون استثناء،ونهاية فصوله إلى الوحشة والعزلة والمرض والى زيجات غير مرحب فيها خوفا من تكرار الأخطاء.بقي إلى اليوم يعاد إنتاجه في عواصم عربية مكتظة بأعداء العائلة الهاشمية. ولذلك تمت روايتها في "وريثة العروش" باختصار.فالطبيعة الإنسانية الميالة إلى إخفاء أسرارها من جهة،وأخرى الطبيعة الثقافية للسارد سينتجان بمرور الأيام أسلوبا خاصا لرواية الحادثة، وذاكرة قادرة على ترتيب أولوياتها بما يخدم ذلك على الرغم من معرفة المؤلف بأن التعديلات والتحسينات التي تحمي الأسرار والأصدقاء والأهل لا تحمي حقيقة وقوع الأمر من التثلم والتشوه وأنه سيؤدي لا محالة إلى شكوك الآخرين ومن ثم إلى إعادة إنتاجها.

ليس مطلوبا من المذكرات تصحيح أخطاء السياسيين أو تبرير ممارسة أبنائهم أو تمجيد قيم ساكنة ومندثرة،بقدر ما تروي حقيقة وقوع الأمر بالأسلوب الذي يناسب ثقافة الراوي.فبسبب طبيعة الأحداث المبتورة أو الناقصة أو المعزولة قصدا من قبل الراوي أو من يترجم له وهو على قيد الحياة فإن المذكرات ستبدو وكأنها غير مكتملة مفسحة في المجال إلى من يكملها ويعيد إنتاجها "تكون أغلب السير الغيرية ذات نهاية مغلقة وتكون مفتوحة أحيانا عندما يكون المترجم له على قيد الحياة" ١٠ .

مذكرات (وريثة العروش) تمتلك جانبا واضحا من تحسين صورة العائلة المالكة، إلا أن الأزمات السياسية والاضطرابات العسكرية التي واجهت العائلة الهاشمية بالعراق والتي كثرت فيها التحليلات السياسية والعسكرية نتلمسها هنا في الجانب الآخر من الاحتدامات، في عودة الملك إلى بيته وعائلته ليعلن هناك بصدق عن تذمره وحيرته وضعفه أحيانا.فهو في البيت أكثر إنسانية منه في البرلمان أو مؤسسات الدولة الأخر، لتجري الحوادث هادئة وأليفة تستدعي الجلوس والتفاهم العائلي لكنها غالبا ما تنتهي للحزن.فلقد كانت الحرقة والمرارة من المؤسسة العسكرية باديتان في استعادة الأميرة لسلسلة من الأزمات

والانقلابات التي تنتهي بشكل مأساوي وتداس فيها كرامة الملوك بأحذية السياسيين قتلا تارة، وتشويها تارة أخرى. إن ميل الأميرة إلى الإيحاء ووصف كل شيء، الأمكنة والأطعمة والرحلات واللهجات والمهن، كان ملفتا ومؤثرا في عملية التلقي إلا أنه أثقل على الكتابة لأن هذا التنوع لم يوازيه تنوعا لتقنيات الكتابة ومناخات السرد، وبقي صوتا واحدا منحازا للمأساة.

الحادثة تنسج علاقاتها مع أبطالها وصناعها كل حسب موقعه وظروفه.والحوادث السياسية في البرلمان والشارع غالبا ما تنعكس على البيت الملكي اللذين هم أبطال المذكرات.فبعد إن امتنع مجلس النواب مثلا عن تأجير طائرة لنقل جثمان الملكة عالية في رحلة وداع لتموت بين أهلها، وامتنعت أمانة العاصمة عن ترتيب الشارع الذي يمر ببيت الملك وكثرت الأغاني التي تسخر منه، أدى هذا التراكم إلى خلق مناخا كارها وعنيفا مهد الطريق إلى مجزرة جماعية بشعة راح ضحيتها النساء والشيوخ تذكرنا بتلك التي حدثت لقيصر روسيا وعائلته، وفي المجزرتين قتلوا الضحايا من دون مقاومة عزلا من السلاح والحماية، وأغلبهم نساء وأطفال وشيوخ.

عادة الترحال التي ارتبطت بحياة العائلة المالكة بداية القرن الماضي أدت إلى تعرفهم على كثير من الأمكنة والأقوام والعادات تركت تأثيرها على ثقافتهم العامة، ولذلك نجد الأمكنة الأولى قديمة غير واضحة المعالم لكنها واضحة من جهة المعاني ومرتبطة بالعواطف والذكريات والحكايات القديمة. نتعرف على المكان الأول في حارة (القشاشبة)وعادة التلصص من فتحات الشبابيك الصغيرة على الحجاج والمعتمرين الطائفين والمصلين في البيت العتيق، وبعد ذلك القصر الجميل الذي بناه جدها وأسماه (ركبان شبرى) تأثرا بشبرى المصرية والذي تحول فيما بعد إلى متحف، ومع بداية الاستقرار النسبي في العراق بدأت الأمكنة بالوضوح، أسمائها وأسماء بناتها ومهندسيها وتواريخ بنائها والأشكال الهندسية لأجزاء البيت وأثاثه ومقتنياته المعبرة عن ترف الملوك

ورومانسيتهم.أمكنة واقعية احتوت أحداثا وأسرارا، ففي هذه الغرفة التي تقع إلى جانب الصالة كانوا يلتقون بالمخبرين كي ينقلوا لهم ما يجري في الشارع العراقي أو في صفوف الجيش,وتلك الغرفة التي حولت من بالكون إلى غرفة نوم أوت الأمراء ليلة وفاة الملكة عالية. وثالثة هي غرفة مع حمام خصصت لولي العهد ومربيته ثم غرفتان أخريان أسكنت فيهما الملكة عالية بنات يتيمات تبنتهن وحظين برعايتها، مع وصف لنوعية الأثاث وطرق التهوية أعادنا إلى الأوائل وأساليبهم المعمارية وكيفية التعامل مع تلك البيوت التي تقع على نهر دجلة وتتأثر بزيادة منسوب مياهه. جدران ليست بوصفها أحجارا فقط بل وعاء يحتضن الحوادث وتتجمع فيه معاناة الملوك وثقافتهم وقيمهم الاجتماعية.لكننا من الناحية الأخرى نجد المكان يفتقر للملامح الخارجية بسبب طبيعة العائلة العراقية المحافظة التي تقضي معظم أوقاتها داخل البيت، فلا نجد أثرا للسوق والمقهى.أي إن طبيعة التقاليد المحافظة في المدينة تساعد في توضيح المكان الداخلي على العكس من تلك التي في الريف أو الصحراء المفتوحة على الطبيعة وغناها والتي تتميز بفقر المكان الداخلي.

لقد كانت الأميرة ربة بيت يبهرها المكان وتتعلق بتفصيلاته من أول نظرة، أنتج ذلك كثافة مكانية ساهمت في إغناء الفضاء السردي للمذكرات وساعدت في فهم الحياة الداخلية للعائلة المالكة.كثافة الوصف هذه لم تخفف من ظاهرة الحزن التي عادة ما تسيطر على الضحية، فالأميرة تصف المكان بمفردات الرحيل وبإحساس من سيغادره غدا، يعزز ذلك الماضي القلق والحاضر الأكثر قلقا بسبب دائرة الصراعات السياسية التي ستأتي بظروف يستيقظ فيها الحنين إلى المكان الأول والى إلقاء نظرة الوداع عليه بعد أن حرمت منها في لحظة رعب، لتتحول تلك الأمكنة الأليفة والهادئة والمحاطة بالورود والمياه إلى متحف أو سجن.المكان هنا يستدعي الحادثة وأبطالها وزمن وقوعها والنتائج التي وصل إليها البلد بعد أن تحول بيت العائلة المالكة (قصر الرحاب) إلى

سجن رهيب الداخل إليه لا يعود على مدى أكثر من أربعين عاما أسموه (قصر النهاية) وهذا التحول في الوظيفة الاجتماعية للمكان أنتج دلالات رمزية زادت من إحساس الضحية بالمرارة والإهانة زمن رواية الحوادث.

إن انسيابية الأحداث وترابطها واقتصارها على عائلة واحدة وأمكنة قليلة جعلنا نشعر بوجود الزمن الواحد المتسلسل الكثيف بسبب عنف الأحداث، فمنذ بداية المذكرات والأميرة ممسكة فيه /الأيام والشهور والأعوام/وحين تأخذها في الزمن أهمية الموضوع وتسلسله إلى أزمان أخرى نجدها سرعان ما تعود إلى النقطة التي انقطعت عنها، من دون إن تسير المذكرات عكس اتجاه الزمن.قوة الزمن هنا تجسدت بالارتباط بالمكان وبتراكم الأحداث وفق تسلسل زمني مستقيم.إن وعي الأميرة بالزمان والمكان، إضافة إلى الوثائق والمصادر الكثيرة التي تحدثت عن تلك المرحلة، أبعدها عن الخلط وهي في الثمانين من عمرها، بين الحوادث والأسماء التي عادة ما تكثر في حياة الملوك الموزعة على عدة عواصم كالعائلة الهاشمية.

طبيعة الحياة التي عاشتها الأميرة أدت إلى ظهور الكثير من المعلومات الجغرافية والدينية والمعمارية والثقافية.قبعة الرأس (السدارة) التي يضعها الملك فيصل قد دخلت الأزياء العراقية وقاموسها لتسمى(السدارة الفيصلية) إلى اليوم بالعراق.وتوقفت عند العاصمة بغداد في عشرينيات القرن الماضي حين كانت تضيئها الفوانيس وتخترقها العربات والحيوانات.بيوتات بغداد القديمة والنزهات المسائية القليلة وأنواع الرياضة والأثاث والسفر.لقد كانت معاناتها وعلاقاتها تتجاوزان أسوار القصر لتحدثنا عن بساطة أهل البصرة وجهامة أهل الموصل، عن طيبة الأكراد الذين قست عليهم الجغرافية والتاريخ، عن دموع المقاتلين في حرب فلسطين ومطالبهم في استمرار القتال ضد الصهاينة غير مدركين أسرار اللعبة السياسية ومصالحها، وهي ظواهر يمكن تلمسها حتى اليوم في الشارع العراقي.أحيانا بسرعة تشير إلى أحداث نسيها الآخرون بفعل

الصراعات السياسية وركض الأعوام ما زاد في كثافة التشويه والنسيان، فمثلا توجه الكثير من يهود العراق إلى المنفى بعد النكبة بفلسطين ورفضوا التوجه والعيش في فلسطين ليعيشوا غرباء في أوربا وأمريكا إلى يومنا هذا يحدوهم أمل العودة ومعللين أنفسهم بالذكريات والمأكولات والأغاني العراقية القديمة ليبقوا من أخلص العراقيين المنفيين للقيم والتقاليد التي تربوا عليها بين دجلة والفرات.إن تلقائية السرد بعيدا عن التعمق في التحليل أو الرد على التشوهات المختلفة ساهم كثيرا في صدور المذكرات بهذا الشكل الجيد.ومع إن المذكرات طرقت أبواب كثيرة وتحدثت عن نساء ورجال لعبوا أدوار خطيرة في التاريخ القريب لكنها لم تجب على كثير من الأسئلة وأسباب ذلك كثيرة أيضا منها الطبيعة المحافظة للعائلة المالكة وقسوة تجربتهم وكثرة الشامتين الأحياء.

هذه المذكرات شهادة إنسانية ومأساوية ارتبطت بشواهد وأحداث تاريخية وأسماء "رغم كل ما قيل عنها" أسهمت بشكل كبير في تأريخ العرب المعاصر،لكن صانعي الأحداث الكبيرة ليسوا على الدوام المستفيدين من نتائجها،ولم يذهبوا دون أن تلوث أطراف جلابيبهم وهو ما أدى إلى تعاطف المتابع المتأخر مع تأريخهم المتجسد في هذه المذكرات واعتبارها من أهم المراجع التاريخية لدراسة الأوضاع العامة "والعراق خاصة " في النصف الأول من القرن الماضي .

الهوامش

١ - مذكرات وريثة العروش، دار الحكمة لندن، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م ، بقلم فائق الشيخ علي

٢ ـ المصدر نفسه ، ١٥

٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩٤

٤ ـ المصدر نفسه ، ص٢٣٥

٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦٧

٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١

٧ ـ المصدر نفسه ، ١٥٦

٨ ـ المصدر نفسه ، ٢٢

٩ ـ المصدر نفسه ، ٣٢٧

١٠ـ نظرية السيرة الذاتية في الفكر الأدبي الحديث،مجلة المشكاة،العدد١١،سنة ١٩٨٩ ص٢٦

ذكريات زكي خيري
سيادة الأفكار وغياب الحوادث

رايت زكي خيري

رايت عراقا يسير في الشارع

كزار حنتوش

إن آلية التفكير التي تتعامل وظيفيا فقط مع الحوادث لا تستطيع تصور الحادثة لذاتها دونما علاقات سببية في حراكها الاجتماعي.فالانفتاح الذي تخلقه الوظيفة المضمونية على علاقة الحادثة برصيفاتها معتمدة التحليل والتأويل والتهميش، سيؤدي إلى الانغلاق على عناصر الحادثة التي لا تخدم تلك الوظيفة. وهذه العناصر ـ الزمان والمكان والأفراد ـ حقائق ليست غائبة عن مؤلفي السيرة الذاتية إلا أن أغلبهم لا ينشغل بها في روايته للحوادث خوفا من الوقوع في المجاز والتبسيط، فيتم عبورها تاركين خلفهم أضرارا في بنية الحادثة، لا تعني الكثير أمام الفوائد التي سيجنونها.وهذه الفوائد التي تدفع باتجاه استخدام الحادثة لغاية معينة تجعل من الوظيفة المضمونية، الغائبة أو الغائمة أثناء وقوع الأمر، هي العنصر الأكثر حضورا بين العناصر الأخر بعد وقوع الأمر، والأكثر عرضة للتغيير والتلاعب.بدورها الحادثة الواقعية حين تجد نفسها مغيبة وتحت رحمة الأغراض ستلجأ بواسطة عناصرها الداخلية لتأكيد وجودها وخصوصيتها مستعينة بالنشاط الاجتماعي والذاكرة الشفاهية

والفنون، ليفسح كل ذلك بالمجال في إعادة إنتاجها.

الحوادث الواقعية مادة الذكريات، وتشكل حلقات من منظومة فكرية لمعرفة الواقع ودراسته.لكننا غالبا ما نجد السياسي يميل إلى انتقاء حادثته هو، ويبالغ في استخدامها ويدمجها بموقفه بلغة توحد عناصرها وتختزلها إلى جزء من ذلك الموقف، تاركا انطباعا عند القارئ مفاده أن السياسي لم ينشغل بالحادثة لذاتها وبالسيرة الذاتية ككتابة أدبية تعتمد الحوادث الاجتماعية، بقدر انشغاله في تقديم تجاربه الخاصة المعبرة عن مواقفه وتصوراته لما جرى .

ليس مفاجئا أن تصادف سياسيا عراقيا معارضا لم يضبط المشي على الإيقاع طوال حياته في بلد نهشته الحروب والصراعات السياسية والاجتماعية على مدى تاريخه الطويل. وغياب المفاجأة هنا يعيدنا إلى طبيعة الوعي االيعقوبي عند الشباب العراقي في بدايات القرن العشرين تجلت في الميل الفطري للثورية مع غياب متوارث للحلول الوسط في المشاكل العالقة يومها كتحرير العراق وفلسطين وقضية الوحدة العربية باعتبار ذلك من الأمور الاستراتيجية التي لا تحل إلا بالنضال والسلاح وبمقاطعة المشاريع الاقتصادية والسياسية التي يتبناها الآخر في مثل هذه الظروف ولد المؤلف وترعرع في بدايات القرن العشرين لعائلة عراقية متوسطة الحال ساهم كثير من أفرادها في الثورة العربية الكبرى بالشام وفي الجيش العثماني، وبعد ذلك تحولوا إلى مناضلين ضد المستعمر البريطاني.

الأعوام الأولى وبسبب من مهنة الوالد كانت فيها طفولة المؤلف التي لم تتبين الأماكن ولم تتعرف على الأيام والأعوام بعد، كثيرة التنقل.أدى ذلك إلى غياب أصدقاء الطفولة وضعف في ملامح الأمكنة الأولى إلى درجة أننا تعرفنا على وسائط النقل بالعراق في بدايات القرن العشرين من مراكب نهرية وترام تجره الخيول ولم يبقى من المكان سوى عمومياته "المدينة والنهر والبئر

والجسر".لقد أستهل المؤلف ذكرياته بالمكان بفضل طفولته التي تعتبر من أكثر مراحل حياته استقرارا ودفئا وألوانا ومعلومات سياحية ممتعة عن بقايا جدار بغداد وأسواقها ومحلاتها القديمة في بدايات القرن العشرين، وحياة العراقيين المتواضعة في توالي الأزمنة وتغير الفصول وتشابك الحب بالموت، تناولها المؤلف بلغة رشيقة وممتعة تحولت "أحيانا " بشكل ميكانيكي من اللهجة الشعبية إلى اللغة الوسطى من دون أن تفقد دلالاتها البسيطة والعميقة مدعومة بالأمثال الشعبية ودلالات الأسماء المكانية.فمدينة (بعقوبة) كلمة أرامية تعني بيت لعيقب وهي أحد أسماء الكهنوت النصراني، ومدينة بغداد تعني بيت الغنم إضافة إلى الكثير من المعلومات الدينية والثقافية التي ستشرع بالاختفاء كلما أقترب المؤلف من المفيد، لتسرد لنا في نهاية المطاف حكاية حب الوطن التي ستلازم المؤلف في كل خطواته وصولا إلى المحطة الأخيرة في الرحلة.إن العودة إلى الماضي والتاريخ هنا استدعى لغة وسطى تعتمد على جمل قصيرة وسريعة التأثير لأمثال متداولة عن سفينة نوح وصبر أيوب لسد الفراغ الذي أحدثه فقر الاستعادة لحوادث نائية.

في ذكرياته (صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم)١ المتكئة على عمليتي التذكر والاسترجاع في خريف العمر يرينا (زكي خيري) تأريخا للمعاناة والمواجهة في تجربته الاجتماعية والسياسية.فلقد ذاق الفقد صغيرا بموت شقيقته التي لم ترتوي بعد من عبث الطفولة ليلتحق بها في نفس العام جدته وأبيه وشقيقته الثانية في عام (اللوفة) الذي جف فيه نهر الفرات في الربع الأول من القرن العشرين وتحول إلى عام مجاعة وأوبئة لم يشهد له العراق مثيلا أدى إلى هجرة وتفرق الكثير من العشائر العراقية في وسط وجنوب العراق .

طفولة المؤلف المحتمية بالنسيان لا يمكن الاقتراب من حكاياتها الملونة والغائرة في الزمن من دون التسلح بالخيال والحلم والأمنيات العالقة حتى وإن رسمت بأدوات الشيخوخة التي غالبا ما تنتهي بحصيلة الوعي المتأخر، لينعكس

ذلك عند زكي خيري في خواتيم الفصول المتعلقة بمرحلة الطفولة.فالفصل الثاني (طفولتي) الذي تجري أحداثه بسرعة صوب النسيان يختمه المؤلف بالحديث عن معركة جسر الشهداء ودروسها السياسية، والفصل الثالث ينهي فترة البراءة بمقتل الملك غازي على يد البريطانيين بسبب طموحه السياسي،والفصل الرابع ينوي الطفل تعلم السباحة في نهر (أبو صخير) الذي لم يعاود السباحة فيه إلا بعد الانقلاب الدموي في شهر شباط الأسود عام ١٩٦٣ والفصل الخامس الذي يقف على عتبة المراهقة وسرقة الصابون الذي يجلبه الملاحون من مدينة الرقة "صابون الرقي" تحدوهم الأغاني والأهازيج لينتهي الفصل بأفكار ماركس وأنجلس عن دور العمل في صنع الإبداع.انتهاء الفصول الأولى للطفولة بمفاهيم سياسية عن الحوادث التي وقعت كان كالختم يوضع في نهاية الفصل بهدف التأسيس منذ البداية إلى إشاعة المناخ السياسي المعبر عن تجربة المؤلف في عموم الكتاب.وباستثناء الفصول الأولى التي عنونها المؤلف بمفردات الطفولة والصبا وختمها بالسياسة، فإن أغلب فصول الذكريات الأخر قد بدأت وانتهت بعناوين ودلالات سياسية.المؤلف حين يودع طفولته بسبب تلويحة من امرأة مخطوبة سيحتفظ بالبراءة حتى نهاية الرحلة كعزاء أخير عن الفقد الأول، صاحب ذلك قناعة بخلو قاموس الطفولة الصغير من مفردات العشق وأشعاره ومن جمال الصوت وتأثيره،أديا فيما أديا إليه خشونة الصوت وقسوة الملامح وانبهار بحركة الشارع وصراعاته لتبدو حياته اللاحقة لا يوجد فيها ما يمكن الوقوف عنده بمعزل عن تجربته السياسية "إذ لم تتح لي سيرتي فرصة كافية للمعاشرة والتحدث بغير السياسية "٢. إلا إن أفكار زكي خيري الجادة وملامح وجهه القاسية التي حفرت فيها سنوات السجن والنضال والمنفى تعرجات واضحة لم يقللا من استعادته لطفولة بغدادية ونقاء إنساني جديرين بشاعر متأمل .

إن حالة التخبط التي عاشها المؤلف في سني شبابه الأولى وإيقاعها المرتبك

تدلنا على المعلومات التي تشير إلى بدايات الوعي السياسي بالعراق بدايات القرن العشرين عندما كانت الحوادث اليومية المعادية للملك وحاشيته تتسم بالمرارة وسوء التخطيط، أدى تراكمها إلى تعميق الوعي السياسي عند طالب الثانوية الشاب معبرا عنه بالتمرد حينا وبتشكيل المنظمات السرية التي تتطفئ في بداياتها حينا آخر، أو تشكيل أحزاب سياسية ممنوعة بسبب غياب المؤسسات القانونية والديمقراطية والاجتماعية والرياضية، وفي إصدار صحف ومجلات سيتم إيقافها لتصدر مرة أخرى بأسماء مختلفة، وفي تنويع أساليب المعرفة من خلال الترجمة والطباعة والتوزيع الذي ارتبط بالفشل والخيبات المتكررة على الرغم من معرفة المثقفين النظرية بأن المعرفة في مجتمع قوانين السوق هو كذلك بضاعة .

لقد استعرض المؤلف تلك الظواهر والصراعات الاجتماعية والأخلاقية أخذا جانبها السياسي المحتدم غير مدعومة بالحوادث والأسماء.وما تم تذكره لا يزيد عن تلك التي تناولها المؤرخون عن بدايات الوعي السياسي وتشكيل الدولة العراقية. باستثناء الزاوية التي وقف عندها الراحل في تناوله لها. فظاهرة العزوبية مثلا وأسبابها الاجتماعية والأخلاقية وما تنتجه من حوادث يربطها المؤلف بحياة المناضلين الصعبة تلك الأيام وزهدهم وابتعادهم عن ملذات الحياة واعتقادهم أن الزواج عائقا حقيقيا ما دفع بهم إلى العزوبية وبالتالي إلى ضعف الحركة النسوية الذي أثر بدوره على عموم الحركة الثورية بالبلاد وبروز ظاهرة اليأس عند بعض الثوريين الذين كانوا يبررون اعتزالهم السياسي بالزواج.وهذه الحادثات المنفردات التي تناولها المؤلف كظواهر اجتماعية قد جاءت بغياب عناصرها، وتحولت إلى أفكار عامة لفهم الظروف الاجتماعية والسياسية بالعراق.فقراءة الحادثة بين ثنائية السبب والنتيجة لتوصيل الفكرة أو تعميم الحادثة على المجتمع قد ينجح في ذلك وقد يصطدم بعلائق القراءة، إلا أن لي عنق الحوادث لتنسجم مع الأغراض وحركة الشارع لا يعني أن الحادثة

قد فقدت خصوصيتها والظروف الحقيقية التي أنتجتها.فظاهرة العزوبية التي ذكرها المؤلف هي مجموعة حوادث لها أسبابها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية سبقت حياة المؤلف وأعقبتها وليس لها علاقة حصرية بهذا الحزب أو ذاك ولكن السياسي ما أن يجد حادثة تحمل شيئا من أفكاره وأغراضه حتى يبدأ بتحويلها إلى جزء من منظومته الفكرية.

بعد إن أتلفت تجربة المؤلف الصعبة كل ما من شأنه أن يدعم هيكل ذكرياته من وثائق ومستندات وبيانات،عاد طائعا لخوض تجربة الاستعادة بصبر وبطء ناصحا القارئ أن لا يطمح بتفاصيل عن حوادث سمع بها ولم يشهدها ،لندرك تاليا أن غياب التفاصيل جاء لصالح الشروحات والمواقف "شرعت في الشام منذ منتصف عام ١٩٨٨ بكتابة هذه الذكريات بلا مراجع ولا أسانيد ولا وثائق ولا يوميات "٣. إن ضعف ذاكرة المؤلف ونأي الحوادث في الزمن أديا إلى ضعف البحث في عناصر الحادثة ، واللجوء إلى الذكريات كشكل كتابي يسمح بانتقاء وتبويب الحوادث بدل ترابطها أو تسلسلها.وهذا التبويب الذي يعلم ويحدد الحوادث المهمة غالبا ما يجري بمحاذاة المكان والزمان، يتوسل التحليل والتداعي والدلالة لسد النقص الحاصل في غياب الترابط.فدلالة الماء مثلا هي التي تربط حادثة وقوعه في البئر صغيرا بحادثة سباحة الجنود البريطانيين بالنهر وصيدهم الأسماك وليس لأن الحادثتين وقعتا في مكان أو زمان واحد؛ أي أن دلالة الماء هنا هي التي تأتي بالحوادث وتصنع ترابطها من دون ضرورات اجتماعية أو سياسية أو علاقات زمكانية.ومثلما أسلفنا فأن بعض الحوادث نجت من ورطة الاستعادة أو التبويب مرد ذلك شهرتها عند الكثيرين أو تناولها المؤرخون والساسة في ذلك الزمن ولكن الخاص في تلك الحوادث هي الزاوية التي تم الوقوف عندها في رصد ما جرى.وهي زاوية لم تستند فقط إلى ذاكرة المؤلف المخضرم بل وكذلك إلى تجربته الملتصقة بذاكرة إحدى الجماعات المتمثلة بأعرق حزب سياسي ما تزال

نشاطاته ووثائقه ومؤتمراته منذ تأسيسه والى اليوم مرجعا لكثير من الدراسات السياسية والاجتماعية والتاريخية، ونقصد بذلك الحزب الشيوعي العراقي.

لقد كانت ذاكرة الطفولة المستعادة والملونة متناثرة، وذات قدرة على التوسع والتخيل والترابط مع حكاية الخلق الأولى وحضارة وادي الرافدين، لكنها سرعان ما تتحول إلى الأبيض والأسود حال دخولها في المفيد. ودخول المؤلف مرحلة الشباب والعمل والابتعاد عن الطفولة لصالح الالتزامات السياسية والاجتماعية، نتلمسه في كثافة الحوادث وقسوتها. فعلى الرغم من ضعف الحوادث في مرحلتي الطفولة والشباب وخصوصا تلك الحاسمة منها في حياة المؤلف كحادثة المقالة التي شتمت البلاشفة الروس والتي أدت إلى عكس مفعولها عند الشبيبة أو تلك الحادثة التي أدت إلى الاضطرابات الطلابية دفاعا عن حرية الفكر بعد نشر أحد الأساتذة كتابا غير منصفا عن الصراع التاريخي بين علي ومعاوية أدى بالنتيجة إلى طرد المعلم. إلا أن هذه الحوادث الصغيرة التي قادت المؤلف إلى عالم السياسية هي الأخرى سيتراجع حضورها مع دخول المؤلف العالم الحقيقي لمعترك الحياة السياسة وما تتضمنه من جدل وتحليل وصراع.

لو تركنا كلام المناسبات جانبا فإن ذكريات زكي خيري لم تكن تأريخا للعراق أو تأريخا للحزب الذي أفنى عمره مناضلا في صفوفه، وهو لم يدع ذلك، بل هي رؤية فردية مدعومة بالتجارب النظرية والعملية التي لا تذهب بعيدا عن ثلاثية الإنسان والحزب والوطن، موثقة بالمواقف والحوادث والأسماء التي صادفها المؤلف على امتداد القرن العشرين والتي ساهمت في تأسيس الدولة العراقية الحديثة ابتداء من ساطع الحصري وحسين الرحال وانتهاء بالجواهري الكبير وغائب طعمة فرمان ومرورا بجعفر أبو التمن والجادرجي وفهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي وعبد الكريم قاسم؛ أي أن علاقات

المؤلف المهمة بالنخبة السياسية التي أسهم العراق - ترابه واحتداماته - على مدى قرن من الزمان في صنعها من جهة، وأخرى قدراته الفاعلة على تمثيل وتحليل الواقع السياسي عبر تناوله لأهم الحوادث التي واجهها البلد، لا يعنيان إن السيرة الذاتية قادرة على أن تكون تأريخا " لم تعد المذكرات تنافس التاريخ ابتداء من القرن العشرين، لأن التاريخ أصبح علما.أي أن المذكرات تاريخ ولكنها ليست التاريخ "٤.إضافة إلى ذلك إن كتاب زكي خيري غير مكتمل بسبب وفاة المؤلف قبل طباعة الجزء الأول منه " وكم أحزنني فشل محاولاته المتكررة لنشرها "الذكريات" خلال أربع سنوات فلم يجد المشجع لكتابة الجزء الثاني رغم ثقته بأنها ستكون يوما ما في متناول الجيل الصاعد من أبناء شعبنا "٥.

الذكريات نجحت في أن تكون مصدرا لكثير من المعلومات التاريخية وعكست قدرة المؤلف في إثارة الأسئلة المتراكمة عن غياب المؤسسات القانونية والحقوقية والديمقراطية بالعراق في بدايات القرن الماضي والتي أدت إلى تشوهات سياسية واجتماعية على كل المستويات لم تزل آثارها السلبية حتى اليوم في نسيج المجتمع العراقي.قدرة المؤلف تجسدت بالتحليلات السياسية والتنظيمية التي شكلت مناخ الذكريات،وهو ما ساهم في إضعاف الحوادث وتغييب أبطالها، ارتبط ذلك بالوقوف عند الحوادث المهمة فقط دون سواها من الحوادث العادية واليومية باعتبار أن الحادث المهم يلخص ما سبقه من تراكم ويختصر طريق الوصول إلى النتائج.إن انتقاء الحوادث المهمة فقط على حساب التسلسل والترابط يتطلب كذلك البحث عن علاقات وروابط بين الحوادث المنتقاة لكي تساهم سرديا في الوصول بها إلى عتبة القراءة المقنعة. المؤلف بعد أن أدمن الصراعات والمواقف الصعبة أصابه الارتباك في وقوفه عند الحادث العابر فيمر دونما ملامح وكأنه لم يقع، لكننا نجد الحوادث الكبيرة التي تؤثر في الشارع والدولة يعبر عنها بتحليلات ومواقف سياسية تعكس المعنى السياسي لطموحات جماعته السياسية وتعكس تأثيرات تلك الحوادث ونتائجها

على عموم النشاطات الاجتماعية والسياسية على الرغم من غياب خصوصية الحادثة وأبطالها.وهذا نلمسه في كثير من الحوادث ومنها قضية تقسيم فلسطين في القرن الماضي وتأثيره على الحالة السياسية العراقية وزيادة معاناة اليهود العراقيين وحشد الدول العربية لجيوشها وغليان للشارعين العراقي والعربي، لكن حادثة التقسيم، كحادثة لذاتها، يمر عليها المؤلف بعجلة مفترضا أن القارئ المتابع على معرفة بالتفاصيل، لذلك فضل المؤلف الاختصار والوقوف عند النتائج، وهذا ما يفسر عدم معرفة الغالبية من المواطنين لتفاصيل المعاناة الحقيقية للفلسطينيين وترديدهم فقط ما يقوله أولياء الأمر والأعلام الرسمي. الحالة اليهودية التي ذكرها المؤلف مرات عديدة في كتابه بما يخدم أغراضه السياسية لم يقل فيها شيئا مفيدا وواضحا عن معاناة اليهود أو مواقفهم الوطنية منذ تأسيس الدولة العراقية وثورة العشرين التي وقفوا إلى جانبها بقيادة زعيمهم حينذاك ساسون حسقيل ضد البريطانيين أو دورهم في تأسيس الأحزاب السياسية العراقية وتأثير ذلك مستقبلا - سلبا أو إيجابا - على تاريخ وسمعة تلك الأحزاب عراقيا وعربيا وعالميا.ولكن كما قلنا أنها رؤية وليست تاريخا.

أحيانا وخدمة لمواقفه السياسية وشروحه فإن المؤلف يمر على الحوادث المحلية مسرعا ويربطها محليا مع جاراتها من الحوادث ثم ينتقل ليربطها عربيا وعالميا في كم لا متناه من الصراعات الدولية.فنجد الحوادث التي وقعت في كردستان العراق والفرات الأوسط في بدايات القرن الماضي بسبب المعاناة والفقر لم يكتفي المؤلف بجعلها خميرة لثورة العشرين بل أبحر فيها باتجاه أزمة النظام الرأسمالي التي "بدأت شمسه بالمغيب" وربط ذلك بالظهير الجارف الذي استندت إليه ثورة العشرين متمثلا بالثورة البولشفية في روسيا القيصرية، في زمن كان فيه العراق من شماله إلى جنوبه يعيش في جهل وفقر وأمية في غالبيته المطلقة.والمؤلف في كل ذلك يستعمل أدواته السياسية في التحليل والاستنتاج مع

غياب فعلي عن وقائع الأمور وتفصيلاتها وأبطالها ما يؤدي بالنتيجة إلى إرباك الأدوات ووقوعها في التعميم بسبب تعميم الحادثة.

إن طبيعة الحوادث وظروفها وأبطالها وأماكنها هي التي تصنع قدرتها على التأثر والتأثير في غيرها من الحوادث، والبقاء طويلا في ذاكرة المجتمع الذي أنتجها، وهذا ما يفسر نشاط ذاكرة المؤلف ووقوفها طويلا عند الحوادث المهمة كالحروب والأوبئة إلى جانب تلك القريبة من هومومه السياسية والنضالية كالمؤتمرات وساحات المحاكم والسجون.وهذه الحوادث التي تناولها المؤلف لا تحتمل اليومي والهامشي والعادي الذي يعج بهم المشهد السياسي العراقي، تاركا الانطباع عند القارئ المنحاز مفاده أن أي من تلك الحوادث المهمة لو لم يقع بالشكل الذي وقع عليه لتغير مجرى تأريخ الحركة السياسية تلك الأيام. إن سرده للحوادث هنا يبني موقفا سياسيا مرتبطا بحياة الحزب السياسية والتنظيمية المستندة إلى الثوابت والمطلقات من جهة وأخرى بما ينتجه الحزب من مؤسسات ومنظمات نقابية وطلابية وحرفية تساعد في تنظيم حياة المواطنين المنفعلين بالحوادث والذين لا نكاد نتلمس ملامحهم وخصوصياتهم بسبب طريقة التعامل معهم ككتلة أو جماعة.

الحادثة كنشاط اجتماعي تتطلب فهما للظروف التي أنتجتها من دون اختصار عناصرها إلى مواقف سياسية ونتائج لتطوير وسائل التنظيم السياسية ورؤية تحليلية للسياسة الدولية لأنه سيضر في بنية تلك الحوادث وخصائصها ويجعل مهمتها إعادة إنتاج القناعات السياسية ليس إلا. فحادثة مهمة وكبيرة مثل تمرد "عبد الوهاب الشواف" في مدينة الموصل بشمال العراق والأخطاء التي رافقتها والضحايا ومن ثم اختصار ذلك إلى درس للعمل السياسي ليس إلا، أفسح في المجال أمام الآخرين إلى إعادة إنتاجها وإلباسها ما يودون من أثواب ضيقة أو فضفاضة.

إضافة إلى أغراض المؤلف في أسلوبه لتناول الحوادث المهمة فإن الغياب

وعدم المساهمة الفعلية في مجريات الحوادث ساهم كثيرا في غموض الحوادث عند تناولها، نجد المؤلف في فصول عديدة شارحا ومبينا الأسباب التي أدت إلى ثورة تموز بالعراق في بداية النصف الثاني من القرن الماضي ومتوقفا أكثر من ذلك عند النتائج الإيجابية والسلبية لتلك الثورة.لكن ثورة تموز لذاتها، كحادثة مفصلية في تاريخ العراق الحديث أسست لحكم جمهوري على أنقاض أخر ملكي وأصبحت بعد ذلك نبعا يغرف منه المتخاصمون والمؤرخون والعامة، هذا الحدث الجلل لم يقف عنده المؤلف أكثر من صفحة واحدة وضعها في فصل خاص فيها، فلقد كان سجينا يوم الثورة وما سبقها من مقدمات سياسية واجتماعية، وهو ما أدى إلى حرمانه من معايشة التوقعات والمصادفات والغموض يوم بيوم وساعة بساعة والذي قد يغني المؤلف عن أعوام من النضال الرتيب.

مع إن السياسيين يصنعون الأحداث في الغياب ويساهمون فيها من سجنهم أو منفاهم، إلا أن يوم الثورة يوما مرعبا وهائجا تتحول فيه المصادفات الصغيرة إلى ضرورات تاريخية حاسمة، يوما مشحونا بالتحدي للذكاء والنضج السياسيين ومكتنزا بحقائق تاريخية مكثفة وبسيطة تتطلب أحيانا التخلي عن ثوب السياسي أو المثقف والسير على الأقدام محرضا ومقاتلا مجهولا بين بسطاء الناس.فالمشاركة الفعلية والمواقف والتحليلات التي تصدر وقت وقوع الحادثة عن خبير وعارف بمفردات الصراع الاجتماعي، تعد جزء عضويا وعمليا من تطورات الأحداث وتجعله أحد صناعها وشهودها ومؤرخيها، ومن دون ذلك الحضور سيلجأ السياسي إلى الرواة الآخرين في تحليل الحركة الداخلية للمجتمع، معتمدا على عموميات القوى المنتجة ووسائل الإنتاج وطبيعة الصراعات وشعاراتها دافعا بعناصر الحادثة - أبطالها وأماكنها - إلى الثانوي من مسرح الصراع حيث يمكن متابعتها عن بعد بواسطة كلام العامة ووسائل الإعلام، باذلا جهدا سياسيا تقليديا، يبدو فيه الغياب عن الحوادث في نهاية المطاف هو السبب الثاني، بعد الانحياز السياسي والمواقف الجاهزة، الذي يقف

خلف تحول الحادثة إلى موقف سياسي.إن اختلاف حقيقة تفاصيل الحادثة عند السياسي (الغائب) عنها عند صانعيها وشهودها نتيجة طبيعية.فلحظة الاختلاف هذه هي التي توفر الشروط المثالية لإعادة إنتاج الحادثة،وهو ما يفسر - إضافة إلى أسباب سياسية وتاريخية - كثرة الرواة والشهادات والكتابات عن ثورة تموز بالعراق.

إن تجربة المؤلف التي توزعت بين السجون والمنافي أفقدته عنصر التوثيق لكنها أكسبته قدرة التحليل التي ساهمت في دعم مصداقيته في التناول.فهو يبني معمار ذكرياته من المواقف السياسية والتحليلات النظرية المستندة إلى تجربته في الصراعات الحقيقية والخبرات التاريخية بعيدا عن تفاصيل الحوادث في الزمان والمكان والأبطال.ساحبا ذلك من الماضي القريب أو البعيد ومتجها به صوب المستقبل،ولذلك فمن الطبيعي أن نجد ترابط الأحداث وتسلسلها وقد حل محلهما جدل المواقف السياسية والتحليلات المترابطة والمعبرة عن فكر المؤسسة السياسية وتكتيكها الذي يسمح بتقديم وتأخير وترابط الحوادث حسب أولوياتها. الأغراض السياسية بما تمتلكه من قدرات في التأويل وخبرات في التحليل والتبرير نجدها قادرة ليست فقط على لي عنق الحادثة واستعمالها بل وكذلك لي عنق الإيديولوجية التي تتبناها وتسترشد فيها.إن طبيعة التحليلات السياسية في فهم التطورات الجارية كثيرا ما تزيد من مساحة التأويل والمبالغة ولي عنق الحوادث بهدف التطابق والتقارب مع النظريات المنجزة والمواقف المسبقة، فنجد حادثة غسل العار التي يصادفها المؤلف في دار السينما لامرأة شابة - وهي حوادث مألوفة في بلداننا العربية - مناسبة يلجأ إليها المؤلف لشتم السلطات الملكية التي تسببت في تخلف المجتمع وقتله للمرأة وبالتالي توظيف ما حدث لهدف سياسي.وفي حادثة أخرى نجد تكاسل الجنود في تصليح الطائرات وتوقفها في القاعدة الجوية العراقية ليربطه المؤلف بآلياته السياسية وينسبه إلى التجارب الإيطالية في الإضرابات العمالية الهادئة

(إضرابات التباطؤ عن العمل) في بدايات القرن العشرين، قافزا على الزمان والمكان وطبيعة الوعي الاجتماعي.هذه المبالغات التي تصاحب السياسيين في سني اندفاعاتهم الأولى ستترك أثارها في حكمة شيخوختهم - زمن كتابة الذكريات - بسبب الكتابات التي أنجزوها يومذاك أو المواقف التي ارتبطت بأسمائهم، ونتلمس ذلك على سبيل المثال بحادثة صدور قانون العمل العراقي رقم (٧٢) الصادر سنة ١٩٣٦ الذي يصوره المؤلف نتيجة طبيعية لنشاط الطبقة العاملة العراقية وظهور حزبها الشيوعي مع أن المؤرخين والمعنيين بالشأن السياسي يؤكدون على ضعف الطبقة العاملة العراقية تلك الأيام وكذلك حداثة تشكيل الحزب الشيوعي العراقي الذي لم يمضي على تأسيسه أكثر من عامين، إضافة إلى أن قانون العمل المذكور صدر يومها بسبب ضغوطات من مكتب العمل بعصبة الأمم المتحدة التي صار العراق عضوا فيها.إن المواقف التي ترتبت نتيجة لإحداث معينة في وقت معين ستبقى في أجندة السياسي كما هي لأعوام طويلة حتى لو ظهرت حقائق جديدة توضح ذلك، والسبب هنا ليس اتفاق أو اختلاف زمن وقوع الحوادث عن زمن كتابتها بل السبب هو صلابة المواقف السياسية التي اعتادت على نمط من التفكير لا يحتمل التغيير الذي يمس جوهر وجوده.

إن تجيير الحادثة سيضمها لا محالة إلى قائمة ضحايا السياسي. وإن احتكارها لجماعة دون غيرها هو قبل كل شيء مؤذي للحادثة ويجعلها أحادية التفسير ومحرومة من الاختلاف والتأويل والاغتناء.وبالتالي فهو مؤذ لطبيعة الكتابة عندما تأخذ صفة الانحياز والانتماء السياسيين ليؤثر بعد ذلك في وظيفتها الأساسية المتمثلة في إزاحة الغموض عن الوقائع بحيادية ونقل التجربة للأجيال القادمة وتمهيد الطريق أمام المؤرخين والمعنيين.إن ترابط الحوادث في ذهن المؤلف وليس على أرض الواقع، نستطيع تلمسه في توالي فصول الذكريات التي ترابطت فكريا وسياسيا، مؤدية إلى استنتاجات مقنعة في الشأن العام

لكن ذلك يجري من دون المادة الأساسية التي قامت عليها تلك الأفكار والسياسات.إلا وهي الحوادث وما يصاحبها من أسئلة (متى وأين ومن)عن الزمان والمكان والأبطال، فنجد المؤلف يخوض في "كيف" عبر تحليلات وتنبؤات وخطط سياسية في الإعداد للثورة وللخطوات التي تعقب ذلك على مستوى السياسة والاقتصاد، ولكن ذلك لم يحدث جميعه على أرض الواقع وبقيت الحوادث مسودة أفكارا فقط في رأس المؤلف.إن التحليل وتخطيط واستباق الأغراض قبل وقوع الأمر سيورط المؤلف في استنباط سياسات وسلوكيات وأخلاقيات ومواقف من حوادث لم تقع بعد.ولو أمتد العمر بالراحل وأنجز الجزء الثاني من المذكرات فقد يحدثنا معتمدا على وسائله في التحليل والإقناع عما سيحدث بالعراق بعد ثلاثين أو أربعين عام.وهذه الأفكار النظرية المتفائلة بالمستقبل لم تنتج أحداثا حقيقية على أرض الواقع، وأنتجت تحليلات لطبيعة الصراعات الفكرية والسياسية في المجتمع وفي داخل المؤسسة الحزبية الضيقة، وهو ما يفسر عدم التخلي عنها لاحقا إن كانت خاطئة أو صحيحة.ففي حياة كالتي عاشها زكي خيري تختزن تجربة حقيقية ودامية لشرائح ومجموعات كثيرة في الشارع العراقي، لذلك فإن الحوادث التي يقف عندها بالتفصيل والمدعمة بالأسماء والأرقام والأمكنة هي حوادثه هو، مرتبطة بنشاط المجموعة التي ينتمي إليها كالثورات والانقلابات أو إصدار جريدة سرية أو حضور المؤتمرات الموسعة للحركة الشيوعية العالمية في شتى أرجاء العالم حيث تتداخل السياسة بالسياحة والأفكار بالتجارب ليتحول ذلك اللقاء إلى نوع من التقاط الأنفاس والتعرف على ثقافات وتقاليد الشعوب التي تستضيف تلك المؤتمرات، وجمال نسائها وتنوع أكلاتها التي يسهب في وصفها المؤلف.لقد كانت استراحات المحارب قليلة في مجرى تذكره للماضي الممتد إلى سومر وبابل، مرورا بالدولة العباسية وشعرائها وعلمائها وصولا إلى رغيف الخبز بيد امرأة فلاحة في جنوب العراق يذكره بتجربته القاسية وبمعاناة

شعبه، لنجد أنفسنا من جديد في دائرة السياسة، وإن الفسحة والسياحة لم تكن أكثر من لعبة تهدف إلى تنشيط ذهن القارئ والعودة به إلى المفيد. وحال هذه الفسح كتلك التي في الطفولة تضيق كلما اقتربنا من المفيد لأن الكتابة هنا تستعير أدوات السياسي في الصراع والتحليل والمصطلحات أكثر من استعانتها بأدوات الكتابة السيرذاتية.

إن الحادثة بعد وقوعها تصبح منجزة. بمعنى وضوح ظروفها وثبات عناصرها في الزمان والمكان والأفراد، لا يسمح معه بإلغاء أو تغيير أحدهما دون أن يترك أثرا في بنية الحادثة، وهو ما دفع بالرواة إلى التلاعب بالسرد والتأويل والتحليل لإعادة إنتاجها في ذكرياته يسيس زكي خيري كل ما يصادفه من حوادث ومعلومات ودعابات. روح النقد لا تفارقه في حمى انشغالاته الرسمية وخلافاته الفكرية معبرا عنها في نكتة أو دعابة أو موقفا سياسيا، فنجد قصابا واحدا في مدينة هندوسية يزيد تعداد سكانها عن نصف مليون نسمة، ومضمدا واحدا في منطقة بهدينان الكردية بشمال العراق والممتدة من سوريا إلى إيران ولا نجد معارضا واحدا لقرارات الكرملين على مدى سنين الحرب الباردة. لكن هذه المعلومات والأخبار تجري من دون حوادث تدل عليها، بل أننا نجد الاجتماعات والمؤتمرات والبيانات السياسية أحيانا أكثر حضورا من الحوادث التي صنعتها، ونتيه في زحمة المواقف والأسماء المكررة، خصوصا وإن الصراعات الداخلية والخلافات التنظيمية التي يعرف مكان وزمان وقوعها متأخرا ، غالبا ما تجري في السر من دون أحداث معلنة، على الرغم من تكرارها، ومن دون أن يطال أسماء أبطالها التجديد. وإن صادف وتغيرت الأسماء فسوف تسعى القيادات الجديدة بكل جهدها لإثبات قدرتها وإلقاء المسؤولية على القديمة وتهميشها أو الإجهاز عليهم سياسيا، وكل ذلك يجري داخل التنظيم وحفاظا على وحدته وأسراره دون تفاصيل، لتبدو في النهاية التحليلات السياسية والتنظيمية قد زحفت على مساحة الحوادث واختصرتها إلى مواقف سياسية ووجهات نظر

تصب في مجرى الدروس والعبر التي يجب على الأجيال القادمة الاستفادة منها.

إن صدور بيانا سياسيا أو مطبوعا جديدا لتحريك الجماهير يعد في ظروف العراق المضطربة في النصف الأول من القرن الماضي حادثا مهما فكيف والحال صدور أول جريدة سرية في تاريخ العراق السياسي تمثل حزبا غير معروف وغير مرحب فيه رسميا، ترينا حال الصحافة في خطواتها الأولى دون كوادر مؤهلة لا علميا ولا تقنيا وتعكس لنا حالة الحزب الطبقية والفكرية في تلك الأيام عندما كانوا يفضلون العامل البسيط على المتعلم وكان فيها كسب عامل إلى الحزب أفضل من كسب ضابطين في الجيش العراقي كما يقول المؤلف.إن صدور جريدة الحزب السرية يعد من الحوادث التي تأخذ عادة أكثر من حجمها الطبيعي في ظروف الاحتدام السياسي، وتعد نموذجا من الحوادث المرتبطة بهذا الجانب أو ذاك بسبب من طوباوية المفاهيم الشائعة في خمسينيات القرن الماضي عن العامل البروليتاري وعن المثقف الذي خان طبقته البرجوازية والتحق بركب البروليتاريا من دون أن يتخلص كليا من إرثه الطبقي وعن شخصية المناضل السياسي.

إن حادثة اعتقال المؤلف بيد رفاقه بالنضال في ظروف الانشقاق السياسي المدمر في صفوف الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٦٧ بعد أن تعرض معهم إلى صنوف المعاناة والسجن والإضرابات، لم تستطع إقناعه بتناقضات الذات الإنسانية وغرابتها التي تفوق الواقع أحيانا وتجعل هؤلاء المبادرين على التضحية بأنفسهم في سبيل وطنهم ومبادئهم قادرين على ممارسة العداوة أحيانا بسبب رغيف الخبز والمرآة والرحلة السياحية والمصلحة السياسية.

لقد عكست تجربة المؤلف التداخل بين الثقافي وبين السياسي كان فيها السياسي على الدوام محسوبا على فئة المثقفين ونرجسيتهم داخل الحزب. وكان المؤلف مدركا لحيرتهم (المثقفين) في عدم فهم الآخرين (السياسيين) لهم بعد إن كان المجتمع ينظر إليهم نظرته للمومس الرخيصة.وهذه الجفوة بين

المثقف والسياسي التي ورثها الراحل عن معلميه أورثها لتلاميذه، ويستطيع المتابع تلمس وجودها حتى اليوم بالشارع العراقي.

إن الأماكن القليلة التي ترسبت في قاع ذاكرة المؤلف المتنقلة في طفولته مثل البئر والشارع والمدن المفتوحة على الأرياف والمحاطة بقبور لأئمة وأولياء مجهولين، كانت هلامية ولم تؤسس لأمكنة واقعية أو متخيلة إضافة إلى أن أسلوب كتابة الذكريات في تسيد الأفكار السياسية على غيرها لم يمنحنا القدرة على البحث عن المكان في خبايا الحالة النفسية للمؤلف بسبب ذوبان الذات في المجموع وانشغال المؤلف في الدفاع أو الإقناع أو رفع فكرة معينة في ساحة صراع الأفكار. وهذه الأفكار غالبا ما تعاني من ضعف في البنيات المكانية المستقرة بسبب انتقاء الحوادث وتجميع أطراف الخيوط من أمكنة وأزمنة مختلفة لرسم بانوراما مقبولة عن الحالة السياسية العامة للمجتمع.القارئ قد يلحظ التطورات والتنقلات التي حدثت في طفولة المؤلف وصباه أو التطورات اللاحقة من مرحلة سياسية إلى أخرى مدعومة بالشواهد والحجج، لكنه لن يلمس ذلك في تنوع الأمكنة أو تغيرها وكأن المكان لا يحتضن الحوادث أو يغني سردها وتنوعها (البيت والسجن والهور والجبل) .

إن من أوضح الأمكنة في حياة المؤلف السجن، والأكثر وجودا في حياته وغطت صفحاته أكثر من عشرين فصلا. وكذلك المخبأ السري والجبال التي ارتبطت بعمليات القتال والهروب والعودة للوطن.وهي كما نلاحظ أمكنة مختلفة الدلالات لكنها مرتبطة بطبيعة التجربة.إن السجن من الأمكنة القليلة التي لم يفت في عضدها الزمن أو تشيخ، وتحاول تجديد نفسها وأشكالها الهندسية بتجديد جلاديها وضحاياها وتبقى شاهدا على الظلم. المؤلف بدوره لم يتبادل والسجن مشاعر الألفة والإقامة على مدى أربعة عشر عاما - فترة شبابه - قضاها متنقلا بين زنازين مختلفة في الصحراء وفي المدينة، عبر عن رفضه بتكرار عمليات الهروب الفاشلة والمؤلمة.أعوام السجن بعد أن عتقها الماضي في

ذاكرة المؤلف تحولت إلى قيم إنسانية واجتماعية لا يمكن نسيانها أو إلغائها بإلغاء السبب، وهو ما نلمسه ليست فقط عند زكي خيري بل كذلك في حالة المواطن العربي الوثيقة الصلة بثقافة السجن ودوالها والتي حولتها الذاكرة الجمعية إلى أمكنة أكثر كثافة في المتخيل منها في واقع حياة السجون "سجون نقرة السلمان والبصرة والكوت والحلة، ليس مجموعة غرف فقط بل ذاكرة أيدولوجية تحولت إلى أجزاء متحركة من التأريخ الشخصي للمسجون، ومن التأريخ الثقافي السياسي للمجتمع "٦. إن صعوبة إيجاد السياسي الذي لم يدخل السجن في البلاد العربية جعلت من السجن ملمحا من ملامح تكوين الشخصية السياسية العربية وجزء من تكوينها الثقافي والاجتماعي، ألقى بظلاله السلبية على مستقبل تلك الأحزاب والدول.فالسجون أمكنة أعدت للمعاناة والعزلة واجترار الأفكار والذكريات بالشكل الذي يزيد من نشاط المخيلة دون أن يساهم في توسيع الذاكرة.فشكل السجن الثابت هندسيا لا يحرك بداية فضول السجين الجديد والمثقل بإحساس الظلم، ليمتلك السجن شكلا خارجيا عاما ومطوقا بالعزلة وبالجدران الإسمنتية العارية، يتحول بعد ذلك بفضل الألفة وتوزيع العمل بين الطبخ والتنظيف لأعوام طويلة، إلى فضاء رتيب من استمرار الوجود تحلق فيه الأرواح والعقول خارج الأسوار.ولم يتغير تأثير الأمكنة على حياة السجناء المهلكة إلا في حالتي الزيادة والنقصان في عدد السجناء.

السجن كمكان لإنتاج العزلة لا يستطيع لوحده صنع الحوادث لكنه ينتج تنوعها البطيء والمتكرر، مع اختلاف أبطالها وزمانها.وهذا التنوع لا يلغي التناقضات التي تعلن عن نفسها في الأزمات السياسية والاجتماعية وأحيانا في اليومي والعابر.فالسجن مكان يتمتع ببطء إيقاع الحوادث الموزعة بين هموم الحياة اليومية الرتيبة وبين المشاكل المتكررة مع إدارة السجن ـ أمام القضبان ـ لتحسين مستوى الحياة لنزلائه ونادرا ما تقع حوادث داخلية ـ خلف القضبان ـ

لتصفية حسابات خاصة أو خلافات سياسية وتنظيمية بسبب التواجد الدائم للقيادات السياسية هناك.يتحول فيها السجن إلى مكان حاضن ومصنع ومصدر للأفكار ،ويتم فيه تحويل الصراعات الخارجية في الشارع والحزب والجيش وأروقة الدولة إلى حوادث وتحليلات ورؤى سياسية منظمة يعاد توجيهها إلى المنظمات التي تعمل في الخارج.لكنها توجيهات غير قادرة على الدوام في تجسيد حركة الشارع اليومية انعكس ذلك في كثير من التوجيهات السياسية المتسرعة مثل حادثة الاعتراف بتقسيم فلسطين من داخل القضبان والتي ما تزال تداعياتها موجودة إلى اليوم في الشارع العراقي "لقد تحولت قلعة أبو حنيك من سجن إلى أكاديمية علوم وآداب وسوق عكاظ للشعر والخطابة "٧ .

في الحياة الطبيعية نجد الحوادث تنتج أفكارا وعبرا لكننا في حياة السجن يجري العكس من ذلك،فنجد الأفكار والرؤى السياسية المعزولة خلف الأسوار هي التي تحاول أن تصنع أحداث الخارج من خلال التوجيهات بالتظاهر والتنظيم والإضراب وغيره، على أساس الترابط الذي لا تضعفه المسافات والعوازل بين القاعدة وبين القيادة.وهو ما قد يؤدي كما أسلفنا إلى التعثر وعدم فهم الحوادث اليومية في الشارع. وهذه الرؤى والأفكار التي توجهها القيادات من داخل السجن إلى خارجه قد تواجه قبولا أو رفضا في داخل السجن، وقد تؤدي إلى صراعات تنظيمية وسياسية تعكس نوعا من الصراعات التي تجري خارج القضبان كما حدث في سجن (الكوت) بعد إصدار ميثاق جديد للحزب تضمن إسقاط الملكية وإقامة نظام جمهوري يمثل طبقات الشعب باستثناء البرجوازية الوطنية،ما عده الآخرون خروجا على أفكار (فهد) الخاصة بمرحلة الاستقلال الوطني،أدى ذلك إلى خلافات فكرية سرعان ما تطورت إلى صراعات تسلح البعض منهم بآلات حادة ورفعوا راياتهم الخاصة بهم استعدادا للمقاومة داخل السجن ليعكس شكلا من أشكال تأثير المكان المغلق في صنع الأفكار.

إن حضور الزمان في رواية الحوادث يثبتها ويمدها بأسباب البقاء من جهة، ومن جهة أخرى ضمانة للتحليل الإقناعي في هذه الذكريات نشعر بترابطه عبر ترابط الأفكار وبعيدا عن الأمكنة.فنجد الزمن وهو ينتظم الأفكار في الذكريات، يقفز على أحداث شخصية ومراحل قد يجدها المؤلف غير ذي فائدة.فمن أجل الموقف السياسي يبقى الزمن مفتوحا على احتمالات التحليل والاستنتاج ليتخذ بالنهاية طبيعة لازمنية وكأنه مطلق كالأفكار الأيديولوجية التي يؤمن فيها المؤلف.إضافة إلى ذلك فإن التحديد والدقة الزمنيين يتطلبان الاستقرار والتوثيق وحضور الذاكرة وهي أمور يفتقر السياسي العربي إلى أغلبها بسبب طبيعة الصراع، فيلجأ إلى التحديدات العامة مثلا "في صيف ذلك العام أو في العام الأول في السجن..الخ.

إن متابعة الزمن في ذكريات الراحل زكي خيري لا تقتفي التسلسل العمودي للأحداث في الساعات والأيام والشهور بقدر ما تعني الترابط بالأفكار الناتجة عن الصراعات المولدة لزمنها الخاص.فنجد الزمن يبطئ ويتمدد عند الطفولة لكنه يسرع ويتكثف عند اشتداد الصراع.فمنطق الزمن هنا مرتبط بالأفكار وليست بوقوع الأمر على الأرض .

أسلوب الاستعادة الذي انتهجه المؤلف في سرد ذكرياته المعتمدة فعلي (الاختراق) لعقود من السنين (والتنشيط)لذاكرة في خريفها أنتج لغة متأثرة بطبيعة العلاقة بين قناعة المؤلف السياسة والفكرية وبين الحادثة، عبرت عن نفسها في كثرة التراكيب والمصطلحات السياسية والاقتصادية التي تهدف إلى توصيل الفكرة أولا ،ما أوقعها في الاختصار والتجريد أحيانا .فمثلا جملة (انتعاش الحركة الطلابية)عند المؤلف تختصر نضال وأحداث وشهداء وتأسيس منظمات طلابية في أعوام طويلة، لكنها ستكون جملة عادية لمن لا يملك رصيدا معرفيا بالراحل وبالجهة السياسية التي ينتمي إليها.وهذه التراكيب والمصطلحات السياسية لم تخفي اللغة اليومية التي ساعدت المؤلف

في التأويل، ولم تضعف من أسلوب المؤلف بالجمع بين الجد والسخرية عزز ذلك المعلومة النادرة والتجربة السياسية الغنية والخبرة الطويلة في الصحافة وإصدار البيانات وتأليف الكتب،وهو ما أنتج لغة متعددة المستويات استخدم فيها المؤلف الفصحى وشبه الفصحى والعامية التي تسربت إلى المذكرات من خلال التناقضات والتداعيات والشخصيات العابرة ليمنحنا لغة متداولة تتسجم والسرد العمودي للأحداث.

إن وجود الماضي والمستقبل في حاضر التجربة يعد أداة من أدوات الراحل في التحليل والتنبؤ والإقناع، إلا أن أسلوب الاستعادة في صفحاته الأولى أعتمد الفعل الماضي "أو الماضي الناقص" بمعدل عشرة مرات للصفحة الواحدة في الفصول المتعلقة بمرحلة الطفولة، بلغة أخاذة وممتعة وغير مهتمة بالإمساك بخناق القارئ وإقناعه ببراءة الطفولة،لتأتي لغة وصف للطفولة والصبا وأماكن التنشئة الأولى وتعلم السباحة والحب لغة ممتعة استعمل فيها المؤلف الكلمة الواضحة والمثقلة بالمعنى السياسي كالأمثال الشعبية والجمل الخبرية اليومية المرتبطة بحياة العامة.ولكن هذه اللغة ستتراجع إلى مستويات أخرى كلما ابتعدنا عن الفصول الأولى واقتربنا من المفيد، ليس لأن اللغة الرشيقة لا تتسجم مع المواقف الصعبة والحقائق القاسية ولكن تحول وظيفة اللغة من فعل للتفكير والتعبير والاتصال إلى أداة للتوصيل يتراجع فيه عنصر التأمل وإبداع التراكيب اللغوية لصالح المصطلحات والأفكار الجاهزة، أدى إلى وقوع المؤلف في شباك التقريرية والتكرار،ساهم في ذلك التجربة الصحافية التي مارسها المؤلف وعادة كتابة البرامج السياسية والبيانات السرية المباشرة والمتخمة بالشعارات والبرامج التي تهدف إلى التأثير في رأي الآخرين.

إن سيادة الماضي على رواية ما حدث لم يخفي انشطاره إلى مواض منسجمة ومتقاربة،كماضي الطفولة البعيدة جدا والخاصة بالمؤلف والماضي القريب الذي سبق وترافق مع إلقاء المرساة، وماضي الآخرين الذين عاصروا الراحل

وأوصلوا حكاياتهم على لسانه.

ذكريات زكي خيري تعج بالمواقف والأفكار الدالة على قيمة الإنسان العظيمة كونه الوسيلة والهدف في بناء المجتمع، لكننا - ارتباطا بغياب الحوادث - نشهد غيابا للفرد كعنصر أساسي من عناصر الحادثة.وهنا لا نتحدث عن البطل الفرد برومانتيكية المفردة وبعدها التاريخي في أولئك الذين يمتلكون خارق الصفات،بل ببساطة نعني أولئك الذين شاركوا وساهموا في صنع الحوادث (الأسباب والنتائج) كونهم يمتلكون وجودا حقيقيا مألوفا في الحياة اليومية بين الآخرين،أدركت بطولتهم أم لم تدرك.البطل هنا ليست جملة اعتراضية يمكن تجاوزها إذا لم تحتل مكانا داعما لرؤية المؤلف بل هو عنصر أساسي من عناصر الحادث الاجتماعي وهو الوسيلة والهدف.

إن أسباب غياب البطل مختلفة في رحلة المؤلف قد يكون من أهمها أسلوب الاستعادة الذي تتراجع أهميته في تراجع السنين وكثافة المعاناة،وثاني الأسباب هو بنية الذكريات التي اعتمدت التحليل والشرح للوصول للأهداف والدروس المبتغاة ما أدى إلى ضعف الحوادث وغياب أبطالها،وثالث الأسباب هو أيدولوجية المؤلف السياسية التي تتبنى فكر الطبقة ومصالح المجموعة لا الفرد وحاجاته،باعتبار مصلحة الفرد مرتبطة بالمجموع أولا .بما إن الحوادث يصعب تناولها دون صانعيها نجد المؤلف قد أستبدل البطل الفرد بالجماعة، ما يعني غياب أسماء الأشخاص لتحل محلها أسماء الفئات والطبقات والأحزاب، تتحرك في جمع هلامي يدور كل في مداره بين قطبين (الفقراء والأغنياء، الأصدقاء والأعداء، البروليتاريا والبرجوازية).في ذكريات زكي خيري نجد مفاهيم ودلالات الروح الجماعية ليست فقط في النضال والعمل بل وحتى في الطعام والشراب ومجريات الحياة اليومية التي تخلق خصوصية الفرد وتميزها،ففي السجن مثلا كان يوزع الطعام على السجناء بطاس من النحاس لكل فرد لكن الشيوعيين بدلوا ذلك إلى قصاع تسع ستة أنفار، وحتى السجناء المدللين

اللذين تـأتيهم وجبـات خاصة مـن عـائلاتهم كـان يتم تقسيم جـزء منهـا علـى الآخـرين.إن كلاسيكيات الماركسية الـتي تركـز علـى دور الفـرد في التـاريخ واضحة في ذكريات المؤلف وتوضح أكثر عندما تكون في خدمة الأغراض السياسية، فنراه يتمهل في تذكره فهد (يوسف سلمان يوسف) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي بعد سبعين عاما على لقائه به، موضحا صفات وسجايا لم نـزل نتلمسها إلى اليوم عند الكثير من كوادر حزبه الشيوعي من نكران الـذات وروح المبـادرة والقـدرة علـى كسب ود الـشارع الـسياسي وتطوير آليـات العمل الجماهيري وعدم القدرة على هضم الرأي الآخر، خصوصا المواقف الـتي تـصدر مـن خـارج التنظيم.المؤلـف يريـد أن يرينـا شيئا غـير تجربتـه في وصفه للآخرين ممن سبقوه خبرة وتجربة، لقد كان ابنـا بـارا للسياسة العربيـة بداية تشكلها.

بعـض الحـوادث لا يمكـن تناولهـا دونمـا أسمـاء وأبطـال بـسبب جـسامة الحـوادث سلبا أو إيجابـا ، مثـل انشقاق الحـزب الـشيوعي العراقـي عـام ١٩٦٧ ووقوف عزيز الحاج على رأس ذلك الانشقاق، أو انقلاب عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨ إضـافة إلى الكـثير مـن قـادة الحركـة الوطنيـة الـذين أسـهموا بحـق في تأسيس الدولة العراقيـة الحديثة مـن أمثـال سـاطع الحصري وجعفـر ابـو الـتمن والجـادرجي والجـواهري وغيرهم، لكننـا نجـد غيابـا كبيرا للأبطـال الآخـرين وخصوصا المسحوقين منهم والذي أفنى المؤلف حياته دفاعا عنهم وعـن حقـوقهم ومطـالبهم.وهـو مـا يـذكرنا بعبـور المؤلـف علـى الكـثير مـن الحـوادث الهامـشية والبعيدة عن تجربته.

إن ذكريــات زكــي خــيري ســرد متــصل، وبنــاء عمــودي للحــوادث المنتقاة، استعاد فيها المؤلف تجربته الذاتية المرتبطة بحيـاة المجموعـة الـتي ينتمـي إليها .

الهوامش

١- صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم . مركز الحرف العربي، الطبعة الثانية ١٩٩٦، السويد

لقد تناولنا في دراستنا لذكريات الراحل زكي خيري فقط الجزء الأول (صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم) ولم نتطرق إلى الجزء الثاني وعنوانه (صدى السنين في كتابات شيوعي عراقي مخضرم) بسبب الاختلافات الكبيرة في عنوان الكتاب وطريقة إخراجه وحجمه والمواد الداخلية فيه . فلقد كان الجزء الأول ذكريات بقلم المؤلف لحوادث عايشها وساهم بصنعها عن قرب أو عن بعد، أما الجزء الثاني فلم يكتبه المؤلف كذكريات ولم يطبعه بسبب معاناته ويأسه من عدم قدرته على طبع الجزء الأول لذكرياته ما دفع برفيقة عمره "سعاد خيري "إلى تجميع كتاباته ومقالاته بعد رحيله وإضاءتها ببعض الشروحات لإكمال ما بدأه المؤلف، لكن الكتاب الثاني في حقيقة الأمر بقي(دراسات موضوعية لتاريخ شعبنا في الثلث الأخير من هذا القرن) ولم تكمل ما بدئه المؤلف في الجزء الأول ولم تنهج التذكر واستعادة الحوادث ولا التعامل معها كمذكرات على الرغم من التسلسل الزمني الذي تمتعت به الرسائل والدراسات، وهي دراسات لا شك في أهميتها للباحثين والمؤرخين وأصحاب الشأن .

٢ - المصدر نفسه، ص ٢١٩

٣ – المصدر نفسه، ص ١٩

٤ ـ الأدب والأنواع الأدبية،ترجمة طاهر حجار،دار طلاس للدراسات والنشر١٩٨٥،ج١ ص ٢٣٩

٥- صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم . ص ١٧

٦ - ياسين النصير، جريدة الزمان، العدد رقم ٢٦١٢ ، بتأريخ ١١ - ٦ - ٢٠٠٢

٧ - صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم، ص ١٥٤

حيرة الغصن

سـيرة الشاعـر صلاح نيـازي

الإفراط في عدم التلفت إلى المراكب المضطربة بحثا عن موت كريم في أرض بعيدة، أكد مرة أخرى حقيقة التاريخ الذي يكرر نفسه في حوادث قمع الثقافة والمثقف على اختلاف التجارب والأسماء، ولذلك فإن تدفق الأسئلة والمعاناة في السيرة الذاتية للشاعر صلاح نيازي (غصن مطعم بشجرة غريبة)١ هي أسئلة الكثير من المثقفين اللذين ركضت بهم الأعوام صوب قدرهم في المنافي الباردة بكل ما تحتويه من فرح وشقاء وعزلة، بحثا عن موت آخر، لتوقفهم حكمتهم في واحدة من تلك المحطات وتوفر لهم الإمكانية على قول حقيقة ما حدث.

قلنا في مكان آخر أن عناصر الحادثة الواقعية هي حدودها بين جاراتها، ونضيف هنا أن رواية الحادثة السيرذاتية لا تشترط وقوفا محددا عند تلك العناصر، إلا إن ذلك نشاط إنساني عام عادة ما يصاحب عمليتي الاسترجاع والتدوين لما مضى من حوادث.وهذه العناصر /الزمان والمكان والأبطال/ كانت قد سبقت الحادثة، وأعقبتها، وستبقى بشكل ما فاعلة في الحراك الاجتماعي وتمتلك حضورا متعدد الجوانب، ولذلك فإن وقوع الأمر وانتهاءه يتطلب تحديد طبيعة العناصر وآليات اشتغالها داخل الحادثة المعينة، إعلانا عن انتهائها واكتمالها وحدودها ومنعا للالتباس والتداخل مع رصيفاتها من الحوادث.هذا التحديد وبتأثير مهنة وثقافة ومرجعية وظروف المؤلف سيأتي مختلفا بين راو وآخر في حضور عنصر وغياب آخر وسيادة ثالث على باقي

العناصر، مؤديا إلى أسلوب لتوصيل المعلومة مرتبطا بذلك.فالتعبير عن الذات في كتابات الأدب الشخصي غالبا ما يكون متحررا من أية تحديدات أسلوبية مسبقة.

بدأت سيرة الشاعر صلاح نيازي بحادثة الخلق محددة بالزمان والمكان "ولدت عام ١٩٣٥ على أفضل تقدير في مدينة الناصرية"٢ ثم ينتقل إلى ما وعته الذاكرة من أحداث، دون مقدمة أو هوامش أو إشارات.بلغة تصدم القارئ، بانفتاحها على النثر والشعر والصورة الذين يحتويهم السرد بما لم يترك مجالا للترهل أن يتسرب إلى حلقات المسبحة المترابطة بتلقائية العتق ورائحة اليدين اللتين كثيرا ما تدلنا انزلاقاتهما وشطحاتهما على طبيعة المعاناة المحتضنة رماد النسيان.

سوف لن نتوقف طويلا عند الطابع المكاني لفهرس الكتاب - الناصرية، بغداد، حلب، تركيا، ميلان، لندن - حيث عنونت فصول الكتاب الستة بأسماء المدن التي صاحبت رحلته باستثناء الدولة التركية التي مر فيها سريعا صوب المجهول، فإن السيرة عموما بدأت بالمكان وبالانطباعات الأولى عنه مع طفولة غائبة الملامح ومرتبطة على عجل بالشعر والكتابة لتبقى "الطفولة" خلفية زاهية ستشحب ألوانها وتتلاشى في قسوة وتنوع محطات الرحلة.

يعتبر المكان الجغرافي موطن الحادثة الأول قبل أن تستوطن الذاكرة، غير أن ميزة المكان في تنشيط الذاكرة هنا واجهت الاقتلاع منذ البداية في تركه المكان الأول، تجلى في اختلاف متعلقات الأمكنة وتميزها عن غيرها.فرائحة القرية في رحلته الأولى هي غيرها في المدينة، والاتجاهات الجغرافية على أطراف الناصرية معلومة على غير عادتها في المركز المزدحم للعاصمة بغداد، إضافة إلى ما تتركه واجهات المحلات والبيوت.

إن غياب الاستقرار في المحطات العابرة لم يساهم في تأصيل الأمكنة والأحداث التي وقعت بالعاصمة ليجعل ذاكرة المنفى القريب (لندن) أكثر غنى

منه من تلك التي في الوطن البعيد. صحيح إن فقر الحال وشلل الحياة والترحال ينتج عقم المكان البعيد أو بهتان خطوطه في أحسن الأحوال إلا أن براءة البدايات استعانت بالنخلة والسدرة وشجرة الراسقي التي يملأ عطرها أقصى زوايا البيت، كمفردات مكانية تزود البيت والشارع بالألفة والظل "كان يجب أن تسجل شجرة الراسقي كأحد أفراد العائلة في دائرة النفوس "٣.

إن الاستهلال بالمكان والطفولة بلغة عذبة والتقاطات طازجة لحيوات كأنا التقيناها للتو في مدينة محاصرة بالأمراض والأوبئة وشوارعها مكتظة بالأطفال والبغايا وأزياء الطوائف الدينية التي لا يربك إيقاعها سوى وقع أحذية الجنود وشراسة نظراتهم، استهلالا سيجعل من المكان، على الرغم من ضعف التنقيب والخطوط، متكأ يستند عليه في انقطاعات الذاكرة والتنقل بين الأزمنة، والعودة إليه(المكان) في الحلقات الأخيرة، واستعادته في إغناء الموضوع أحيانا.وهو ما أدى إلى القفز عبر الأزمنة عن طريق المقارنات أو المفاضلات أو غيرهما من دون أن يشعر القارئ بذلك العبور والتقاطع، يساعد المؤلف في ذلك أدوات السرد و منتجة اللقطات لإيصال المعنى. مثلا موت كلب أهدته له أنثى الوفرة والجمال - السكرتيرة - في لندن ومقارنة ذلك بموت كلب في طفولة شحيحة بجنوب العراق (الناصرية)، في مكانين وزمانين مختلفين وظروف موت مختلفة أديا إلى موضوع قصيدة.والناصرية كمكان لولا أنه الأول ولولا ارتباطه بالبدايات الحميمة لأصبح عابرا هو الآخر بسبب قصر إقامته فيه.

إن تنقل المؤلف بين الأزمنة حاملا معه الحوادث المتشابهة لغرض تصنيع خيوط مشتركة بينها يبرر كتابة قصيدة أو إنتاج فكرة ستكون انعكاساته مختلفة على الحوادث في الترابط، وسيفترض علاقات قائمة على ترابط الأفكار والدلالات خارج سياق التسلسل الزمني للأحداث.التنقل بين الأزمنة التي تتصف به الكتابة السيرذاتية لأغراض سردية أو لإبراز جانب معين من حياة المؤلف، يضعف الزمن الحقيقي لوقوع الأمر بعد أن يقطع التسلسل ويدوس

على التفاصيل الصغيرة ويعطي المؤلف مساحة أوسع للتعبير عن ذاته وأحلامه دونما روابط أو علاقات تحدده بحقيقة وقوع الأمر؛ أي استعادة الذات "والماضي" دونما اشتراطات، بلغة شعرية تؤشر إلى مرجعية المؤلف وأسلوبه في التوصيل.

إن أغلب أمكنة الفهرس في مقدمة الكتاب عابر في الزمن وغير واضح الملامح والخطوط.فنجد الناصرية التي زودته بهمين هما النهر المرتبط بالخوف من جفافه المؤدي إلى الزوال الأكيد والثاني محطة القطار الضاجة بالأيادي الملوحة، امتلكت (الناصرية) زمنا ماضيا فقط من الناحية الواقعية على الرغم من الوجود النفسي لها زمن الكتابة واحتضانها للكثير من أسئلة وقصائد الشاعر المتأخرة والمعبرة عن استمرار الزمن صعودا إلى نهاية الرحلة.الزمن الصاعد هنا تستوعبه طبيعة السرد للتوسع في حادثة معينة توضح رؤية المؤلف المعبر عنها بالاستطرادات الفكرية ومطاردة الأغراض، هذا الأسلوبان اللذان يسمحان بتداخل الأزمنة والتنقل بينهما كما ذهبنا.وبحسابات الزمن الذي نتلمسه في التحولات الكبيرة التي صاحبت حياة الشاعر وما تمتلكه من حميمية، فإن القارئ يتوهم أن وقوع الحوادث وزمن سردها لم يفصل بينهما الكثير، ونجد أحيانا الأسئلة التي عرضها المؤلف ما زالت تتردد حتى اليوم دونما أجوبة خصوصا تلك المتعلقة بالاستبداد والتناحر السياسي والمنفى وحصار المثقف.باستثناء بغداد التي زودته بشعور اليتم، فإن حلب وتركيا وميلان أمكنة انتظار في محطات الرحلة، نجدها عابرة وسريعة لا تمتلك ماض أو مستقبل في روح المؤلف إلا تلك التي تزود بها من بطون الكتب التاريخية والرحلات السياحية، فجاءت أمكنة ضبابية وغير واضحة الخطوط.أما لندن التي احتضنت غربته نصف قرن فنجدها حاضرة زمن كتابة السيرة بضبابها ومياهها من دون أن تملك ماض أو مستقبل في سرد الحوادث. لقد كان الشاعر منذ البدايات يسعى لأن يكون مجهولا وممتلأ بحزن جنوبي لا حد له، حزنا كان قد قربه من الآخرين وصالحه مع نفسه ونسج له الألفة مع

المكان وفرق له جريان دجلة عن جريان الفرات وأرجعه مرات إلى جوهره ووحده بالشعر.فهل زحف الحزن المبثوث في أغانينا ومناسباتنا الاجتماعية والدينية على الكتابة السيرذاتية كذلك؟. فنجد الأمكنة المتلألئة بالأضواء كشارع(أبو نؤاس)الذي يعد من أكثر شوارع العاصمة بغداد سحرا وخمرا ،في نظر الشاعر هو أكبر معرض للرجال المحبطين.لقد كان ،وما زال، لكل شيء حدود في تلك المناطق التي يخاصرها نهر الفرات إلا الحزن القادم من مواويل الاهوار وبكائيات القصائد الحسينية ومن الوداع الذي يتخذ صبغة الفراق الأبدي ومن جفاف النهر والعطش الذي يهدد حياتهم كما هدد حياة أهل بيت الرسول بكربلاء. على الرغم من كره نيازي لأغاني الفلاحين التي تقطع النياط إلا أنها "إضافة إلى الخرافات والقصائد الحسينية" شكلت مصدرا من مصادر معلوماته وثقافته في مدينة الناصرية.وحتى تلك القصائد المتفائلة بالغد المشرق الناثر الابتسامات والأفراح على وجنات الأطفال والشيوخ التي كتبها الشاعر بتأثير التطورات السياسية في شبابه انتهت إلى البحث عن خلاص فردي بعد اصطدام الشاعر بحقيقة الطينة العراقية المخلوطة بالحزن والقمع اللذين جبل السياسيين والشعراء منها تلك الأيام قبل أن يبنوا حلمهم في المسافة التي تفصل بين الجلاد وبين الضحية،وتجعل من سعادة الآخرين تقاس بالنجاة والابتعاد عن عاصمة الرعب الذي تم توزيعه على الجميع بعدالة قروية قل نظيرها،وتجعل من الرحيل عادة تطرق الأبواب الآمنة تنادي للبحث عن موت كريم في أرض أخرى سيتم في خطواتها الأولى قطع الطريق على قطعان الفيلة الراكضة في أرواحهم في أن تعود وتموت هناك،وهو ما أدى بالنخب المتعلمة للبحث عن خلاصها الفردي عزلة بين جدران البيت وتربية الأولاد أو البقاء في المنفى حتى التلف،بعيدا عن الآخرين وطرق خلاصهم السياسية والاجتماعية والدينية "كانت أمنيتي الوحيدة لا الوصول إلى لندن،لا العيش فيها،ولكن الموت في مكان آخر، الموت بإرادتي، "أردت أن أحس اللذة

السوداء في الوفاة".. أردت أن أختار موتي، كما أختار السهروردي موته.كان أشق شيء علي أن يشفي قاتلي غليله، أن أموت تحت قدميه وآلات تعذيبه مهانا مذلا، أمنيتي أن أحرمه من إشباع حقده "٤ .

إذا كانت لكل كتابة وظيفة فالأدب الشخصي يروي معاناة وخصوصية التجربة الذاتية والاجتماعية للأجيال القادمة ويزيل الغموض عن الوقائع لتمهد الطريق أمام المعنيين من المؤرخين والنقاد والعامة.الإبداع، عموما، لا يستبعد فكرة البحث عن تفاصيل حياة المؤلف ومعاناته وخصوصيته، فكيف والسيرة الذاتية تنشد ذلك وتحفر فيه.سيرة الشاعر التي بين أيدينا احتفت بالذات في انشغالات الفضيلة الزائفة إلى الحد الذي تبدو فيه سيرة معاناة لا معلومات، ولكن من دون القدرة على عبور عتبة المألوف في كشف أسرار الذات الخجولة على الرغم من تغير البيئات الثقافية والاجتماعية للمؤلف.فهي ابتعدت عن المألوف في سرد الوقائع والأحداث المترابطة عموديا أو الموثقة بالأسماء والأرقام والوثائق والأمكنة، من دون أن يعدم ذلك عناصر سيرية متنوعة تؤكد أن الكتابة لا يحدها مصطلح أو تحديد.إن سيرة صلاح نيازي لم تعن باعترافات شخصية أو مزايدات نضالية وسجون ومطاردات تثير فضول الساسة والمؤرخين على الرغم من انحياز الشاعر إلى اتجاه سياسي تلك الأيام، ولم تقف عند تفاصيل التطورات الثقافية واتجاهاتها ورموزها ببغداد لتستوقف النقاد والمثقفين مع أن الشاعر يقف في قلب تلك التطورات وسبق أن رسم بانوراما ثقافية سريعة لمدينة الناصرية.إن سيرة الشاعر مشحونة بالأسئلة وبالأحزان الشفيفة التي نسجت خيوطا بين شيطان الشعر وبين خلاصه الفردي، مبتعدة عن أحذية الجنود وقسوتهم وخائفة من السقوط في هاوية النظام والالتزام والوطن.لذلك ليست مصادفة أن يعبر المؤلف سريعا وبجمل قصيرة وقاطعة على أكثر الحوادث حدة وتأثيرا في حياة الآخرين كثورة تموز التي حدثت في العراق في بداية النصف الثاني من القرن الماضي ومقتل أخيه،

ولم يقف عند المحطات الأساسية في حياته الثقافية أو دواوينه الشعرية والمطبوعات التي ساهم في تأسيسها وإصدارها، ولم يسر لنا بمغامراته العاطفية والعائلية التي تصادفنا كصور شعرية رقيقة تومض بين حلقة وأخرى، ومضة حنين وومضة جفاء لقديم لا يريد الوقوف طويلا على أطلاله " تزوجت، ولدت ابنتي ريا، قتل أخي "٥ هكذا نصادف الحوادث المهمة في حياة المؤلف مبعثرة على الصفحات، دون تفاصيل أو سياقات للترابط، وبجمل فعلية قصيرة جدا.وهذا العبور السريع لا يعني خللا في بنية تلك الحوادث قد أثر في قدرتها على البقاء والإقناع بقدر ما يعني رغبة المؤلف في ذلك، أو رفضه المتاجرة بآخر العواطف التي تخص أهل بيته.طريقة السرد هنا تحاول استعادة الذات دونما وقائع وأسماء؛ أي أننا نتابع الأحداث ونرى أبطالها بعيون المؤلف فقط، أنها أحداثه هو فقط يرتبها كما يشاء وليست أحداثا عامة يستطيع القارئ إبداء الرأي في دقة المعلومة التي تقدمها وحقيقة وجود أبطالها أو يقارنها براو آخر سبقه إلى ذلك، إلا من عايش الشاعر عن قرب أو لازمه طويلا بالمكان أو المهنة.ولذلك فإن كثير من حوادث السفر ومصادفات المنفى التي عاشها الكثيرون نجدها مألوفة جرى تغريبها بتأثير من حالة المنفي الخائف من كل شيء، بلغة شعرية وصفية تسبق الأحداث القليلة وتعقبها.وقولنا أن (السيرة) لم تعبر عتبة المألوف عنينا بذلك أنها أضافت إلى رصيده الأدبي من دون أن تجلو الغموض عن الحقائق والأسئلة التي ينتظرها القارئ، ناهيك عن المؤرخ والناقد.هذا في الحقيقة نتلمسه عند كثير من الشعراء الذين كتبوا سيرهم الذاتية، ما يدفعنا للبحث عن المفردات الغائبة بين السطور أو في قصائدهم ورسائلهم وذكريات أصدقائهم المنسيين وقصاصات الورق القديمة.

إن عملية استرجاع الماضي وإعادة بنائه سرديا لا تشترط الصدق والتجرد المطلقين أو تغطية كل التفاصيل والأسماء وذلك بسبب طبيعة الذاكرة وذات الإنسان المركبة في تقلب الأعوام من جهة، وأخرى فإن استعادة الماضي غالبا ما

تتم على أرضية التذكر والنسيان والتخيل وهو ما يوسع من مساحة الحذف والإضافة، أو كما يقول إدوار سعيد (كلما كان ثمة استعادة ذكريات يجب أن يكون هناك اختلاق) .

إن (غصن مطعم بشجرة غريبة) اعتمدت ذاكرة الشاعر في المنفى زمن كتابتها، مدعمة بنتاجه الفكري والثقافي المصاحب لرحلته. وهي ذاكرة غنية وهرمة تميل إلى ما يجسد روح التجربة لا تفاصيلها، وكلما توسعت مساحة الخيال واللغة تراجعت حقيقة العناصر لتسرد لنا لا الحادثة بل روحها، لغة تستنهض ذاكرة اللغة لأغراض الكتابة والتلقي دونما حوادث.القارئ يشعر هنا أن لغة الشاعر البسيطة والعميقة والغنائية هي التي أمسكت بخناقه وأخضعت الحوادث إلى منطقها وتأملاتها وليس العكس، تم فيها اختزال الحادثة إلى صورة شعرية رائعة أو جملة نثرية ممتعة، لكن سريعة النسيان. فمجاز الشعر وروح النثر والرؤية التأملية والترحال في ظلال التجربة ومعاناتها يخلقون فضاء للتلقي غير قادر على توثيق الحوادث الواقعية كما هي، وأحيانا يحل التدفق اللغوي الممتع محل الحوادث التي لا تستقيم الكتابة السيرذاتية من دونها.إن الذاكرة التي تستعيد الحوادث هي بوابة الكتابة السيرذاتية ومن ثم يأتي السرد والصورة والوثيقة وأدوات التوصيل الأخر .

السيرة الذاتية المرنة والمتحركة كـ(مصطلح وتقنية)لا تشترط الحوادث إن كانت واقعية أو غير ذلك، معلومة العناصر أم لا ، ولكننا آثرنا التوقف عند ذلك لتبيان طبيعة الحوادث التي تشكل مناخ السيرة الذاتية المختلفة عنها في المذكرات، اليوميات، الاعترافات..الخ. فمؤلف السيرة الذاتية راو ومنتج للحوادث التي عاشها أو تخيلها وإن أسلوب روايته سيتأثر بطبيعة الحادثة إن كانت واقعية أم متخيلة ، ويعيد إنتاجها كتابيا على الورق.لكن الحادثة التي تتشكل في نسيج اللغة وتتجول بين الأزمنة والأمكنة والأفراد وطبقات السرد ، ترينا أن الحادثة الكتابية هي غير الحادثة الواقعية ، لأن الأولى مرتبطة

بالخيال وتقانات السرد والتوصيل، والثانية مرتبطة بالواقع وعناصر الحادثة المعلومة في المكان والزمان والأفراد ومن هنا فإن الحادثة السيرذاتية نجدها أقل حظا من صاحباتها من الأجناس الأخر في أن تكون لبنة في التاريخ المكتوب.

إن المنفى المتضمن انكسار الأمل في الرجوع إلى المكان الأول على نهر الفرات أوصل الذاكرة إلى تخوم الغياب الذي صاحب المؤلف منذ البدايات، فنجده يقول في الفصل الأول "وغابت الذاكرة بعد ذلك، وعدت على مشهد والدي على فراش أبيض في غرفة بمفرده "٦ لتوهم القارئ بأنها ذاكرة منشغلة بتوصيل الأجواء النفسية التي عاشها المؤلف ولا تحتفظ بالعابر والمألوف من الحوادث إلا تلك التي تؤسس لها مكانا في الموت أو الحب "الموت والماخور" وأنها ذاكرة تخزن الكلمات والصور لا الأحداث، لكننا في السطور المقبلة نحس توهجها في وداع الوطن والأهل وقلة الأيدي الملوحة، وتقف أكثر عند التفصيلات الصغيرة للمهرب وشرطي الحدود، وتذهلنا في وصف السهرة وطعامها وطاولتها بأسلوب روائي يجسد شبح الجوع والبرد والتسكع في المنفى.أي إنها ذاكرة لا تلتزم أسلوبا معينا في استعادة الأحداث وتسير بمحاذاة المخيلة، فنجدها تارة متسلسلة زمنيا وأخرى مترابطة حسب أهميتها وموضوعها وليست حسب وقوعها على الأرض.لقد أوهم المنفى ضحاياه بمنحهم ذاكرات قادرات على استعادة الحوادث والتفاصيل التي توقفت في المكان الأول، لكنها بالحقيقة ذاكرات لا تنفصل عن ما يقدمه المنفى من إيجابيات وتشوهات إنسانية تطال كل شيء ابتداء من طريقة المشي والكلام وانتهاء بالابتسام.

إن الاغتراب المدعم بالحزن والفقر وأسئلة الوجود كان قد سبق المنفى وأدى بالمؤلف إلى المرور سريعا على ماضي الطفولة والصبا والشباب بمدينة الناصرية، بلغة عذبة سهلة البنيان أكدت تخلص الشاعر من عقدة الميل الدائم للمفردات المتورمة.لغة امتلأت بالحكايات والصور والقصائد دون أن يمنعنا ذلك من سماع صوت الأنا وغنائيته وحزنه، على الرغم من تراجع الأحداث

والمفاصل الأساسية لتجارب المؤلف الشعرية والعاطفية والاجتماعية.إن هيمنة المؤلف المتدرجة على جريان السرد من الطفولة إلى ما تلاها دفع إلى الخلف "باستثناء المكان الأول" بتفصيلات الحياة اليومية والمباشرة للدائرة الضيقة والمحيطة به،والعبور السريع على أهم المحطات الفكرية والثقافية في تاريخ العراق الحديث متأثرا بطريقة شاعره الفطري"رشيد مجيد"في تقييم الشعر،بأن هذه قصيدة جيدة وتلك غير جيدة،بعيدا عن مفردات الحداثة ومصطلحات النقد.إن سير المؤلف على رصيف الأحداث متحاشيا الاحتدام والأسماء والتفصيلات قد حرم الكتاب والقارئ من متعتي الفضول والمعرفة في زمن يشهد تناقص مستمر في عدد الذين عاصروا تلك الأحداث والأسماء،باعتبار أن القارئ يبحث عن الآخرين في تجربة المؤلف مثلما يبحث عن المؤلف في تجارب الآخرين.

إن اليأس من مستقبل سيشيخ ساعة مولده وحاضر شكا منه الكثير من الشعراء غير محسوس ومفتت بين الماضي والمستقبل،أبعده عن المجموع وعن لغة الأجداد التي أمست عائقا للتفاهم ليختار المنفى غير مطاردا أو سجينا وليتسلح ضد نفسه بحقيقة تفوق الآخر الأوربي وعادة المقارنة بين الحضارات، خصوصا وان الإعجاب بأشرعة الرحيل على علبة السجائر كان قد سبق الإعجاب بالجذور العميقة الصامتة والقوية "كنت أشعر بغربة في أكثر الأجواء حميمة،أتلذذ بعاطفة أمي وأشعر بغربة،أتمتع بصحبة أصدقائي وأشعر بغربة،أحب الناصرية وأشعر بغربة،وببغداد كانت الغربة جارحة من يصدق أنني كنت غريبا حتى عن أهلي وأخوتي" إضافة إلى العنوان الذي يعلو السيرة ويرتبط بفضاء السرد (غصن مطعم بشجرة غريبة) ليتحول الاغتراب إلى حادث أساسي لا فكاك من قدرته في إضعاف أو تقوية الحوادث الأخرى.

سيرة الشاعر صلاح نيازي لم تكن سيرة شعرية بالمعنى المتعارف عليه للشعر،ولم تكن متخيلة بالكامل،بل نجدها معنونة باسم المؤلف ومدينة

مولده وعائلته، لكنهما ـ الشعر والخيال ـ الأكثر حضورا من بين مبتنيات السيرة الأخرى. على الرغم من تداخل الذاكرة بالمخيلة في الكتابة السيرذاتية إلا أننا هنا نرى الاشتغال على المخيلة أكثر منه على حقيقة الحوادث ومكانها وأبطالها ساعده في ذلك التلاعب بالزمان والمفارقات وشعرية اللغة التي دعمت مخيلته التصويرية في إقناع القارئ بجمالية الواقعة لا بحقيقة وقوعها.اللجوء إلى الخيال في إسناد الوقائع يغطي على اعترافات في طور التشكل أو أسرار آثر المؤلف تغليفها بالإيحاء والرمز.وهذه ستعقد من مهمة المتلقي وتدفعه للتأويل والبحث عن أجوبة لها في نتاجه الإبداعي الضخم.

إننا نفترض حقيقة الوقائع التي أوردها المؤلف لا نشترطها خصوصا وأنها تضم أسماء عامة وأمكنة معروفة تداخل كثير من أصدقاء المؤلف ممن عاصروها متفقين أو مختلفين في التفاصيل.والقارئ عند اطلاعه على عنوان الكتاب وجنسه ومؤلفه يبني طريقة للتلقي تنسجم وذلك.ففي كتابات الأدب الشخصي أول ما يتبادر لذهن القارئ حقيقة المعلومة ومن ثم أسلوب توصيلها. وإذا لم يكن حقيقة الحادثة وصدق روايتها شرطا لازما في المبنى السيرذاتي، فالأولى بالكذب أن يكون أكثر بعدا عن ذلك.

اللغة هي التي تمسك بالقارئ منذ البداية.ومع أهميتها في مجال التلقي إلا أنها لوحدها لا تنتج السيرة إذ لا بد من أحداث واقعية ـ أو غير واقعية ـ تستند إليها الكتابة.الحادثة خميرة السيرة الذاتية وبعكس ذلك ستكون نصا جميلا سريع النسيان ولن يبتعد كثيرا عن نصوص المؤلف الشعرية والنثرية الأخرى.القارئ يصادف في تقليبه الصفحات أحداثا عادية وقعت في قطار، أو سهرة جرى تناولها بلغة وأسلوب جعلا منها حوادث غريبة وكأنها لم تقع.فما يتحدث عنه المؤلف من مواقف في سهرة رائعة بمطعم تصلح فصلا من رواية عن غريب في يوم بارد، ينقضها كلها في الحلقة التي تليها بلغة عذبة لم تستطع إقناعنا بحقيقة الروايتين معا.وهذا التناقض بين الروايتين عن حادثة واحدة لراو

واحد لا يعني خللا في بنية الحادثة، فهي وقعت في المطعم وانتهت واكتملت عناصرها وسوف تتغير لاحقا على ألسنة الرواة، ولكن حين تختلف على لسان راو واحد سينتج شكا أو ظنا في المعلومة المراد إيصالها.

الحادثة تقع، أحيانا، متضمنة الشيء ونقيضه بسبب كثرة أبطالها وتنوع مرجعياتهم والزوايا التي يقفون عندها في روايتهم الحادثة إلا أننا نلتقي هنا الشيء ونقيضه عند راو واحد معبرة عن مزاج ومعاناة المؤلف الحقيقية في ظروف معينة.إن محاولة إيصال الحقيقة إلى القارئ عبر حوادث سيرية غير حقيقية ومرتبكة بغرض البساطة والصراحة وجذب القارئ، يحمل مشكلاته معه وأولها عدم قدرة الحادثة على البقاء طويلا في الذاكرات الفردية والجمعية، ناهيك عن ضعف إمكانية وضعها كواقعة مهمة في التاريخ.

إن الأدب الشخصي المبني على فعل الماضي يعتمد الحوادث التي وقعت لا يصطنعها. الحادثة بعد وقوعها في الزمان والمكان المعلومين لا يمكن التلاعب بعناصرها الداخلية /الزمان، المكان، الأفراد، الظروف/ دون أن يحدث ذلك خللا في بنيتها وفي أسلوب روايتها.ولكن يبدو أن السيرة الذاتية المنشغلة بمعانات الفرد قادرة، أكثر من غيرها/المذكرات والذكريات والاعترافات والشهادات ..الخ/على قراءات متعددة للحادثة الواحدة.وهو ما يؤدي بالتأكيد إلى التلاعب في عناصرها لتنسجم وتقنيات السرد والتوصيل.

إن الاسترسال في تنشيط المخيلة وتنويع الإيحاءات التي تغني المعاني والتمتع بلذة النص على حساب الوقائع، أو الاستعاضة عن تراكم الأحداث بالأفكار والأسئلة الوجودية عن التواضع والغرور والموت والحيرة، وتغليب الرؤية الشعرية والذاتية على غيرها، والطريقة الانتقائية في التعامل مع الحوادث والوقوف طويلا أو العبور سريعا بطريقة مونتاجية تفتقد الترابط أو التسلسل، كل ذلك أشار إلى الهوية السردية للمؤلف وأعطى الانطباع بضعف ذاكرة السيرة وطبيعتها في استرجاع ما تريد، وأدخلتنا نفق خيالنا في إعادة إنتاج ما نسيه

المؤلف بين الأسود والأبيض لننتهي إلى قناعة مفادها أننا كنا أكثر قناعة وفهما للشاعر بسبب قلة المعلومات المتجمعة لدينا عن قصائده وترجماته ونشاطاته الثقافية قبل أن تأتي السيرة وتطيح بكل شيء وتعيدنا إلى المربع الأول وتكرار السؤال البارد الرتيب عن من سيضيء من، السيرة أم الشعر؟ أم أنهما معا سيشكلان ثنائيا طيبا في رسم بورتريه لملامح الشاعر وتجربته بين الشعر والسياسة والمنفى؟. إن (غصن مطعم بشجرة غريبة) سرد استعادي، نثري وشعري، توقف فيه المؤلف عند ذاته، مستعينا بحادثات قليلات لإضاءة تجربته بالوطن والمنفى.

طبيعة الشعر المشبعة بالرموز وتحويل الواقع إلى خيال وإعادة تصوير الأخير على أنه واقع، يقف خلف رواية الحادثة بأسلوبين مختلفين وكأنها وقعت ولم تقع، وقدمت لنا رؤية احتمالية عن وقوع الحوادث.تدفق السيرة وتنقلها بين النثر والشعر بمستويات مختلفة وأزمان متداخلة قدم لنا أحداثا وأشخاصا غير واضحي المعالم مهمتهم توضيح صورة الشاعر ليس إلا.فالشعرية المتكدسة في خلفية السيرة لم تعمل على إجلاء الغموض عن الحوادث المنسية أو تربطها بغيرها لتوضيح مكانها، بل زاد من كثافتها. فالشعر يسبق الأحداث القليلة ويسوقها بأدواته ويحولها إلى معاناة وجماليات تمد بعمره حتى لو كانت بعيدة عن حقائق وقوع الأمور مما جعلنا نفكر بأن الحوادث تأتي من دون مقدمات واقعية كأنها قادمة من فراغ ولا تقول شيئا وذاهبة مع صاحباتها إلى المجهول، مقترحة علينا قراءة الغصن وحيرته كبيت من الشعر قاله شاعر جاهلي مجهول.لقد رصد المؤلف المعاني الكامنة في شجرة الراسقي وفي حزن الأرملة أكثر من تلك الكامنة في التاريخ والثورات والتيارات الثقافية والأحزاب السياسية التي تستلف القمع من بعضها بعض، في الفرد لا في المجموع، من دون تبريرات دينية وسياسية أو وعود ومشاريع للتغيير، أو تبيان صله ذلك إلى الشعر

والمنفى.ليبقى ذلك الضوء المنفلت من كوة الشعر دليل بصيرته في تلمس المكان الأول والطفولة والحبيبة والدم المسفوح ويستقوي به على المنفى،ويكتب سيرته بالطريقة التي تضمن بقائه هكذا .. شاعرا

الـهـوامـش

١ـ صلاح نيازي،غصن مطعم بشجرة غريبة،مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ـ لبنان

٢ـ المصدر نفسه ص ٧

٣ـ المصدر نفسه ص ١٦

٤ ـ المصدر نفسه ص ٥٠

٥ ـ المصدر نفسه ص ٣٥

٦ـ المصدر نفسه ص ٧

توفيق السويدي
التاريخ الذي ترويه النخبة

إن الأهمية التي تقف خلف كتابة المرحوم توفيق السويدي لمذكراته (نصف قرن من تأريخ العراق والقضية العربية)١ هي بلا شك خصوصية تجربته السياسية - العلمية المرتبطة بحقيقة تأسيس الدولة العراقية الحديثة في بداية القرن العشرين.أرتبط ذلك بأسماء وأحداث ما تزال حتى اليوم مصدرا هاما يستعين به الساسة والمؤرخون والمعنيون بمعرفة طبيعة الصراعات ونوعية القيادات العربية في مرحلة التأسيس، وتكتيكها السياسي وطرق عيشها وعلاقاتها فيما بينها ومع الآخرين،وتعكس ما جري خلف كواليس المؤسسات الرسمية من تسويات ومساومات حزبية ووزارية تطبخ على نار هادئة في بلد كانت تسوده الأمية وكان حديث العهد بآلة الدولة وبمؤامرات القصور والبرلمانات الملكية.

المذكرات عموما تستضئ بالحوادث الواقعية.وهي من بين أشكال الكتابة السيرذاتية الأخرى تعتبر الأكثر قربا من التاريخ، تتضمن الفردي والجمعي في الحراك الاجتماعي وتتناول منظمات ومؤسسات وصراعات تستدعي أحيانا أدوات المؤرخ ومفرداته.إذا كانت مذكرات السويدي لا تعكس "كاملة" حقيقة تلك الصراعات والتناقضات التي صاحبت تكوين الدولة العراقية وبعض المؤسسات العربية للدول الشبيهة، فإنها بلا شك قد أدلت بدلوها في إضاءة الأحداث التي أسست للتاريخ الذي لا يمكن التيقن منه إلا بحصيلة الأعين التي رأت والأقلام التي كتبت.حكاية الراحل المرتبطة بالعلم والسياسة والتي تبدو

مقطوعة الجذور ومنفصلة عن الواقع العراقي، اتكأت على معلومة هامة عكست جانبا مغلقا على العامة تمثل في تفصيلات البناء الفوقي للسلطة السياسية ودهاليز الدبلوماسية الرمادية وحياكة الاتفاقيات السرية، ليطلع عليها العامة والمعنيين في بناء تصوراتهم لتلك المرحلة.هذه المعلومة إلى جانب التفاصيل الشخصية لحياة المؤلف، صنعت مناخ المذكرات الهام والمفصل والمحمل بالموضوعات والأحداث المتسلسلة بعيدا عن الشطحات الخيالية لرجل دولة عايش الأحداث وساهم فيها.

إن المعرفة المتأخرة للحوادث المتأخرة لم يوقعها كاملة في فخ الرتابة والشك وعدم القدرة على الإتيان بشيء جديد، فكثير من القراء يهمهم في نهاية الأمر طبيعة الحوادث التي وقعت زمن التأسيس.الراحل كان رجل دولة لخمسة عقود شهد خلالها حوارات القادة اليومية على موائد الطعام وعرف أسرارا داخلية وخارجية يصعب على من لم يحط علما بتفصيلاتها من العامة والخاصة أن يتقبلها.فهو بحكم مهنته غالبا ما يتحدث بالتفصيل عن العلاقات الدولية مصحوبة بأنواع الطعام والملابس والمجاملات البروتوكولية والخطوات التي تسبق انحناءات التعظيم ووصف القادة والملوك والقصور، إلا أن ذلك لا يخلو من المواقف والأحداث التي تشكل مفاصل ضرورية في علاقات الشعوب الرسمية، وهو ما أدى بتلك البلدان لاحقا إلى فتح أبوبها للراحل في منفاه الأخير ويكون أسم السويدي وتاريخه السياسي والعلمي والدبلوماسي مشهورا، ساعده ذلك في إيصال مذكراته إلى الأوساط الرسمية والسياسية خارج حدود بلده العراق.السويدي وإن كانت مذكراته شخصية تدفع باتجاه العام "الرسمي" إلا أن اهتمامات الراحل القومية كانت عابرة للحدود كما يدل على ذلك عنوان الكتاب(نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية) نلتقي فيها كثيرا من الأسماء والأحداث المهمة التي جرى تناولها من قبل العديد من المؤرخين والسياسيين وتعطينا الأحداث مساحة أوسع للتأمل في حياة القادة

الأوائل.أحداث قد تتصادم مع مرويات الآخرين وتحليلاتهم ووثائقهم إلا أن ذلك لا يعني إلغاء أو تخطئة أحدهما للآخر بقدر ما هي وجهات نظر واختلاف في المواقع وطرق الروي، إضافة إلى أن تنوع رواية الحادثة الواحدة ظاهرة ايجابية تصب في مصلحة الثقافة وليس العكس.

السويدي كان يروي من الحوادث فقط تلك التي ساهم أو شارك فيها تاركا الحوادث الأخر حتى وإن كانت تدعم رؤيته "لقد حرصت في تدوين مذكراتي هذه على تسجيل ما قمت به بنفسي أو اطلعت عليه بصورة مباشرة بحكم اضطلاعي بمناصبي ومسؤولياتي فقط، دون سواه، توخيا للحقيقة المجردة وتفاديا لذكر ما لست منه على يقين "٢ .

السويدي سياسي ومثقف فاعل في مجتمعه ولا يمكن أن يروي ما وقع بعيدا عن تجربته ودوره.فقيمة التجربة الفردية في كتابة المذكرات تعد عاملا مهما في حقيقة ما يروى وفي بقاء تلك الرواية طويلا في ذاكرة المجتمع، إلا أن المؤلف في تناوله لحوادثه هو فقط أعطى الانطباع بأنه يكرر نفسه عبر حوادث عاشها ويعرف تفاصيلها هو، بعيدا عن حركة المجتمع، وأنه عاجز عن البحث خارج تجربته عن ما يوسع من مساحة رواية الحوادث، الأمر الذي دفع بكل ذلك إلى الشخصي والضيق والنخبوي.وهذه الرؤية ساهمت في إضعاف الجانب التاريخي للمذكرات خصوصا وإن كثافة الأحداث الداخلية والخارجية تتطلب عرضا شاملا وموسعا للأحداث ومن أكثر من جهة، على أن الإمساك بعنصر الأمانة واعتباره الممكن الوحيد في رواية الحوادث من الخارج سيؤسس في أسوأ الأحوال تقليدا إيجابيا مؤديا إلى تعاطف القارئ ولكنه لا يعني حقيقة الحادثة كاملة وظروفها وطبيعة موقعها وترابطها مع صاحباتها.كذلك لا يعني أنه سيكون مقنعا للجميع وإن روايته قد سادها الانسجام إذ أن تسيد عنصر الأمانة فقط ، على أهميته، في رواية الحوادث يخفي أغراض شخصية وسياسية تجلت هنا في حضور (الأنا) من خلال الوقوف بالتفصيل عند المواقف الإيجابية

في تجربته السياسية والدبلوماسية ومستشهدا بخطابات كاملة وبرامج عمل مفصلة في دعم موقفه، مع أنها محفوظة كلها في أرشيف الدولة الرسمي.الوقوف عند الذات في الأدب الشخصي مألوفا وضروريا تتطلبه الكتابة، إلا أن المذكرات بسبب قربها من الحوادث الواقعية والتاريخ تستدعي التوسع في ذلك باتجاه المجتمع ومؤسساته وصراعاته.

الأمانة وحدها في نقل الحوادث غير كاف، فهناك تقنيات التوصيل والحياد الموضوعي الذي افتقدناه في المذكرات تجلى في نقل تلك التي وقعت في أروقة الدولة الرسمية مع غياب واضح في تحديد البنيات الفكرية والاجتماعية لطبقات المجتمع العراقي أرتبط بميل وانحياز لفئة دون أخرى.إن إدارة الحوادث حين ترتبط بالمرجعيات الفكرية والثقافية فإن أدوات التوظيف والأغراض ستنتقي وتؤول وتلوي عنق الحوادث للوصول إلى الرواية المرغوبة؛أي أن الصدق يرتبط هنا ليس فقط بحقيقة ما جرى بل وفي المقاصد السياسية التي تدفع باتجاه الميل إلى حوادث معينة دون غيرها.

الحوادث تقع فرادى ثم تتراكم وتتخادم إلا أن اكتفاء الراحل هنا بأحداثه هو فقط كنوع من أنواع الدفاع عن النفس وعن التجربة الملكية بالعراق، أدى إلى فصلها وأضعاف ترابطها مع غيرها من الأحداث وأنتج اختلافا في الرؤية مع أقرانه من السياسيين والمؤرخين الذين عاصروا تلك الأحداث، خصوصا في تجاوزه أحداثا إستراتيجية عدت خللا في تناول تاريخ الدولة العراقية الحديثة لا يمكن تبريره بالمساهمة أو عدمها، بالقرب أو البعد عنها.فثورة العشرين مثلا التي حدثت في الفرات الأوسط بالعراق في الربع الأول من القرن العشرين ووصلت إلى شماله وجنوبه، يعدها المعنيون في الشأن السياسي مفصلا أساسيا في تاريخ الدولة العراقية بسبب اتساع رقعة حوادثها وعدالة مطالبها والنتائج التي تحققت بسببها في وضع عالمي شهد العديد من الثورات ضد الاستعمار، نجد السويدي يقف بعيدا عنها مع أنه يقف في وسط الأحداث السياسية

المرتبطة يومها بالشام والعراق، من دون أن يتناول تأثيراتها السلبية أو الإيجابية في تأسيس الدولة أو فيما تلاها من أحداث.إن ثورة العشرين لم تكن حادثة معزولة أو منعزلة،ولم تكن مجهولة أو قليلة الكلام،بل هي حادثة إستراتيجية احتوت على أسباب وجودها وبقائها طويلا في ذاكرة المجتمع بدليل المشاركة الواسعة من كافة طبقات المجتمع أثناء وقوعها،وكثافة البحوث والدراسات التي أعقبتها ودخولها كمفردة متداولة في قاموس المؤسسات الرسمية والمدنية على حد سواء، إضافة إلى أخبارها التي وصلت إلى الدول المجاورة والبعيدة.لكن المؤلف عزلها لأسباب تنسجم مع منظومته الفكرية وتطلعاته السياسية.فالسياسي أحيانا لا يتناول حادثة لا تأتي بفائدة أو تدعم موقفا وإن كانت مشهورة ومؤثرة وإستراتيجية،وفي الوقت نفسه لا يلغيها ما دامت لا تتعارض مع أولوياته، فيمر عليها سريعا إن كانت ضعيفة،ويلوي عنقها إن كانت غير ذلك.لقد كان السويدي ينظر إلى حراك البناء الفوقي للسلطة السياسية على أنه نتاج النخب المتعلمة والخبيرة فقط وليست من صنع العامة المشغولة برغيف الخبز أو انعكاسا لحياتهم،ولم يتطرق إلى حركة الشارع الحية في مذكراته على افتراض "تخلف" العامة ونزوعهم إلى الشعارات النارية والثورات ضد أسيادهم وأولياء أمورهم.وإن حدث وتذكر المؤلف الرأي العام وأحزابه السياسية يسارع إلى ربط ذلك بالسذاجة والغوغاء والتخلف، لنشهد فصلا قسريا بين البناء الفوقي للدولة وبين حركة الشارع اليومية أنعكس على طبيعة الأحداث التي تروي حياة النخبة فقط دون غيرها.أي إن الإقصاء الذي مارسه المؤلف بحق الحوادث هو الذي أنتج عزلتها وليست خللا في بنيتها أو ظروفها أو بسبب وقوعها خارج السياق المترابط أو أنها وقعت في مناطق نائية أو لطوائف معزولة.أنها معزولة بسبب نخبوية الراوي والأبطال والأمكنة ما أدى إلى وصول الحوادث إلينا كنتائج وخلاصات وليست أسبابا وضرورات وتفصيلات.ولم يأت في بال المثقف الكلاسيكي في أيامه الأخيرة أن نظرته

تلك قد لا تشكل رؤية مجتمعية مترابطة وقد تطبع تحليلاته بالسطحية في تناول جسام الأمور المؤسس لها في قاع المجتمع، وتدفعه في آخر أيامه كغيره من أبناء العامة أن يردد الأخبار والإشاعات عن الثورات والانقلابات.إن وقوف المؤلف عند حوادثه فقط بدعوى الأمانة وتهميش ما غيرها وتأثير ذلك على رؤيته، سيترك بصماته كذلك على بنيان المذكرات وأسلوب روي الحوادث.فعلى الرغم من إن المؤلف يروي حوادثه متضمنة أبطاله الذين يقودون المجتمع ويعيشون خارجه في القصور، إلا أنها بالنهاية ستتحول إلى حوادث عامة تخص الوزير والعامل والتاجر؛ أي أنها تروي عن النخبة ولكنها ليست موجهة للنخبة.والقارئ بدوره يبحث في الحوادث لأنها فعلا وقعت وليست لأنها نخبوية أو فئوية.وإذا كان إقصاء الحوادث أو تهميشها لا يترك فراغا - على الأقل بالنسبة للمؤلف - في الخطوات المهمة لتوضيح الرؤية، فإن القارئ سيتلمس ذلك أكثر ما يتلمسه في استخدام عنصر الزمان الذي ينتظم الحوادث وفي الفراغ المفتعل بين البناء الفوقي للدولة وبين بنائها التحتي في قاع المجتمع.

لقد أشاد المؤلف مذكراته عبر ذاكرة الدولة الرسمية وأساليبها بحكم عمله نصف قرن وزيرا أو سفيرا، واستعان ليس فقط بأرشيف الدولة الرسمي في بناء مذكراته بل كذلك بأدواتها في التغييب والمساومات والمجاملات.واغتنت المذكرات بالمعلومات الصغيرة والكثيرة عن تاريخ تشكيل الوزارات العراقية وسقوطها المستمر بداية تشكيل الدولة، وأفلحت في أزالت الغبار عن سيرة القادة السياسيين الذين أسهموا في تأسيس الدولة العراقية الحديثة من أمثال محمد محسن السعدون ونوري السعيد والعسكري، ومهدت الطريق للتعرف على تجاربهم من خلال الكشف عن الكثير من الحقائق التي طمستها اضطرابات الحياة السياسية بالعراق على مدى قرن من الزمن وانشغال العراقيين وقتذاك بقوت يومهم.إن أهمية المذكرات تأتي كذلك من معالجتها للمشاكل الخارجية التي واجهت البلد قبل عشرات السنين والتي بقيت ذيولها

حتى اليوم متجسدة بحوادث دينية وجغرافية وسياسية. فجريان الأعوام لم يوقف المشاكل المتأصلة بين شعوب المنطقة وإن تغيرت الأسباب في تجدد تلك الخلافات والحروب أو تغيرت الوجوه والقيادات كمشكلة الأكراد وخوف الجيران المزمن من التسهيلات التي كانت تقدم إلى أكراد العراق، ومشكلة المياه الجارية من تركيا وإيران إلى الأراضي العراقية والتي يعتقد الخبراء بأنها ستبقى آخر المشاكل المستعصية، ومشكلة العتبات المقدسة في كربلاء والنجف وميل الإيرانيين إلى متابعة ذلك بأنفسهم.هذه المشاكل المتنوعة والمتباعدة جغرافيا تقف خلفها أحداث قديمة ومعقدة تتم العودة إليها من قبل هذه الدول لغرض تأكيد المصالح الاقتصادية والأمنية الحالية ليس إلا.والمؤلف هنا لم يبحر للماضي بحثا عن تلك الحقائق والتفاصيل أو يربطها بالحوادث والأماكن المقدسة بقدر وقوفه على قدر ما تتطلبه المهنة الدبلوماسية وتنقله بين العواصم كموفد سياسي عن الدولة العراقية.

إن تجربة الراحل ابنة زمنها ولم تقف بعيدا عن معاصريه في أسلوب كتابة المذكرات بلغة مهنية ورسمية محافظة ومهذبة لا تشط حتى في أحلك الظروف وغير مهتمة بالذي لا يغني أهداف الرحلة، نتلمس ذلك منذ البدايات في دخوله المفيد من تجربته السياسية والعلمية عابرا الطفولة والصبا والشباب مختصرا ذلك في صفحة واحدة طغت عليها أسماء أجداده ونسب عائلته الذي أرجعه إلى "عبد المطلب القرشي " من دون التوقف عند الشارع والبيت والبدايات التي ساهمت في تكوين شخصية الطفل وأدت إلى هذا النوع من النبوغ والتكوين دون غيرهما، ومن ثم إلى كتابة المذكرات بهذا الأسلوب دون غيره. فهو يروي الحوادث التي شارك فيها أو أطلع عليها عن قرب فقط من دون التطرق إلى ما يجري في النهر الصاخب للحياة العامة، ليبعده ذلك عن الغريب والمعزول والمسكوت عنه من الحوادث.أي إن الحوادث الواردة في متن المذكرات مقيدة بحضور السويدي ومرتبطة باطلاعه على تفاصيلها وليس بموقعها بين رصيفاتها

أو دورها في الحياة العامة.وهذا لا يعني أن المؤلف كان انتقائيا للأحداث المهمة أو غير المهمة بل أنه أقتصر روايته على تلك التي ارتبطت بمهنته في دهاليز السلطة السياسية ونشاطاته العلمية.وهذا الأسلوب أبعد المؤلف عن الأحداث التي تعتبر من مفاصل تطور المجتمعات.فتجربة المؤلف الوطنية والتحررية في سني شبابه الأولى في بداية القرن العشرين وانتمائه إلى جمعية الفتاة بالشام ومشاركته الفعلية في أحداث الشام والعراق والحجاز في أعوام الاستقلال الضاجة بأطماع الاستعمار وحروب الاستقلال، نجده لا يقف عند ثورة العشرين في وسط وجنوب العراق التي أسست لبناء الدولة العراقية، ليقفز مباشرة إلى الدولة ودستورها وصراعاتها الفوقية على قيادة وتوجيه الشعب الأمي الذي لا يعرف حقوقه الدستورية، وتوعية العشائر التي يحيطها الجهل وانحازت إلى الانكليز ضد مصالحها كما يقول المؤلف.إن عدم توقفه عند ثورة العشرين كحدث استراتيجي ولجوئه إلى عموميات السياسة الوطنية ليس مرده فقط عدم المشاركة فيها والخوض في تفاصيل لا يعرفها بدقة حيث كان يومها بالشام يخطط للعودة إلى العراق، بل وكذلك التعالي الذي طبع رؤية المؤلف وعدم تقبله للاعتصام والثورة الشعبية والانقلاب العسكري كوسائل للتعبير عن المطالب والحقوق، وكان غالبا ما يختصر أحداث الشارع بجملة قصيرة ومبهمة "إن الشعب العراقي غريب الأطوار والاتجاهات" ٣ .

إن أهمية الحادثة هنا تأتي ليست فقط من كونها حقيقة وبنية فوقية. ساهم فيها الراوي أم لا ، كذلك تأتي من قوتها بين صاحباتها وإن كانت عابرة أو محتدمة ، ومن دورها في الترابط مع غيرها من الأحداث وفي تحديد العلاقات بين البشر على كافة المستويات لأنها تقع متضمنة مشاعر ورغبات ومصالح لمجموعات مختلفة ومتناقضة أحيانا.لذلك فإن قدرة ثورة العشرين كحادثة مفصلية على البقاء في الذاكرات /الشفهية ، المكتوبة. الفردية. الجمعية/ لم نقررها نحن فقط بل وكذلك تقررها طبيعة الحادثة وقوة

عناصرها التي تعمل كقوانين داخلية في تحديد بنيتها وشكلها وقدرتها على الترابط مع والتأثير بغيرها من الحوادث.فهي وإن كانت لا تشغل بال السويدي إلا أنها في حياة المجتمع تمتلك شأنا أخرا تجلى في أشعارهم وحياتهم وكتاباتهم وتأسيس أحزابهم ومنظماتهم.

صحيح إن الراحل لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق للكلمة لكنه لو تحدث عن رؤيته إزاء الحياة والكون والمجتمع فهو إنما يعكس ضمنيا تاريخا لطبيعة الحوادث التي وقعت، إلا إن مهنة الراحل - السياسية والدبلوماسية - التي مهدت لها تربيته المحافظة ساهمت في توسيع الفجوة بينه وبين الشارع ما أدى إلى سيادة الحوادث المرتبطة بالمهنة على تلك التي في حراك الشارع.لكننا لا نستطيع الجزم بحادثة سياسية أو دبلوماسية نقية بسبب الترابط العضوي بين البناء الفوقي للسلطة وبين القاعدة، حتى لو لم يعكس الأول مصالح الآخر كاملة.وهذا ما نلمسه في تاريخ العراق وطبيعة حوادثه الداخلية والخارجية مثل تقنين الحياة السياسية الداخلية أو إبرام الاتفاقيات السرية مع القوى الخارجية التي بقيت خلافية بين الشعب وبين الدولة وأدت إلى اضطرابات جماهيرية وسقوط وزارات متوالية.

كثير من الحوادث المهمة في حياة المؤلف عكست طبيعة الدول وأساليبها في إقامة العلاقات والمعاهدات التي تضمن مصالح تلك الدول الاقتصادية والسياسية والأمنية في كل غير منفصل وإن أعلنت غير ذلك.وكشفت عن طبيعة القيادات العربية في مرحلة التأسيس وأسلوب حياتها وعلاقاتها فيما بينها ومع الآخرين، وعن الصراعات الجارية خلف الكواليس لغرض المكاسب الحزبية والوزارية في بلد أمي وحديث العهد بمؤامرات القصور والبرلمانات.وهذه الحوادث التي ارتبطت بمهنة المؤلف الدبلوماسية ومشاركته الفعلية أبعدته عن الاعتماد على مذكرات الآخرين التي ازداد عددها نسبيا في النصف الأول من القرن العشرين، وعن أراء المؤرخين اللذين عاصروا المؤلف والأحداث معا.هذه

الحوادث المختلفة والمصاحبة لمهنة واحدة ومصدر واحد غالبا لا تنتج اختلافات كبيرة بين الحوادث أو تنوعا في أساليب روايتها أو تشويقا للقارئ، إلا أن تكرار الأجواء الذي أدى إلى تجاور الأحداث لم يؤدي إلى إنتاج حوادث متشابهة ومتطابقة في الأسباب والنتائج.ومع إننا نستطيع أن نبحث في تقارب الحوادث زمنيا وتكرار أبطالها ونزوع المؤلف إلى تصنيع الروابط الداخلية بين الأحداث المتشابهة لكننا لا نستطيع الحديث عن تطابق مجريات الوقائع. فمهنة المؤلف ساعدت على تجاور الأحداث المختلفة والمتباعدة في الزمان والمكان والأفراد وقللت من المسافة التي تفصل بين حقيقة وقوع الأمر وبين الموقف السياسي.فنجد الحوادث المرتبطة بحقوق القوميات إلى جانب تلك التي تتحدث عن الحدود والمياه،وهذا التجاور لا يعني التطابق أو الترابط في الأسباب والنتائج إلا أنه تجاور بحكم مهنة الدبلوماسي المتنقل بين الدول.وإن جرت الحوادث بدعوى الاشتراك العام في سياسة الدولة إلا أنها كحوادث لا تمتلك داخليا خصائص بنيوية مترابطة.نتلمس ذلك في الحوادث المرتبطة بالعلاقات الدولية في تكرار المجاملات والبروتوكولات وديكورات القصور، على العكس من تلك المرتبطة بصراعات الداخل وحسابات الربح والخسارة المعبر عنها باختزال وعبور على التفاصيل مفسحا المجال للاختلاف عند الآخرين الذين عاصروا الأحداث.رغم إن مهنة المؤلف لم تنتج أحداثا سياسية ودبلوماسية نقية لكنها استطاعت أن تضفي على المذكرات لغة وأجواء وأسماء توحي بذلك،وتعطي المؤلف لاحقا الإحساس بالاستقلالية عن الرأي الآخر وعن زملائه السياسيين والدبلوماسيين وتبعده عن رأي الشارع وحركته الحية لتسود بالتالي حقيقة المؤلف المستندة على المشاركة الفعلية فقط في الأحداث، دافعة إلى الخلف الرأي القائل بإيجابيات تنوع نقل الحادثة، كونه إنتاج للاختلاف وتأكيد لوقوع الأمر.

الحادثة عند السويدي هي مظهر من مظاهر نشاط النخبة المتعلمة والمتمرسة تبحث أسبابها ونتائجها في تلك الحلقة الضيقة بعيدا عن نشاط العامة المنشغلة

برغيف الخبز، نجد ذلك في أدوات المؤلف وأسلوبه في كتابة المذكرات فتأتي الحوادث تلقائية ومتسلسلة زمنيا ومنطقيا بفعل رؤية المؤلف لأحداثه، وموثقة بالأسماء والأزمنة والأمكنة.ولكن هذه التلقائية والتسلسل لا يعكسان حيوية الحادثة بين صاحباتها بقدر ما هو علاقة الحادثة بالراوي وحضوره ودوره فيها.

لقد كانت معلومات المؤلف الجغرافية كثيرة ومتنوعة ليست فقط بسبب ثقافته ودراسته، كذلك بتأثير من رحلاته الكثيرة والمطولة إلى درجة حلت فيها هذه المعلومات الجغرافية محل الأمكنة وخصائصها الداخلية، تذكرنا بالرحالة القدماء وهم يصفون حالة العمران والناس ووسائل السفر والعيش والثقافة. المؤلف حين يخصص بعض العناوين للحديث عن المدن التي زارها وطبيعتها المكانية وعمارتها فأنه سريعا ما يتحول إلى التعميم مبررا ذلك عدم معرفته بأحوال البلد ولغته وعاداته

" أهم سبب يجعلني لا أتوغل في الحديث عن لندن في رحلتي النائية هذه هو عدم معرفتي اللغة الانكليزية حينذاك "٤ . مع إن اللغة بمثابة حياة الشعب وتاريخه وحضارته إلا أن العين لا تقل أهمية في تصوير وتوثيق ما يحدث، وهذا ما نجده عند الكثير من المؤرخين اللذين يفضلون الشاهد الذي رأى على من كتب ووثق.

باستثناء البدايات فإن حياة المؤلف لم تكن قلقة وخاضعة لمخاوف التصفية الجسدية، ولذلك فإن الرحلات الكثيرة في حياته لم يكن مجبرا عليها أو هاربا من حالة تهديد تخلق عدم الانتباه إلى التفاصيل، بل كان يتقل حرا مكرما ومحاطا بالعناية والحماية. إن أكثر الأمكنة وجودا في المذكرات هي قاعات المؤتمرات وقصور الأمراء وبيوت القادة بما تمتلكه من أبهة وعظمة ومساحات ممتلئة بالتنظيم بسبب ما تحتويه من نشاطات قانونية وحقوقية تعكس الجانب الرسمي للدولة، تنتج علاقات متقاربة ولغة مهنية متعارف عليها على الرغم من تعدد اللغات والثقافات.لكن هذا الغنى يعكس فقرا في تنوع

الأمكنة وفي أشكالها الهندسية ناهيك عن غياب الطبيعة التي تحتضن كل ذلك.فالأمكنة المترفة والرسمية وهي تختصر النشاطات التي تجري بين خطوطها نجدها في وضع لا تستطيع معه التخفيف من الغموض والكتمان وسيادة لغة الهمس والتهذيب الرمادية التي لا تعطي غير الذي تريد أن تعطيه. والحقيقة فإن وجود المكان المترف كعنصر مهم بهذا الشكل، ينسجم ومناخ الكتابة عبر أسلوب للسرد ينتقي الحوادث وأبطالها.

في البناء العمودي للأحداث الذي سلكته المذكرات لم نصادف الغرائب ولم يتم استدعاء الحوادث التي لا رابط بينها إلا ما مضى من أعوام النشاط السياسي التي تتطلبه عملية الاسترجاع في توضيح الفكرة.المذكرات مثل أية كتابة إذا افتقدت الإثارة فأنها ستتحول إلى كتابة عادية.لقد بنى السويدي مذكراته بلغة بعيدة عن التحليل والشرح العميقين ومن دون احتكار للحوادث بسبب ارتباطها بكثرة الرواة والمساهمين من رجالات الدولة وبوثائق الدولة الرسمية، على أنه التزم موقفا في روايتها. الحوادث هنا تجري باتجاه واحد تصاعدي من بدايات النشاط السياسي وانتهاء بالمنفى دونما قفزات زمنية حادة للماضي أو للمستقبل تربك انسيابية المذكرات باستثناء غياب بعض الحوادث المهمة الذي أعطى الانطباع بالقفز عليها.المؤلف نادرا ما يستبق الأحداث بالإشارة إليها عرضا من دون الدخول في التفاصيل،أو نجده يسترسل بالزمن دون قطع في روي الحوادث كما شاهدنا ذلك في مشكلة الخلاف الحدودي بين العراق والسعودية الذي ظهر في بداية القرن الماضي أيام الحرب الطاحنة بين العائلة الهاشمية وبين عائلة آل سعود،تطلب رحلات كثيرة ومتكررة في أعوام طوال لفرض إقناع آل سعود بحسن نية العراقيين وعدم تدخلهم في الخلاف بين العائلتين.ومع إن المؤلف نادرا ما يلجأ إلى الوحدات الزمنية /الساعة واليوم والشهر/ إلا أن المذكرات تتمتع بالحضور اللافت للزمن جراء تسلسل الأحداث التي عايشها وارتباطها بشخصه،وتواجد تلك الأحداث في أرشيف الدولة

وكتابات المعاصرين.على الرغم من وسع مساحة الزمن إلا أننا غالبا ما نلتقي بأحداث وأسماء مكررة بسبب ضيق مساحة الأحداث النخبوية واختصارها على تلك التي ساهم هو فيها فقط،أو نجدها متشابهة ورتيبة تعكس ترهل الخيال ووسائل التعبير الرسمية عن حقيقة وقوع الأمر.فمثلا نجد الكثير من الحوادث ذات الأجواء الدبلوماسية تشهد تكرارا مرهقا لحفلات الاستقبال والتوديع والمجاملات والمناقشات لم يتغير فيها سوى تاريخ تلك الحفلات ووجوه الملوك والسفراء والرؤساء وكأنها مسرحية كلاسيكية مكتوبة بإتقان جرى إخراجها عدة مرات ولم يتغير فيها سوى الممثلين.

لا شك في إن السياسي المعارض مختلف في مفرداته اليومية عن ذاك الذي في دائرة السلطة الرسمية وإن كانا في العموم متشابهين.نحن هنا نتحدث عن البدايات قبل أن تتشابه ملامح الجلاد والضحية.فنجد عند الرسمي ميلا إلى الاختزال والقدرة على التبرير والابتعاد عن أخطاء " الأنا" في بناء المذكرات على العكس من السياسي المعارض الذي يميل إلى دمج (أناه) بحركة الجماهير في الشارع وانتقاد التجربة أحيانا. إذا كان دور الفرد عند (الرسمي) يأتي كعناصر نخبة في توجيه حركة الصراع فإنها عند "المعارض" عناصر داخلة في عملية الصراع وفاعلة فيه.نتلمس ذلك في الغياب الفاضح للأفراد العاديين وأصدقاء الطفولة والأقارب عند السويدي بما في ذلك أفراد عائلته باستثناء أخيه الوزير والسياسي (ناجي السويدي) الذي مات بمنفاه في أربعينيات القرن الماضي،فيما نجد كثافة أسماء القادة والملوك وتكرارها بسبب محدودية المساحة التي يتحرك فيها المؤلف.صاحب ذلك استرسال في وسائل عيشهم ونمط حياتهم وتفكيرهم بعيدا عن خصوصياتهم وعن ما يسئ لهم. مذكرات السويدي إلى جانب كشفها الموسع عن الحقائق الغائبة عن العامة فأنها كذلك غيبت حقائق كثيرة بإرادة المؤلف لأنها قد تكون مجلبة للمشاكل إذا قيلت بغير محلها "وتتضمن هذه المذكرات فصولا ودقائق وحقائق ووثائق غض النظر

عن أدراجها وتسجيلها في هذه الطبعة وفي هذا الوقت بالذات استجابة لنداء المصلحة القومية العليا واقتناعا بأن ذلك من مصلحة العامة، ما دام هذا الكتاب مذكرات وليست كتاب تاريخ، لاسيما وأن بعض الحقائق من شأنها إذا نشرت اليوم أن تؤدي إلى ما ليست هذه الأمة في حاجة منه إلى مزيد "٥. وبما إن المذكرات تكتب لمرة واحدة فقط وفي خريف العمر، فإن الحوادث التي لم تروى ستذهب مع صاحبها إلى القبر تاركة علامة استفهام خلف مفهومي الصدق والأمانة في رواية الحوادث .

إذا كانت عملية النقل الشفاهي مسبوقة بدلالة تتضمن حضور الحادثة فإن الكتابة المتجهة إلى القارئ غالبا ما تحتاج إلى عنوان يشكل جذبا للقارئ واستهلالا يختصر الموضوع ويوصله بالمفيد، كما نشاهده في مذكرات السويدي المتأثرة

شكليا بكتابة اليوميات من دون تمتعها بروح الحياة اليومية والتسجيل السريع واليومي للأحداث، فلقد تم استرجاع الحوادث وتدوينها في المنفى بعد أعوام طويلة على وقوعها.فالمذكرات لم تحرر بشكل يومي أو منتظم،واعتمدت في توثيقها الزمني على ذاكرة الشيخ المتعبة بعد أعوام أدى ذلك إلى عشرات الأخطاء التي أشار إليها السيد عبد الرزاق الحسني في بداية المذكرات. اليوميات لا يمكن لها أن تعتمد على التاريخ الذي يعد العمود الفقري لمذكرات السويدي.وبالتالي فإن توفير سجل لتاريخ تكوين الدولة العراقية لا يمكن أن تكون فيه اليوميات أكثر من رؤوس أقلام تساعد المؤلف في البحث والتوثيق والاستعانة بأرشيف الدولة وبالأسماء والمواقف.بما إن المؤلف لم يتطرق في المقدمة والخاتمة إلى الظروف التي صاحبت كتابة المذكرات وطباعتها فإننا سنأخذ (العنونة) على أنها من صنع المؤلف،وهي بلا شك (العناوين) لم تكتب لملء الفراغ أو جعل الحوادث تروى من أجلها بقدر ما هي انعكاسا لتجربة الراحل الفعلية في الدولة العراقية وتأثره بأساليب

الكتابة المتنوعة التي وفدت في القرن الماضي.

إضافة إلى العنوان الرئيسي فإن المذكرات وزعت على أكثر من ثلاثين فصلا رئيسيا ،تضمنت بدورها أكثر من مائة فصل فرعي، وزع كل ذلك على أكثر من ألفين من العناوين الصغيرة والسريعة التي تتراوح بين الكلمة الواحدة وبين أربع كلمات، وتتضمن الصفحة الواحدة بين عنوان إلى أربعة عناوين في عملية ماراثونية منهكة للقارئ، أعطت للمذكرات شكل اليوميات لا مضمونها.وحتى لو افترضنا جدلا أن المؤلف عنون كل مذكرة على حدة ولفترات طويلة فإن هذا الافتراض سيصمت أمام كثرة العناوين وتنوع دلالاتها في المذكرة الواحدة.مع إن المقاربات التحليلية بين مضمون العنوان وبين بنية الحادثة يعكس هنا تفاهمات مباشرة بينهما إلا أن كثرتها "العناوين" أربك أسلوب رواية الحادثة.فنجد الحادثة الواحدة أو الصفحة الواحدة وقد قسمت إلى عدة عناوين فرعية بهدف التركيز على الفكرة المقصودة كما نشاهده في صدور الدستور العثماني بتركيا وعدم فهم العرب لما يجري من حولهم أو في تأسيس المؤتمر العربي الأول بباريس.حيث جرى تقسيم الحادثة الواحدة إلى عناوين صغيرة كأنها فواصل بين جملة وأخرى، بين سؤال وجواب،أو يأتي العنوان أشبه بالنقطة التي تعلن عن انتهاء وبداية جملة في نفس سياق الحدث ومن دون انتهائه، وأحيانا الانتقال من أسم إلى آخر ومن مكان إلى آخر في نفس الحادثة والصفحة يضعه بعنوان خاص فيه.وبالتالي فإن تقسيم الحادثة على بياض الورقة عدة أقسام صغيرة ساهم في تميع دلالة وهدف العنونة من دون أن يلبسها ثوب اليوميات.قد يكون السياسي المعتاد على الخطابة والقيادة والشعارات تستهويه العناوين البراقة في تناول بعض الأحداث المهمة.لكن المؤلف هنا تعامل مع كافة الحوادث بهذا الأسلوب بما فيها تلك العادية والمعروفة لدى العامة والتي لا تتطلب جهدا أو توضيحا يفك أسرارها.كل ذلك ساهم في سيادة العنونة على موضوعات الكتاب إلى الحد الذي لا توجد فيه حادثة دون عنوان

أو عدة عناوين صغيرة تصل أحيانا إلى عشرة،تعطي القارئ إحساسا بقراءة الصحافة اليومية.إن تقطيع الحادثة وإغراقها بالعناوين السريعة كأسلوب في أضاءتها أو جذب اهتمام القارئ، أعطى الانطباع بعدم وضوح وظيفة العنونة عند المؤلف وأدى إلى إلباس المذكرات ثوب اليوميات دون مضمونها.فمثلا حين يعود الراحل من عصبة الأمم إلى بلده العراق مارا بإيطاليا فإنه يذكر ذاك المرور العابر بعشرين عنوان صغير /إلى إيطاليا، إلى موسوليني، في قصر فينيسيا، حديث الدوتشي،نهضة إيطاليا، الدوتشي والعراق/.

نحن هنا لا نستطيع فصل لغة وأسلوب الراحل عن مهنته في السلك الدبلوماسي وزياراته الكثيرة لمختلف البلدان ووضع كل زيارة في عنوان خاص بها على الرغم من التشابه الداخلي لمجريات لتلك الزيارات في الاستقبال والتوديع والأمور الرسمية وتأثيث المكان.وهي عناوين مألوفة وغير صادمة أو محيرة، وجاءت على شكل خلاصة مدرسية لما يعقبها، ولا أرى إن حذفها يؤثر عضويا في بنية المذكرات المتسلسلة والمنسابة .

مذكرات توفيق السويدي حكي منطقي متسلسل استعاد فيه حوادث النخبة المتضمنة دوره في بناء مؤسسات الدولة العراقية .

الهوامش

١ـ توفيق السويدي، نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الحكمة، الطبعة الثانية ١٩٩٩

٢ـ المصدر نفسه ص ٦٢٥

٣ـ المصدر نفسه ص ١٧٦

٤ـ المصدر نفسه ص ٨٧

٥ـ المصدر نفسه، المقدمة ص ٨

المحتويـات

العنـوان

Nassar A.K.
Hyacinthenstraat ١٦A
٢٣١٢ XC Leiden
Nederland
TL . ٣١ - ٠٧١ - ٥٢٢١٠٣٢
Nassarawad_٢٨٨@hotmail.com

NASSAR AWAD

RE-ENACTING THE EVENT

التعامل مع الحادثة،لذاتها،منفصلة عن التّاريخ والأغراض والذاكرات.ما زال يواجه صعوبات معرفية في ثقافة لم تغربل تراثها بعد ولم تحسم أمرها مع الماضي.الحادثة هي نحن.لها قدرتها النسبية على التواصل والانقطاع، ولها أسلوبها في التشابه والاختلاف ولها حدودها على الجغرافية والتّاريخ.وأي تخيّل لحياة الأفراد والمجموعات دونما حوادث فإنه سيُحلّق طويلاً ومن ثم يستريح عند عتبة حادثة الخلق الأولى.الحادثة حين تُصنع ،بمعزل عن إرادتنا، ستأخذ شكلها ومكانها حال وقوعها وحسب الأدوار التي يلعبها الأفراد والمجموعات لتفتح بعد ذلك طريقاً إلى ثقافة العامة ووعيهم، وتغتني بالإضافة والحذف وتعدد زوايا الرؤية إليها .الحادثة تقع ثم تنتهي إلا أنها تستمر وتتنوَع على ألسنة الرواة وليست على أرض الواقع.

